قلم العرش

- **عنوان الكتاب**: قلم العرش
- **تصنيف الكتاب**: رواية
- **اسم المؤلف**: محمد الناغي
- **رقم الإيداع**: 30865 /2024
- **الترقيم الدولي**: 978-977-9677-56-9
- **الطبعة الأولى**: 2024
- **الناشر**: مؤسسة غايا للإبداع

01066749525-01094075948

publishing@ghayaeg.com

www.facebook.com/ghayaeg

www.instagram.com/ghayaeg

www.youtube.com/@Ghaya-7

www.ghayaeg.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

محمد الناغي

قلم العرش

رواية

مقدمة المترجم

هذه أوراق وجدتُها مكتوبةً بالتركية القديمة وقتما كانت حُروفُها عربية، وجدتُها صدفةً في أحد متاجر إسطنبول الآسيوية القديمة، مخطوطةً كبيرة بحالةٍ ممتازةٍ، مكتوبةً بخطٍّ منمقٍ جميلٍ، باعتها لي عجوز طاعنة في السن بثمنٍ بخسٍ، ورأيتُ حينها أن مُخاطرتي في الشراء شبه منعدمةٍ. اشتريتُها ناويًا تدقيقها ومُراجعتها، كما هي مهنتي في المقام الأول، ثم بيعها بوصفها أثرًا، حالما أتأكد من أصالتها.

لكني، متى شرعتُ في العمل، فُوجئتُ بأنها تتناول شأنًا مصريًا خالصًا! أنى لها الوجود بأسواق إسطنبول العتيقة؟! ولماذا كُتبت بالتركية القديمة، لا العربية، رغم أن كاتبها مصري؟! وأسئلة أُخرى كثيرة عصفت بذهني، لم يكن من سبيلٍ لإجابتها سوى قراءة كامل المخطوطة. وما إن بدأتُ، حتى تعاظمت دهشتي؛ فأوقفتُ نفسي عن المتابعة، مُرجئًا ذلك لما بعد تدقيقها بالكامل. وحينما انتهيتُ، أعدتُ قراءتها كاملةً قراءةً مُتأنيةً؛ لأُقرر بعدما أُنهي ترجمتها نشرها على مراحل، ليقرأها عُمُومُ القُراء، لما رأيتُ فيها من إلقاء الضوء على أحداثٍ، ربما خفت على أجيال ما بعد الألفية الجديدة.

بحكم سنوات عمري التي تعدت السبعين، وبحكم تقاعُدي عن التدريس الجامعي، رأيتُ في تفرغي لترجمة هذا العمل السلوان الكافي لعملٍ أُشغل به وقتي.

والآن، أترُكُكُم لقراءة مُحتوى المخطوطة، التي كتبها موظف بالديوان الخديوي، يُدعى (مظهر شُقير) خطها بنفسه، عن حياته، وما عايشه بطبيعة عمله.

والله من وراء القصد.

المُترجِم

بورسعيد

12 /07 / 2024

1879

(1)

«تم توظيفك في القلمين التركي والعربي. إجادتك للغات لافتة، خاصةً أنك لم تتعد أربعةً وعشرين عامًا»، وأخفت صوته، ولكني سمعته: «القصر صار يمتلئُ بصغار السن».

هذه العبارة هي بدايةُ حياتي العملية الحقيقية، يوم الخامس عشر من شوالٍ لعام ستةٍ وتسعين ومائتين بعد الألف، الموافق الثاني من أكتوبر عام 1879، قبلها كنت هائمًا تتقاذفني رياحُ الحياة، وأنا أكتفي بالمشاهدة وكأني أرى حياة أحدٍ غيري، حتى تلك اللحظة. كان مُحدثي المُهردار شخصيًّا، شيخًا تجاوز الستين، متوسط النحافة، يرتدي حلةً كاملةً واضحةً الفخامة، تنضحُ الصحةُ في وجهه، عيناه ماكرتان كثعلبٍ يتوثبُ للانقضاض.

«تم تعيينك بتوصيةٍ خاصةٍ من كبار ضباط الجيش»، وضاقت عيناه: «أنت چركسي؟».

انكمشتُ في وقفتي أمام خاير باشا عرفان، مهردار القصر الخديوي، أو بالعربية حامل الختم، هو الموظفُ ذو السلطة الأعلى في الديوان الخديوي برمته. تلفت فشعرتُ ببقية موظفي المكتب حابسي أنفاسهم رهبةً من المهردار، أجبتُ وأنا أتجنبُ النظر لعينيه الحادتين:

«هـم أقربائـي مـن بعيـد». تسـاءل المهـردار خاير عرفـان ببـطء: «كارم شقير، وفاضل شقير أقرباءُك! لديك واسطة من العيار الثقيل إذن».

ثُم تحرك ليُغادر الحُجرة: «على أية حالٍ، لا أظُنك تحتاجُ وساطتهما كثيرًا؛ لقد اختبرتُ براعتك اللغوية بنفسي، لا أعلم متى تعلمت التركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية! أنت بارع».

وقبل أن أُعلق كان المُهردار قد غادر.

تنفستُ الصعداء، رفعتُ رأسي أتأمل حجرة عملي بالقصر الخديوي، الديكورات تشي ببذخٍ طاغٍ. كل هذا في حجرة الكتبة، فكيف الحال في بقية القصر؟ واتجهتُ لمكتبي، جلستُ إلى مقعدي شاعرًا بالرهبة، من كان يتخيل أن أعمل في قصر عابدين ذاته؟

«هل أنت حقا چركسي؟! هكذا ستترأس علينا، رغم أننا نسبقك في الأقدمية».

قال زميلي في المكتب بمسكنةٍ مُصطنعةٍ. هذه الحجرة رغم مساحتها الشاسعة تضم أربعة مكاتب فقط، كان يشغلُها ثلاثة مستخدمين، والآن صرتُ رابعهم.

هذا الذي حدثني علمتُ قبل قليلٍ أن اسمه فايز، والثاني الذي يرمُقُني بترقبٍ يُدعى داوود، أما الثالث الذي جلس بلا اكتراث فاسمه زاهر.

ووجدتُ نفسي أقول برهبةٍ: «لا داعي للقلق، مع العشرة ستعلمون أنني لا أتطلعُ لأي شيءٍ».

وجُلتُ بنظراتي فيهم، لا يبدو عليهما التصديق، لا يهم، أردفتُ: «أنا چركسي الأصل نعم؛ ولكني مصري المولد، تعاملوا معي على هذا الأساس».

تبادلوا النظرات كمن يكتمُ ضحكةً. لا بأس، اعتدتُ هذه السخافات. صرفتُ انتباهي لرزم الأوراق أمامي، ثمة الكثير من المُكاتبات الرسمية يتحتمُ ترجمتُها، سواء من العربية للتركية أو العكس، شعرتُ بالجذل لبدء عملي، بحماسةٍ ممتعةٍ قربتُ إليَّ المحبرة، وسويتُ رزمة أوراقٍ خشنةٍ خاليةٍ تنتظر كتابتي، وشرعتُ في العمل.

***

ترجلتُ في أزقة الجمالية، أقارنُ بين مظاهر الفقر هنا، والغنى الفاحش في سراي عابدين، لم تلحظ عيناي هذا الفقر، إلا بعد دخولي القصر الخديوي. شعرتُ بالحيرة، كيف يوجد نقيضان بهذا البعد في بلدٍ واحدٍ؟! واستغرقني التفكير حتى صعدتُ الدرج الخشبي الذي تنضحُ منه رائحةُ رطوبةٍ طاغيةٍ، ودخلتُ مسكني، جلستُ أستريحُ إلى الكرسي الوحيد بجانب طاولة الطعام الكائنة بمنتصف الصالة. شقة كبيرة بالنسبة لأعزب مثلي، تتكون من أربع غرفٍ وصالةٍ واسعةٍ. لم أجد ما هو أصغر.

قريباي كارم وفاضل شقير -جزاهما الله خيرًا- دبرا لي هذا المسكن، إيجاره ليس كبيرًا بالمقارنة بمرتبي في القصر. ها هو أذانُ المغرب، سرعان ما سيحل المساءُ، ترى كيف ستقضي ليلتك يا مظهر؟

جذبتُ جريدةً ابتعتُها في طريق عودتي، قلبتُ في صفحاتها سريعًا، كالعادة موضوع نفي جمال الدين الأفغاني لا يزال مسيطرًا على الصحف، رغم مرور نحو ستة أشهرٍ على نفيه، إلا أن نيران الحنق على القرار لم تخمد بعد. أتى الرجل مصر في مارس عام 1871، وغادرها في 29 أغسطس 1879، إلا أنه أحدث حراكًا لم تشهد المجتمعاتُ المصريةُ مثله من قبل، التف حوله النخبُ والعوام على السواء. في الواقع الرجل كان مُدهشًا حقا.

أتذكر كنتُ مرةً بالإسكندرية -قبيل خلع الخديوي إسماعيل- وحضرت إحدى خطبه الجماهيرية، كان يقول بجرأته المدهشة:

«أنت أيها الفلاحُ المسكينُ تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق، وتقومُ بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشقُ قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟».

وأخرجني من خواطري شُعوري بقرصة الجوع. طويتُ الجريدة وأنا أفكر في العروج على وكالة الجلابة في شارع الصنادقية بمنطقة الأزهر، هل آن الأوانُ لشراء فتاةٍ حبشيةٍ أو نوبيةٍ تتولى شؤون هذا البيت الكبير؟ أظن معي من المال ما يكفي؛ لكنني لم أشتر عبيدًا سابقًا، كيف سأتعامل مع شخصٍ غريبٍ يشاركني كل شيءٍ؟! سآكل ما تيسر، ثُم أهربُ من التفكير بالنوم، شأن كل ليلةٍ!

***

مضى شهران على تولية مصطفى رياض رئاسة المجلس الخصوصي، هذا يعني أن ستين يومًا مرَّت عليَّ في هذه الوظيفة. حيثُ تم تعييني بعد تولية مصطفى رياض بأيامٍ قلائل. لم أتصور مرور أيامي الأولى في القصر بهذه السرعة. زملائي في العمل يتجنبونني دونما سببٍ مفهومٍ. ربما لعامل السن، هم يكبرونني بعقدين من الزمان، ورغم ذلك أنا وحدي الذي يحوزُ الثناء.

بطبيعة عملي، كنتُ ألمحُ كبار رجال الدولة في مجيئهم وذهابهم بالقصر، مصطفى رياض رئيس مجلس النُّظار، بثباته المخيف المبكر جدًّا على رجلٍ لم يتجاوز الخامسة والأربعين، وعلي مبارك باشا ناظر الأشغال

العمومية، ومحمود سامي البارودي باشا ناظر الأوقاف. محمود باشا چركسي الأصل مثلي.

الخديوي أول مرةٍ رأيته شخصيًّا، كان مارًّا بالرواق الفسيح أمام حجرتنا، لم أصدق عينيَّ أنه هو، الخديوي شاب يكبرني بثلاثة أعوامٍ فقط! الرجل لا يتعدى سبعةً وعشرين عامًا.

أخرجتُ الساعة ذات السلسلة من الجيب الداخلي لحُلَّتي، باقٍ أقل من ساعة على ميعاد انتهاء العمل اليومي. أنهيتُ الأعمال الموكلة إليَّ وأعمال زميليَّ كذلك منذُ نصف ساعة. كيف عساي أقضي بقية الوقت؟ أنصتُ رغمًا عني لأحاديث زميليَّ التي لا تنتهي، تستهويهما جدًّا نميمة القصور، أكثر حديثهما عن مشاكل وصراعات ضحيتها الخديوي الشاب توفيق من حريمه. ما أعلمه أن الرجل متزوج من امرأة واحدة، الأميرة أمينة هانم إلهامي، حفيدة السلطان العثماني الأسبق عبد المجيد الأول. الخديوي المعزول إسماعيل اختار لنجله حفيدة سلطان، واضح أنه كان رجلًا حاذقًا فعلًا.

أفقتُ من خواطري على صوت موظف من معية الخديوي: «مظهر أفندي، جناب الخديوي يريدك حالًا».

فغر فمي غير مصدق، حملقتُ بالرجل، ملامحه الجدية أرعدت قلبي، الخديوي يطلبني شخصيًّا إلى حضرته! زملائي أربدت ملامحهم وتكدرت. قمتُ متعجلًا ووضعت الطربوش فوق رأسي، حاولت ضبط هندامي ولكني علمت أن يدي المرتعشتين ستُفسدان الوضع أكثر. فأخذت نَفَسًا عميقًا، ثم أشرت لموظف المعية الخديوية أن يتقدمني، لأسير خلفه وأنا من التشوش في غاية.

* * *

لبثت واقفًا أترقب حتى فتح لي أحد الموظفين وأشار لي بالدخول، دلفت بخطوات متوترة إلى خديوي مصر، وجدته واقفًا وقد أولاني ظهره، واضح أنه مستغرق في قراءة ورقة ما.

ما إن اقتربت منه حتى انتبه لي. الرجل فعلًا دون الثلاثين، ذو ملامح هادئة تحمل مسحةً حزينةً غامضةً، متصل الشارب واللحية المُشذَّبين بأناقة. الخديوي بدين نوعًا، ولم يكن بالطول الذي تخيلته. رمقني بنظرة طويلة فأطرقتُ بنظراتي إلى الأرض. قال: «ثمة زيارة غير متوقعة من الرقيبين الماليين، الفرنسي والإنجليزي. لا يوجد في القصر الآن أحد من قلم التسجيل، أحتاج من يُسجِّل المقابلة باللغتين الفرنسية والإنجليزية، وعلمت أنك تجيد اللغتين».

لم يخرج صوتي، فقط أومأتُ برأسي. قال وهو يدور ليجلس إلى مكتبه باذخ الفخامة: «استعد إذن، فوصولهما خلال دقائق». وأشار إلى كرسي قصير الساقين إلى يمين مكتبه، ذهبت إليه فوجدت منضدة دائرية موشحة بالزخارف النحاسية، فوقها رزم من الأوراق الموسومة بالشعار الخديوي، بالإضافة لعدة متكاملة من أدوات الكتابة. جلستُ متأهبًا، هنا دخل الحاجب بعد طرقتين، أخبر الخديوي بوصول الزائرين المهمين. أشار بإدخالهما، ثم التفت إليَّ، وبنبرة وادعة: «كل مهمتك تدوين ما سيدور بحسب لغة كل منهما. محظور تمامًا مقاطعتنا لأي سبب».

أومأت برأسي بقوة. دخل الزائران، صافحهما الخديوي بوقار، رغم ذلك خُيِّل لي أن ثمة اضطرابًا بنبرة صوته وهو يصافحهما: «أهلًا مسيو دو بلينير. أهلًا مستر أُوكلاند كولڤن». وأشار إليهما بالجلوس. وقال دو

بلينير بالفرنسية: «لن نأخذ من وقتك الكثير فخامة الخديوي». وقدم كولڤن ورقةً: «لقد تأخرت فخامتكم في اعتماد قرار التعيين».

كنت أرمقُ الخديوي توفيق الذي بدا كما لو اهتزت نظراته، وقال بالإنجليزية: «الشعب المصري غير مرتاح لعودة المراقبة الثنائية، و...»، قاطعةُ الإنجليزي بأدب حازم: «للشعب المصري حاكم يحكمه، بصير باحتياجاته، منوط بتجنيبه عواقب هو في غنى عنها». لحظتُ ارتجافةً عصبيةً في جفنَي الخديوي. هل الإنجليزي يتعمد الحديث بصلف، أم يُخيَّل إليَّ؟ وتدخل دو بلينير مُلطِّفًا: «القرار ليس قرارنا فخامة الخديوي، إنما نحنُ موظفون ننفذُ رغبة أممية من دائني الدولة المصرية».

لاذ الخديوي بالصمت متجنبًا النظر إليهما. فقال كولڤن: «الديونُ الطائلةُ التي أثقل بها والدكم إسماعيل الدولة المصرية، أصحابها من حقهم استيفاؤها، بالإضافة لفوائدها».

قال الخديوي بإنجليزية متقنة: «مراقبةُ الإيرادات والميزانية المصرية يخلُّ بسيادة حكمي، وأنا أحتاجُ الظهور أمام المصريين بمظهر حامي السيادة الوطنية».

تنحنح دو بلينير: «اسمح لي سُموّك، هذا قرار دولي جناب الخديوي».

فقال الخديوي بالفرنسية: «شعبي مستاء من هذا القرار». وقال كولڤن: «لا نريد أن نأخذ من وقتك الثمين أكثر من اللازم، من كامل سلطتك عدم التوقيع، ومن كامل واجبنا أن نبلغ دولتينا بذلك». وأردف بنبرة ذات مغزى: «لتنظرا هل حالفهما الصوابُ في تجاهل ذهاب العرش للأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي، وتوجيهه لفخامتكم، أم لا؟».

اندهشتُ مما سمعت. مرت لحظات ثقيلة، ثم رأيتُ الخديوي توفيق يلتقطُ القلم ببطء، ويمهر وثيقة أمامه بتوقيعه، ثم يوسمها بالختم الخديوي. رفعتُ عينيَّ لوجهه، فوجدته يتقلص مرارةً لم يحاول إخفاءها.

نهض السيدان، الإنجليزي والفرنسي، الأول تعتلي قسماته نظرة ظافرة، والآخر يعلو محياه الرضا. صافحا الخديوي باحترام فيما يقول الفرنسي: «شكرًا لوقتك جناب الخديوي». أومأ الخديوي برأسه مُحييًا. غادر السيدان بخطواتهما الوقورة. نظرتُ للخديوي فوجدته كاسف البال. شعرت بشيء من الإشفاق، كان حضور السيدين طاغيًا. قمتُ ووضعتُ ما كتبتُ أمام الخديوي، الذي جال بنظراته فيه، ثم قال: «خطك جميل يا مظهر أفندي». أطرقتُ للأرض وأنا أربتُ على صدري ممتنًّا، ثم قلت: «أوامر سعادتك جناب الخديوي». فأشار لي بأناقة أن أخرج. غادرت مُهرولًا، وكأني لا أصدقُ أن الأمر انتهى على خير!

***

قضيتُ بقية يومي مُنتشيًا بمقابلة الخديوي، تُرى هل ستتكرر مرةً أخرى؟ مجالسةُ الملوك وذوي السلطة الطاغية تتركُ لذةً عجيبةً في النفس، رغم أني ذقتها مرةً واحدةً، إلا أن نفسي تاقت للتكرار، بيدَ أن مع مُضي الأيام وتتابعها، أدركت أن ذلك غير وارد. من جانب آخر، ساورني نوع من الألفة مع وظيفتي، أحببتها وأحببتُ نمطها المستقر. واعتاد زملائي عبارات الثناء التي لا تقصد سواي. وكلما أضيق بالرتابة، أقضي الليل في أماكن الأنس والسمر. غير مرة قادتني قدماي إلى أماكن تعجُّ ببنات البغاء. أجرهن ليس عاليًا. رغم نظرات القوادين المخيفة، سواءً كانوا رجالًا أو نساء، إلا أنهم في غاية اللطف ما دمتُ أبقي يدي مبسوطةً

بالعطاء. لكني لم أصل لمبتغاي معهن إطلاقًا، في كل مرة يهمد كل شيء داخلي مع رؤيتي ما هن فيه من تصنع وابتذال. هن بائسات تعسات مهما حاولن أن يُظهرن العكس. زرتُ أكثرَ من ثلاثة أماكن مختلفة، بعدها أيست من تكرار المحاولة. شعوري الدائمُ بالغربة أكد لي أنني لا أنتمي لهناك.

طفت بمعظم شوارع القاهرة الشعبية، لا أحب ارتياد المقاهي، رغم أنني لا عمل لديَّ بالليل، إلا أنني أضنُّ بالوقت الذي أقضيه بالمقاهي. كذلك لا أصدقاء لي أتساير معهم. ما أكثر ما حاولتُ تكوين صداقات؛ لكنها لم تثمر عن شيء. شيء ما في مظهري يبعد الناس عني، أغلبهم ما إن يراني حتى يرمقني بنظرة طويلة كأنما يتطلع لشيء غريب، ثم يحدثونني بجفاء كأنما يستفزونني لشجار. هل السبب شيء في نظراتي؟ هل السبب عيناي الزرقاوان وبشرتي القمحية، وشعري البندقي؟ عندما أفكر عادة ما تتجهمُ ملامحي. فهل يكونُ شكلي عدوانيًّا وأنا غير عالم؟

زرتُ مساجد الحسين والسيدة زينب والسيدة نفسية. حضرتُ الموالد، تعبتُ من كل شيء حتى ملأني الضجر.

مضت شهور أخرى على عملي بالقصر. ما لي لم أُفصل منه بعد؟! كافةُ وظائفي قبل ذلك لم أستمر بها إلا عامًا كحد أقصى، وأسباب الفصل دائمًا مجهولة.

لن أُشغل عقلي، هذا ما اعتدتُ عليه. أينما تصرفني الرياحُ سأتجه.

ولكني لم أكن أعلمُ الوجهة التي يدَّخرها لي القدر!

***

1880

(2)

جاء يوم ووجدت استدعاءً آخر من الخديوي، وقبل أن تدور بي الأفكار وجدتُ المهردار على عتبة الحجرة، وقال لي بمكر: «أنت ولد محظوظ، الخديوي اعتمدك رسميًّا كاتبًا لمحاضر مقابلات فخامته». وتفجرت الدهشةُ على ملامح زملائي.

وكان ذلك بمثابة فصل جديد من السعادة والأبهة. صرت أرى الخديوي مرتين على الأقل أسبوعيًّا، لا يبعد عني سوى أمتار. الخديوي قليل الكلام، دائمًا عيناه مهمومتان، قسماته تعكسُ حزنًا دفينًا أو تشاؤمًا مقيمًا. وذات يوم، أقبل علينا رياض باشا رئيس النُظَّار، وفي عقبه عثمان رفقي ناظر الحربية، كنت استنتجتُ أن الخديوي لا يرتاحُ للاثنين. وذات مرة ألقى لي المهردار عبارةً لم أفهمها، أن الخديوي يغار من رياض باشا. يغار؟! كيف يغار الخديوي -نائبُ الخليفة- من مجرد رئيس للنُظَّار؟! ونفضتُ عني خواطري وأنا أدوِّنُ ما يدور من نقاش عاصف بين ثلاثتهم. كان عثمان رفقي يقول بامتعاض: «لا يمكنُ السكوتُ على جرأة ضباط فلاحين»!

عقَّب رياض باشا: «الأمر ليس مجرد التماس قدموه لوزير الحربية

في 20 مايو. هذا أمرٌ إن لم يتم وأده؛ فله ما بعده»، وصمت لحظات ثم أردف مُتجهمًا: «هذا العام -1880- يشهد سلفًا توترات غير مسبوقة».

فركَ الخديوي لحيته المشذبة: «حينما سردت أسماء هؤلاء الضباط، كان بينهم اسم مألوف». قال رياض: «لعل فخامتكم تقصدون الضابط أحمد عرابي».

لمعت عينا الخديوي، وقال: «أليس هذا الذي منع ضباطه من الاستجابة للأوامر، ولم يسمح لكتيبته بالمشاركة في حفر الرياح التوفيقي؟».

أومأ عثمان رفقي ممتقع الوجه، فيما قال رياض باشا: «ثمة موجة سادت أخيرًا بالجيش، من رفض العمل في الأعمال الزراعية، والمهام التي تجري بالسخرة، مثل شق الترع، والطرق، حتى العمل في الضياع المملوكة للأسرة الخديوية، بدعوى أنهم يعملون في جيش يجدر ألا يعمل أفراده في غير الأغراض العسكرية، وحماية الأراضي المصرية».

قال الخديوي: «وتنويان عقابهم؟».

قطَّبَ عثمان رفقي في عصبية، فيما قال رياض باشا: «القنصلان الإنجليزي والفرنسي يستخدمان نفوذهما لمنع التعسف معهم، بدعوى أن شكواهم عاديةً، وغير سياسية، فجلُّ ما يطلبونه مرتباتهم المتأخرة فوق الستة أشهر، ومساواتهم في الترقيات مع الضباط الچراكسة».

شعرت بالدهشة لعلم القنصلين بمجرد التماس على مكتب ناظر الجهادية! أما عثمان رفقي فدمدم حانقًا: «ضباط فلاحون جشعون»! وتابع رياض باشا: «القنصل الفرنسي تحديدًا (أم. دي. رنج) يقف إلى

جانب الضباط؛ بل لقد حضر التحقيق معهم بنفسه»، وعقد حاجبيه ساخطًا: «ولم يستحِ من الرد على سخريتي منهم، أمامهم»، واستدرك: «فعلها بأسلوب دبلوماسي طبعًا. ولكن هذا غير مسبوق. هكذا ستزيد جرأتهم، خاصةً مع الحماية التي يصبغها القنصل الفرنسي عليهم».

قال الخديوي: «الفرنجةُ لا يتصرفون بالأهواء. القنصل الفرنسي حتمًا يرى في الاستجابة لمطالبهم ضررًا أصغر يدفعُ ضررًا أكبر».

ازداد تجهم الرجلين، انقطع الحديث في هذا الشأن، لتمضي الجلسة بعدها في تفقد روتيني لأحوال البلاد.

وفي المساء، لم أجد بُدًّا من تغيير عاداتي والجلوس في أحد المقاهي. كان حديث الخديوي مع وزرائه عن الشؤون الداخلية وأحوال الناس قد جذب فضولي بشدة للاختلاط بهم عن قرب. أنا بطبعي أميل للانعزال؛ لكن سابق خبرتي في العمل ككاتب حسابات لدى يونانيين وقبارصة حازوا أراضي زراعية بالربا والدَّين، جعلني أرى وضع الفلاحين بالذات مختلفًا تمامًا عن الصورة الوردية التي يقدمها نظار الحكومة للخديوي. وهكذا مع صدوح أذان العشاء جلستُ في مقهى اللبَّان المطل على فرع نيلي يوشك أن يجف، الجالسون حولي ما بين أفندية ومجلببين. ثمة من يضعُ عودًا تحت إبطه ويشدو بأغانٍ على الطراز التركي، ومعه زميلُه يدعمُه بالعزف على آلة الأُرغُول. نظرتُ للجالسين محاولًا جذب أواصر الحديث مع أي منهم؛ لكن لا أحد نظر ناحيتي. حاولتُ استراق السمع لأحاديثهم، بيد أن أغلبهم إما شارد ساهم، وإما مشغول بلعب الطاولة أو الكوتشينة. وهكذا لم أجد سوى إخراج جريدتي المطوية، كانت جريدة إيطالية، وشرعت أقرأُ فيها شاعرًا بخيبة أمل.

ولم أكرر موضوع المقهى هذا، وانشغلت في عملي الذي تزايدت فيه مراتُ لقاءاتي مع الخديوي، لأجد نفسي -بحكم حضوري اجتماعاته مع مختلف القناصل والنظار والشخصيات العامة- في خضم مُعترك السياسة وشؤون الحكم. كان هذا جديدًا تمامًا بالنسبة لي، لم أكن أهتم بالسياسة سابقًا، أو بأي شيء آخر، اللهم قوت يومي. ولكني الآن أرى مداركي تتفتح تدريجيًّا على عوالم ما لها من حدود، وساعدت طبيعةُ وظيفتي من وجوب صمتي أن أستمع فأحسن الاستماع، وأنصت حدَّ التدبر.

وعرفت في القصر مصر أخرى، مصر تغلي. الحوادثُ تتعاقب، اتخَذَتْ حكومة رياض باشا قرارًا بنفي شهبندر التجار حسن موسى العقاد -وهو شاب من ذوي الأملاك بالشرقية- إلى النيل الأبيض؛ لأنه طعن على قانون المقابلة الذي كان الخديوي السابق إسماعيل قد أصدره، بسبب مطالبته بمساواة أهالي مصر بالأجانب الذين دفعوا للحكومة في ظل قانون المقابلة خمسة ملايين فقط، فيما دفع المصريون سبعة عشر مليونًا من الجنيهات في ظل نفس القانون. وهو ما جعل الأوساط النخبوية تغلي، فالرجل منذُ صغره كان عضوًا سابقًا بمجلس النواب في الفترة من 1870 إلى 1873.

وجاء شهر يونيو 1880، لينصاع الخديوي توفيق أخيرًا للضغوط الأوروبية، وينشئ «مصلحة إلغاء الرق»، وعيَّن لرئاستها الكونت ديلا سالا الذي اشتهر بحماسته في محاربة هذه التجارة. وتتابع زخمُ الأحوال الاقتصادية، ليبرهن الخديوي الشاب على حسن إدارته، فتكونت شركةُ الأراضي والرهونات، والبنك العقاري المصري. ووطدت شركات أخرى أعمالها في مصر، كشركة ترام القاهرة، وشركة النور، وشركة ترام

الإسكندرية، وسكة حديد الدلتا، وشركة البواخر النيلية. حتى استدعاني الخديوي ذات صباح لكتابة ونسخ بعض القرارات، عندما وفد علينا رئيس المجلس الخصوصي رياض باشا، بنظراته الموشية بالخطورة. استأذنتُ الخديوي في الخروج؛ لكنه أشار لي بطرف أصبعه أن أبقى وأواصل أعمالي، بينما كان رياض باشا يستطرد: «القائمقام[1] عرابي، تحرياتُ الأمن تجزمُ بأنه بعد عودته لقيادة للكتيبة الرابعة بالقاهرة، لا يفتر عن تجديد صلاته مع زعماء الإصلاح في الأزهر، ومع دعاة الحزب الدستوري. جناب الخديوي، هذه التحركات غاية في الخطورة». عاد الخديوي في جلسته بظهره إلى الوراء، وشبك أصابعه أمام صدره: «واضح أنك تمارسُ أعمالك كناظر داخلية بنفس كفاءتك كرئيس للنظار». أحنى رياض باشا رأسه نصف انحنائه بحركة أنيقة. لم يغير ذلك من ملامحه المتجهمة. فيما تساءل الخديوي: «ما الذي يريبك بالضبط؟». قال رئيس النظار: «هذا رجل عسكري، ما حاجته لكل هذه التحركات والظهور الاجتماعي، ما لم يكن في الأمر أمرًا؟». قال الخديوي باهتمام: «وما ترجيحك لنواياه؟».

أجاب رياض باشا بنبرة متوترة: «ما أعلمه أنها حتمًا مساعٍ لا علاقة لها بالعسكرية».

وقف الخديوي، في علامة لانتهاء المقابلة، وقال بنبرته الوادعة: «كناظر للداخلية، أنتظر منك تفاصيل أكثر لهذه اللقاءات وما تحويه، رياض باشا». نهض رئيس النظار رامقًا الخديوي بنظرة لم أفهمها، ثم استأذن وانصرف.

***

1) رتبة عقيد في الوقت الحالي. [المُترجِم].

في يدي بعض السميط، في وقفتي على الكوبري الجديد، كوبري الخديوي إسماعيل، قضمتُ قضيمات فيما أرنو لنهر النيل، ثمة صورة مهتزة مشوشة لرجل قديم، تراودني من حين لآخر، لوجه يحمل نظرةً جزعةً...

ثمة شيء داخلي يؤكد لي أن هذا وجه أبي... أبي؟! أنا لا أتذكره، ولا يعلقُ بي عهده، منذُ أن وعيتُ أخبروني أنه مات في حادث قطع طريق، قتله بعض الأشقياء.

قيل لي إنه كان معدمًا، لم يترك لي شيئًا. ومن قبل ماتت أمي أثناء ولادتي. منذُ بدأتُ الإدراك ووجدت نفسي في كدٍّ متواصل، لم أجد من الطفولة إلا الشقاء والعمل. تفتَّح وعيي لأجد قريبيَّ الچركسيين أمامي، هما من كبار الضباط بالجيش المصري، قالا لي إنهما دائما التنقل بحكم موقعهما، وليس بوسعهما العناية بي، فأعطياني لأكثر من أسرة، أنام وآكل مقابل عملي لديهم. أناس بسطاء طيبون، لا زلتُ أذكر بكثير من الحنين جلساتنا مع أطفال قرية المنزلة بالمطرية وقت الغروب، نحفظُ ما تيسر من القرآن الكريم. استمر ذلك حتى بلغتُ الثامنة، فإذا بقريبَيَّ يجعلانني أنتقل لأعمل لدى أسرة تركية في ضواحي الجيزة، تعاطفوا معي بشكل ما أمام تفانيَّ واجتهادي في العمل لديهم، فالأمُ عطفت عليَّ وأدخلتني مع أبنائها في جلساتهم التعليمية. ظللتُ أعمل لدى هذه الأسرة حتى أتممتُ إحدى عشرة سنة. حينها بدأ أولاد الأسرة الذين أشاركهم جلساتهم التعليمية يتبرمون مني ويفتعلون معي الشجار، ما زلت أتذكر مربيتهم الشابة وهي تهمسُ في أذني: «لا تبكِ، إنهم فقط متضايقون منك لأنك أصغر منهم، ولكنك أكثرهم تفوقًا في الدروس». لم تَحُل هذه المعلومة دون طردي في النهاية.

عاد قريباي الضابطان الچركسيان للظهور، وألحقاني بتاجر إيطالي للعمل لديه، مقابل النوم في دكانه المحدود. تعلمتُ عنده صناعة المخللات؛ خصوصًا الزيتون بأنواعه. سرعان ما استغنى عن خدماتي كسابقيه، فوظفَّتني أسرة فرنسية، تعلمتُ منها صناعة العجائن الفرنسية. مع بلوغي الثامنة عشرة، ألحقني قريباي بالعمل لدى رجل إنجليزي في مطبعته، ما زلت أتذكر مدى ضخامتها، ولكنه علمني العمل عليها بكل صبر وأناة. كنت أصغر العمال، وأكثرهم نيلًا للثناء. ومع وصولي لعامي الرابع والعشرين، لفت صاحبُ المطبعة انتباهي لإجادتي للغات التركية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، بالإضافة للعربية طبعًا. واقترح عليَّ العمل كمرشد للمغامرين الأجانب في زيارتهم للشرق وزيارتهم لمصر، خاصة المغامرين من إنجلترا وسويسرا. ما زلت أتذكر عبارته: «منذُ الافتتاح الفخيم لقناة السويس، وشهيةُ الأوروبيين انفتحت إلى أقصاها لزيارة هذا البلد الشرقي الجميل. عليك أن تستفيد من ذلك». وأخذتُ بنصيحته، وتعرفتُ على أجانب بالجملة من مختلف الجنسيات، أغلبهم أثرياء مغامرون، وبعضهم بدا لي متحفظًا مرتابًا يحجمُ عن أي حديث طويل. في أوقات الركود عملتُ في أماكن مختلفة، تنقلت بين بورسعيد والدلتا والقاهرة وشمال الصعيد. اشتغلتُ في أعمال كتابية في محال وسط البلد، ودكاكين تتاجر في المواد العشبية، ووكالات زراعية. لطالما تفكرتُ في السبب الغامض الذي يحول بيني وبين الاستقرار في مكان واحد، إلى أن تكرم قريباي الضابطان بتعييني في القصر الخديوي أخيرًا، في وظيفة منتظمة.

انتهى السميط، ومعه انتهت خواطري، آنت لي العودة، قبل أن تختفي الحناطير من الشوارع.

***

لقاءات الخديوي توفيق تزداد كثافةً، لقاءات مع مسؤولين ونُظَّار وقناصل، لا أدري لماذا يساورني شعور أن الخديوي يعمل وكأن وراءه سوط ما يرهبه ويهدد منصبه. الآن، ومع نهاية سبتمبر 1880، أسجل إحدى الجلسات الدورية بين مسؤولين بريطانيين (الرقيب المالي والقنصل) والخديوي. كانا يتْلُوان ملاحظاتهما على نفقات الدولة المصرية، ومخاوف الدائنين الدوليين. «الأسرة الخديوية تحت يدها مئات الآلاف من الأفدنة»، قال الرقيبُ المالي (إيفيلن بارينج) للخديوي بنبرة تقريظ. فاختلج جفناه بحركة عصبية ولم يعقب، وسارع كولڤن بالقول: «هذه الأراضي إن بيعت فستدر أموالًا طائلةً، تنعش خزانة الدولة، وتسعد الدائنين».

بدتْ أمارات الرفض على وجه الخديوي العبوس، وظل على صمته، وهمَّ إيفيلن أن يقول شيئًا، ولكن كولڤن أشار له خفيةً بيده، وقال هو، كما لو يغيِّر دفة الحوار: «هناك أمر هام، ثمة جنرال سابق لديكم، الآن رئيس محكمة، يتحرك تحركات أثارت اهتمامنا». انتبهت عينا الخديوي، فيما قال إيفيلن: «نقصد علي الروبي».

قال الخديوي توفيق باهتمام: «أليس هو رئيس فرع المهمات بالجيش، إبان حرب الحبشة قبل خمس سنوات؟». علَّق إيفيلن بارينج بنبرة ذات مغزى: «بالضبط، الحرب التي انهزم فيها جيش سُموِّكم»، وطوى أصابع يمناه إلا من السبابة والوسطى، ليتخذا هيئة حرف V، مُردفًا: «مرتين».

اضطرب القلمُ في يدي، لماذا يصر هذا الرجل أن يتكلم بوقاحة؟ أعلم هذه الألاعيب، لعله يقصد الضغط نفسيًّا على الخديوي الشاب. وسارع كولڤن بالحديث: «أقول إننا لاحظنا كثرةَ زياراته على غير العادة لاثنين من وزراء حكومة رياض باشا، وهما علي باشا مبارك ناظر الأشغال العمومية، ومحمود سامي البارودي ناظر الأوقاف». وقال الرقيب المالي بهدوء: «هذه

التحركات لم تبدأ إلا بعد أن زاره صديقه القديم، زميل حرب الحبشة». طفر التساؤل في عينَي توفيق، فأردف: «أقصد أحمد عرابي».

ارتسمتْ ابتسامة صغيرة على جانب فم الخديوي، ثم توارت وهو يقول بوقار ملكي: «أعلم هذه التحركات. الأمر تحت السيطرة».

تبادل البريطانيان النظر، ثم نهضا، وتهيآ للمغادرة فيما يقول كولڤن: «حسنًا إذن. قد أردنا لفت انتباهك لا أكثر». وغادرا، والخديوي يُشيِّعهما بنظراته.

أغلقتُ دفتري، وتهيأتُ للمغادرة، وإذا بالخديوي يغمغم: «هما لا يفهمان». نظرتُ للخديوي بتساؤل. هل يفكر بصوت عالٍ، أم قصد مخاطبتي؟ واستطرد: «عرابي ورفاقه يخططون جديًّا لإزاحة رفقي ورياض من النظارة»، ولمعت عيناه بنظرة عابثة: «وأنا معهما في ذات الهدف». قلتُ في حذر: «حضرتكم، يكفي أن تأمر بـ...». لوَّح بيده مقاطعًا: «لا لا، ليس هكذا تورد الإبل»، ونهض من خلف مكتبه: «يجبُ إلا يقال إن الحاكم الجديد يدسُّ أنفه في شؤون الحكومة، هذا لن يعجب القناصل الأوروبيين، ولا الدائنين الدوليين»، ولمعت عيناه: «ولكن بوسعنا أن نحرك قطعًا أخرى، لتنفِّذ لنا رغباتنا، فيما يظنون أنها رغباتهم هم».

استشكل عليَّ الأمر، لم أفهم، ولكني لم أكن طبعًا لأعلن ذلك. وتابع الخديوي: «يجب فتحُ قناة اتصال مباشرة مع هؤلاء الضباط الفلاحين»، وشبك يديه خلف ظهره: «ولكن من يقومُ بهذه المهمة؟». وصمتَ لحظات، ثم انبعث صوته قائلًا في جذل: «أظنني وجدت الشخص المناسب».

وازدادت ابتسامته غموضًا.

* * *

كنت مارًّا في رواق قلم النسخ، عندما لمحت المُهردار خاير باشا يُصافحُ ضابطًا شابًّا، ثم غادره متجهًا ناحيتي، وقال بنبرة رضا: «لا أراك في هذا القصر إلا مشغولًا بشيء ما. غيرك يتهربُ من الأعمال، وأنت تبحثُ عنها». ربتُّ بيمناي على صدري مُمتنًّا، ثم قلت وأنا أتابع بنظراتي الضابط الشاب في ابتعاده: «هذا الرجل يبدو لي مألوفًا». قال المُهردار: «طبعًا، علي فهمي الديب، هو قائد كتيبة هنا ضمن قوة حماية القصر». ومال ناحيتي وهمس باسمًا: «لقد تسلَّم عمله هنا بتوصية چركسية، مثلك تمامًا». قلتُ بشيء من الفتور: «هو أيضًا له أقاربُ ضباط؟». هز رأسه نفيًا: «بل زوجته چركسية، موظفة هنا في القصر». ثم سار بي خارجًا إلى بقعة خالية بالحديقة، استطرد: «الخديوي الشاب بدأ اللعب على كبير، يبدو أن المكر عُرف أصيل في هذه الأسرة».

نظرتُ له متسائلًا، فأطلق ضحكةً مبتورةً: «لقد كلَّفني الخديوي بمهمة، أنهيتها توًّا، أنتظر عودته لأبلغه بنتيجتها».

قلتُ: «في الواقع أشفق على أفندينا، يبدو شابًّا على كل هذه الضغوط المتكالبة عليه من كل ناحية. وجودي معه في الاجتماعات يشعرني أن الكل -لا تؤاخذني- يستصغره ويحاول تطويعه لهواه». تحولتْ ملامح خاير باشا للجدية، شعرتُ آنيًّا بحماقة ما تفوهتُ به، رمقني المُهردار بنظرة طويلة: «حذارِ! أنت آلة كتابة لا أكثر، إن عُرف عنك غير ذلك كانت عليك العواقبُ وخيمةً». استغربتُ ثباتي وأنا أقولُ: «إني أفكر فقط». نظر لي نظرة أبوية، وقال مُحذرًا: «لا يحق لك». قلتُ في فورة شجاعة لا أعلمُ سببها: «لكنك تفعلُ».

قال مندهشًا: «هذه طبيعةُ عملي»، ثم رفع كتفيه كمن يئس من

إفهامي، أو من سذاجتي، وقال: «الكل هنا يحاول أن يبدو ذكيًّا؛ لكنه يبغضُ أن يرى غيره كذلك». وأشار بسبابته لي: «لذا فاحذر».

لزمت الصمت عابسا، فقال بعد هنيهة: «على أية حال، الخديوي لا يُخشَى عليه». ثم خفتَ صوته: «الرجل ينفذُ أهدافه بكفاءة». قلتُ باندفاعي المحبب: «تقصد بخصوص التخلص من رياض باشا وعثمان رفقي؟».

اتسعت عينا المُهردار العجوز، حدق إليَّ، ثم لانت ملامحه: «كان يجبُ أن أتوقع ذلك، أنت تبني بناء على كثرة ملازمتك للخديوي»، وخفتَ صوته محذرًا: «هذه أسرار يا فتى، لا يجدر بك قولها لأي أحد». قلتُ بنبرة متخاذلة: «قلتها للمهردار، وليس لأي أحد»! زفر خاير باشا: «الخديوي اختار علي فهمي الديب ليفتح قناة اتصال سرية مع عرابي ورفاقه». قلت: «بي فضول لمعرفة لماذا هو بالذات؟». ضاقت عينا المهردار: «الخديوي ذو اختيار ثاقب، فعلي قائد كتيبة حراسة، يعمل هنا بقصر عابدين، وهو غير مُلوَّن سياسيًّا، وذو علاقة جيدة بعرابي ورفاقه». وغمز بإحدى عينيه: «والأهم، أنه كذلك لم يكن من الضباط الذين قدموا التماس 20 مايو 1880». قلت وقد بدأت أستحي من تمييز المهردار لي: «وهل قبِلَ المهمة؟». رفع حاجبيه: «قبل؟ طبعًا! بل تفهَّم وفرح وتحمس. هل يطول أحد أن يكلفه الخديوي بأمر؟!».

ولُذتُ بالصمت، بعدما رأيتُ في ملامح المُهردار اكتفاءه بالخوض في هذا الحديث.

***

أحببتُ الاستفادةُ من الإجازة الأسبوعية في ارتياد ما بات يتحدثُ عنه الناسُ كثيرًا، يتحدثون عن روايات يتمُّ تمثيلها فوق منصة خشبية، تكون غنائيةً غالبًا. ذهبت إلى حديقة الأزبكية، ثمة جوقة هناك تقوم بالتمثيل. دفعت تذكرتي وجلستُ أنتظر بداية العرض، في مكان مفتوح بلا سقف. وحينما بدأ تمثيل الرواية كنتُ محتارًا ما بين متابعة المشخصاتية، وردود أفعال الجماهير الجالسين بجواري. جربتُ سابقًا ارتياد الأوبرا الخديوية. كانت على النقيض تمامًا من هذا المكان. هناك الفخامة والبذخ في كل شبر؛ لكن هناك كذلك مللًا قاتلًا؛ لكن هنا كأنك في مقهى شعبي، ولكن على نطاق أوسع، بلا جدران ولا أسقف. بيد أن تعبيرات المتفرجين وطرافتها أفضل كثيرًا، راق لي ذلك أكثر من الراوية نفسها التي يجري تشخيصها. وحينما خرجتُ في نهاية العرض، لم أكن متحمسًا لتكرار التجربة؛ لكن ربما مع رؤيتي انبساط الناس في خروجهم، ما يجعلني أعيد النظر... ربما.

الصباحُ التالي، ومع بدء يوم عمل جديد، وصلتني الأنباءُ في مكتبي بأن الخديوي اليوم شديد العصبية. بحكم موقعي الوظيفي أرجعتُ السبب إلى الخطابات الواردة من مختلف الأقطار، والتي سجلتُها في قلم الرسائل الخديوية، كان مفادها تقارير عن تحركات للأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي، عم الخديوي السابق إسماعيل. لعل عصبية الخديوي توفيق نابعة من قلقه من مغزى تنقلاته الخارجية. سبق وأخبرني المهردار أن الأمير محمد عبد الحليم كان ليكون الجالس على عرش مصر، بعد خلع الخديوي إسماعيل، لولا حصافة الخديوي السابق الذي بادر قبل أربعة وعشرين عامًا، عام 1866 تحديدًا، وبعد ثلاثة أعوام فقط من توليه الحكم، إلى تغيير الفرمان العثماني الذي رتب عرش مصر لأسرة محمد علي، فبدلًا من أن ينتقل اللقبُ إلى أكبر سليل حي لمحمد علي،

أصبح ينتقل الآن من الأب إلى الابن. لم تكن هذه هي المحاولةُ الأولى، كان السعيُ الأول من عباس حلمي الأول -ابنُ عم الخديوي إسماعيل- بن طوسون بن محمد علي. سبق عباس حلمي الأول مُحاولًا جعل العرش لأكبر أنجاله من ذريته هو، ولكنه أخفق، فيما نجح الخديوي إسماعيل، بعد أن دفع قناطير مقنطرةً من الذهب إلى السلطان العثماني عبد العزيز الأول وحاشيته، لأجل تمرير الاتفاق وإصدار الفرمان. أخبرني خاير باشا مرة في إحدى حالات صفائه، أن شفق نور هانم -والدة الخديوي توفيق- لم تكن من ضمن زوجات أبيه الخديوي السابق إسماعيل، وإنما إحدى جواريه، ولكن لأن توفيقًا كان أكبر أولاده الذكور، لم يكن أمامه سوى الزواج بها رسميًّا، كي يسمح البابُ العالي بانتقال عرش مصر إليه، وإلا لآل حكم مصر إلى الأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي. محمد عبد الحليم بالمناسبة هو اسم مركب، شأنه شأن اسم جناب الخديوي محمد توفيق، يبدو أن أسرة محمد علي مولعة بالأسماء المركبة، هي عادة عثمانية على الأغلب.

نائبُ الخليفة -الخديوي توفيق- رغم مُضيِّ ما يزيد عن عام على تسلمه العرش، إلا أن قلقه على ضياعه لا يزال يشغل باله. هذا الربط ما كان ليخطر ببالي قط، إنما هو اجتهاد المهردار خاير. وأخرجني من خواطري مجيء أحد المستخدمين يُعلمني بوجوب تسليم رسالة آتية من الباب العالي إلى جناب الخديوي. تسلمتُ الرسالة مهرولًا بها إلى سيد القصر. لم تكن هذه من مهامي، فهل أسند لي المهردار مهام جديدةً؟ ودلفت إلى الخديوي، تناولَ الرسالة وفضَّها. سرعان ما تجعد جبينه. لم يمنعه ذلك من أمري بترجمة رسائل أخرى على مكتبه بالإيطالية. وقبل أن أتحرك دلف الحاجبُ يُعلمُ الخديوي باستئذان الضابط علي فهمي في الدخول. بعد لحظات دخل الرجل في خطوات منضبطة، أدى التحية العسكرية للخديوي، ثم اختلس

مني نظرات متوترةً. قبع الخديوي منتظرًا، كان الضابطُ يرمقني بنظرات متحفظة، فالتفت الخديوي ناحيتي، مخاطبًا الضابط: «لا تتحرج في الحديث، لقد أتاني إلهامُ تكليفك بالمهمة في وجوده».

شدَّ الضابط علي فهمي قامته في وقفته، وقال: «أحببتُ أعلمُ جنابكم بنتيجة مسعاي».

ضاقت عينا الخديوي منتظرًا الرد، فأردف الضابطُ: «أحمد عرابي، وإخوانه الضباط، يرسلون إليكم أسمى مشاعر الامتنان، لتأييدكم مسعاهم الوطني». انفرجت ملامح الخديوي للمرة الأولى هذا الصباح، فيما يستطرد الضابطُ: «جميعهم يبلغون حضرتكم مدى استبشارهم أن جنابك معهم في أهدافهم، لأجل رفعة أحوال مواطني هذا البلد، ووضع حد للعنصرية والفئوية».

قام الخديوي من وراء مكتبه، عاقدًا كفيه وراء ظهره، قال في طرب: «حسنًا، يمكنك الانصرافُ ضابط علي. الأسرةُ السنية تقدر لك كثيرًا تفانيك في خدمتها». ازدادت وقفة علي فهمي اعتدادًا وهو يقول: «كلنا في خدمة مصر جناب الخديوي». وأدى التحية العسكرية في قوة، وغادر بذات الخطوات المنتظمة. استغربتُ وميضًا غريبًا طافيًا بملامح الخديوي، للحظة تمعَّر وجهه، ثم خاطبني: «أرجو أن ترسل المهردار خاير، وأنت في طريق عودتك لمكتبك».

هببتُ من مكاني، لململتُ الرسائل الإيطالية المطلوبة ترجمتها مُسرعًا، وغادرت لأنفذ أمر جناب الخديوي.

❋❋❋

«أنت يا أخ!»، التفتُّ إلى قائل العبارة ذي الصوت الخشن، أنه المعلِّم جبروني، فُتوّة[2] العطفة. اقتربتُ منه مُستطلعًا. رفع الرجل نظراته، ويداه فوق رأس نَبُّوته[3]. لم أكُن طويلا لهذه الدَّرجة، فقامتي تُناهز مترين إلا ربعًا. المعلم هو القصير نسبيًّا؛ لكن عضلاته المكتنزة الظَّاهرة من تحت جلبابه ذي الطراز الصعيدي، وعدوانيته المفرطة، عوَّضتا ذلك كثيرًا. قُلت له: «خيرًا يا معلم؟».

قال رافعًا أحد حاجبيه: «سُلوكك الرقيع لا يُلائم هذه العطفة». أثارت عبارته توتري. كان يُشير حتمًا للمرأة الحبشيَّة التي صعدت معي شقتي بالأمس. اللئيم لا يعلم أنني لم أفعل بها شيئًا، المرأة فعلت كل شيء؛ لكن نفسي عافت مُجرَّد الاقتراب منها، وصرفتُها بعد أقل من ساعة. مع ذلك قُلت كاذبًا: «المرأة كانت تُنظِّف الشقة. ولكن بعدما لم تُعجبني طريقتها صرفتها سريعًا، كما وحتمًا ولا بُد لاحظتَ». قال الرجل بصوته الأجش: «مظهر أفندي. مثلك لا ينبغي له سوى الزواج. أو ارحل عن عطفتنا! الأهالي هنا يضيقون بالعُزَّاب».

ازدردت ريقي وأنا أستمع له، الجميع يعلم أنه زير نساء وماجن مُجُون القردة الحبيسة؛ لكنه يُؤدِّي الدَّور الذي يُفترض به القيام به على كل حال.

---

2) الفُتُوَّة في المعاجم العربية هي الشباب بين طورَي المراهقة والرجولة، وتُعرِّفه أيضا على أنه النجدة أو نظام خلق الشجاعة في الفتى، كما جاء في المعجم الوسيط. ارتبطت تاريخيًّا بسمات كالقوة والشهامة والشجاعة التي يهرع أصحابها إلى نجدة الغير، والنبل والسعي إلى العدل والحق، مما يؤسس لنظام يدعم هذه السمات. [المُترجِم].

3) النَّبُّوت: عصا خشبية سميكة مستقيمة تنتهي في الطرف بكتلة مستديرة. ويرجع أصل التسمية إلى كلمة (نبا) في اللغة الهيروغليفية التي تعني عمودًا أو سارية من الخشب، وكانت وحدة لقياس الأطوال عند المصريين القدماء. وتستخدم كذلك في الدفاع عن النفس، وفي بعض الممارسات الاستعراضية التقليدية. [المُترجِم].

انتظرتُ مرور السقَّا بحمله الثقيل من بيننا، ثم قلت بتؤدة: «أحترم حقًّا حرصك على شرف العطفة، وكلامك في موضعه. سأبحث جدِّيا في أمر الزواج».

قال على الفور بصرامة: «سِت جليلة الخاطبة ستسُرها المساعدة». أومأت برأسي بابتسامة مُضطربة، وأنا أسمع أذان العشاء من المسجد القريب. كُنت من الإرهاق في غاية، وأتُوق لألقي نفسي فوق الفراش بعد يوم عمل ثقيل الوطأة. حدجني المعلم بنظرة ثقيلة أخرى ثم مضى وفي أثره صبيَّان من صبيانه. وحين أقول صبيَّيْن أعني رجلين بقدر طُول الباب؛ لكنهما يتوقان لنيل رضاه.

صعدتُ إلى شقتي، ورغم جُوعي الشديد، ألقيت نفسي فوق السرير، لأسقط في النَّوم فورًا، قبل حتى خلع –أعزَّكم الله– حذائي.

الصباح التالي، حرصت كعادتي على تدوين كل ما يجري، أعتصر ذهني لتذكُّر كل عبارة، كل شاردة وواردة، لماذا أفعل ذلك؟ لطالما راودني هذا السُّؤال، ليست لديَّ إجابة وافية، كل ما أعلمه أنِّي مُنذ يوم عملي الأول في السراي، وشعُوري بجسامة الأخبار والأحداث الجارية أمامي، أتساءل: لماذا لا أُسجِّل كل ذلك؟ ولأن الفكرة راقت لي على الفور، سطع داخلي إنذار آنيٌّ، ماذا إن وقعت هذه الأوراق في يد أحدهم؟ هل يظنُّونني أفشيت أسرارًا وقتها؟ ولأن لا وقت لديَّ لإجابة هذه الأسئلة، قررت كتابتها بالتُّركيَّة. لماذا هي بالذَّات؟ أولًا لأن أغلب من عرفتُهم ممن يتحدثون هذه اللغة، وجدتهم لا يستطيعون الكتابة بها ولا القراءة. ثانيًا لأن التركية هي أكثر اللُّغات التي أكتُب بها في قلم المعية، وهي لُغة قائمة على كثرة اللواحق لدرجة مُربكة إن لم تتم مُمارستها بشكل دائم، لذا كان قرار كتابتي يومياتي بهذه اللغة بالذات نوعًا من التثبيت والتجويد.

أتوقف عن الاستطراد وأعُود إلى قصر عابدين، هذا الصباح وفور مجيئي للسراي استغرقني العمل على الفور، حدَّ عدم شُعوري بالوقت إلا مع تجاوُز الساعة التاسعة مساء. بعدما استبقاني المُهردار لبعض الأعمال داخل مكتبه الخاص. وحينما أوشكت على الانتهاء، صكَّت عبارته أذني: «التَّأني ثم التَّأني يا مظهر أفندي. لا داعي للاستعجال. سأرسل معك عربة خاصة توصلُك لمسكنك»، قال خاير باشا بصوته الرخيم، دون أن يرفع عينيه عن الأوراق التي يُراجعها. وانبعث دقٌّ رتيب على الباب، ثم دخل السكرتير: «ثمة من يطلُب مُقابلتك بشكل عاجل جناب المهردار». عبس خاير: «من؟». أجاب السكرتير مُترددًا: «رفض الإفصاح؛ لكنه يرتدي ملابس عسكرية». شبَّك خاير أصابعه تحت ذقنه للحظات، ثم قال برزانة: «أدخله».

ودلف رجُل في العقد الثالث، بدا كسيف البال، شارته فوق كتفه هلال ونجمة ذهبية، هذا يعني أنه بكباشي[4]، ووقف وقفة رسمية وقال: «ثمَّة أنباء مُهمة لا تحتمل التأجيل جناب المهردار».

ضاقت عينا خاير باشا، استنتجتُ من لين ملامحه أنه يعرفه جيِّدًا، وبالفعل أشار للمقعد أمامه يدعُوه للجلوس، وقال: «تكلَّمْ». نظر إليَّ في تردد، فقال خاير: «لا حرج من وُجوده. فقط تكلَّم وأوجز فوقتنا ضيِّق».

مال البكباشي بجذعه ناحية المهردار، وقال بنبرة تشي بالخطورة: «لقد أتيتُ حالًا من اجتماع ببيت الأميرالاي[5] أحمد عُرابي». وبدا كما لو يزدرد ريقه، ثم أردف: «بيتُه كان يغصُّ بالضُّباط، كأنه مولد مُصغَّر».

4) رتبة عسكرية توازي رتبة مُقدِّم في الوقت الحاضر. وفي التركية «بيڭباشي» (binbaşi)، ويُنطَق بهذه الكاف المثلَّثة النقط كالنون المخفاة قبل الكاف، وأصل معناها «رئيس الألف»، وهو مركب من «بيڭ» بمعنى الألف، و«باش» بمعنى الرأس، والرئيس. [المُترجِم].

5) رتبة عميد في الوقت الحالي. [المُترجِم].

اكتست ملامح خاير باشا بالاهتمام، فيما يستطرد البكباشيُّ: «كان الجميع ثائرًا بسبب قرار ناظر الجهادية بنقل القائدين المصريين؛ القائمقام أحمد عبد الغفار بسلاح السواري وتعيين چركسي مكانه. والأميرالاي عبد العال حلمي حكمدار الآلاي[6] السُّوداني -الكائن مركزه في طُرة- إلى عمل بديوان الوزارة، ووضع چركسي كذلك مكانه».

فرك خاير باشا ذقنه: «كل هؤلاء مُجتمعين لمعارضة مُجرَّد نقل؟».

قال البكباشيُّ: «ليس ذلك هيِّنًا، فالأول قائد آلاي السواري، والثاني حكمدار الآلاي السُّوداني بطرة. غير إن عبد العال حلمي الصديق الصدوق لأحمد عرابي، وهو مع أحمد عرابي وعلي فهمي، مُثلَّث القيادة رقم واحد في الحركة».

قبع خاير باشا يُصغي، فيما يقُول البكباشيُّ: «لقد أخبرنا عرابي أنه علم بالقرار قبل نشره رسميًّا في بيت نجم الدِّين باشا. وقال حينما سمع بالخبر بأن ذلك توطئة لحرمانه من القيادة وطرده مع رفيقيه من الخدمة، وحينها صاح أمام الجميع غير مُبالٍ بأحد: «هذه لقمة كبيرة، لا يقوى عثمان رفقي على هضمها».

وعاد البكباشيُّ يميل تجاه المهردار، وهمس: «ثم إن هذا ليس كل شيء، ثمَّة أخبار واردة من نظارة الجهادية أن عثمان رفقي انتهى من مشروع قرار يقضي بعدم ترقية الجُنود والضُّباط المصريين تحت السلاح، وتوزيعهم على المواقع المكتبية غير المهمة، وجعل الأفضلية في كل شيء للضُّباط الچراكسة، لتكون لهم السيادة». واعتدل في جلسته: «كل ذلك

---

6) آلاي: تقسيم عسكري تركي يعد مقابلًا في وقته للواء المشاة، ويقابل اليوم بالفوج. يتكون الآلاي من أربع أورطات، في كل منها 816 رجلًا مع ضباطهم، ليكون حجم الآلاي بجنوده وضباطه 3264 رجلًا. [المُترجِم].

تراكم فوق الاستياء العام داخل الجيش، من استخدام الجُنود بالسُّخرة، وفي أعمال لا تمتُّ لشرف الجندية بِصِلَة؛ مثل الزراعة، والتجارة، وحفر التُّرع، وهو ما يُثير مُعارضة كبار الضُّباط، خاصة عرابي». وضبطتُ نفسي أُحملق فيهما أكثر من اللازم، فتظاهرتُ بالانشغال في مُتابعة أعمالي، فيما أُصغي للبكباشي: «استقبل الضُّباط عرابي وهم في حالة هياج عظيم، ولم يهدؤوا حتى أقنعوه بصعوبة». ردَّد خاير: «بصعوبة؟!».

استطرد البكباشيُّ: «لم يُوافق عرابي في البداية؛ حيث شرح لنا بأن من سيتصدَّى لهذا الأمر فسيكون مصيره القتل. فردَّد الجميع: (نفديك ونفدي الوطن العزيز بأرواحنا). فقال عرابي حازمًا: (اقسموا على ذلك)، فأقسمنا».

اختلستُ نظرة إلى وجه هذا الذي أقسم، فضبطتُ نظرة زائغة، سُرعان ما توارت وراء ملامحه المتوتِّرة وهو يُردف: «ثم فوضُوه في عرض طلباتهم».

جمجم خاير: «طلباتهم؟!».

قال البكباشيُّ: «صاغ الأميرالاي عرابي شكاوى الضباط ومطالبهم بأسلوبه المُحكَم في عريضة، ثم قرأها عليهم، فوافقوا من فورهم». تساءل خاير باهتمام: «وماذا حَوَت العريضة؟». البكباشيُّ: «عزل عثمان رفقي ناظر الجهادية، لإجحافه بحقوق الضباط المصريين، وتعصُّبه لجنسه الچركسي. وتشكيل مجلس نُوَّاب من نُبهاء الأُمة تنفيذًا للأمر الخديوي الصادر قبل عامين، عقب ارتقائه مسند الخديوية. ورفع عدد أفراد الجيش المصري إلى ثمانية عشر ألف جُندي». أطلق خاير باشا صفيرًا طويلًا. وتابع البكباشيُّ: «استبدَّت الحماسة بالجميع، ولكنَّهم حينما تهيَّؤوا للتوقيع نهاهم».

سأله خاير: «لماذا؟».

أجاب البكباشيُّ: «عُرابي قال إن ليس من الحكمة إعلان أسماء الجميع للحكومة بهذا الشكل، والأحوط أن يُوقِّع هو -بصفته مُفوَّضهم- فيما يبقى الباقون في الخفاء، ليستكملوا النضال بأمان من بعده، حال ناله الأذى». وصمتَ لحظات، ثم أردف: «ولكن ثمَّة ضابطين أبيا إلا أن يُوقِّعا معه؛ أميرالاي عبد العال حلمي، وأميرالاي علي بك[7] فهمي».

وران صمت طويل بعد عبارته الأخيرة، المهردار أغلق عينيه مقطبًا حاجبيه، والبكباشي غارق في توتره. ثم بدا كما لو أنهى خاير تفكيره العميق، وقال: «حسنًا فعلتَ بإبلاغنا، الأُسرة الخديوية السنية ستنظر بعين التَّقدير لتعاونك».

ندت عن البكباشي نظرة جشعة، بدا كما لو سيقُول شيئًا ما، ولكن النظرة الصارمة من المهردار لعلَّها كبحته، فقام وغادر مُحييًا المهردار بحركات مُتزلفة.

كُنت قد انتهيتُ من أوراقي مُنذ زمن، فرتَّبتُ الملف ووضعتُه فوق مكتب خاير باشا: «أي أعمال أُخرى تأمُر بها؟». كانت عيناه غارقتين في التفكير، فأشار إليَّ بطرف أُصبُعه أن غادر أو امض، فتحركتُ خُطوة، ثم عُدت بوجهي إليه: «خاير باشا، هذا الضابط أراه هنا للمرة الأُولى، ما اسمه؟». كانت إجابة المهردار نظرة زاجرة صارمة أربكتني، فعلمت أنني ولجتُ محظُورًا، فغادرت مُسرعًا أتعثَّر في اضطرابي.

***

7) البِك، أو الباي، أو البيك، أو البيه: كلمة ولقب تركي، كان يُستخدم في الدولة العثمانية، بمعنى السيد أو صاحب الشأن العظيم. [المُترجِم].

(1881)

(3)

خاير باشا طفق يشركني معه في مختلف الأعمال، صرتُ ألازمه لدرجة أن زياراتي له في قصره الخاص أمست أمرًا اعتياديًّا، أعلمُ أن زملائي في القلم التركي وجدوا عليَّ بسبب صحبة المهردار. ماذا يفعلان إذن إن علموا أنه أسرَّ لي بقرار إعداده لي لأكون حامل الختم مستقبلًا، لما يتوسمه بي من نجابة. قال لي ذلك حينما وجدني يومًا أضيق برتابة عملي وأستهجنه، فقال لي: «لا تستصغر هذا العمل، وظيفتك هذه أخرجت كبار رجال الدولة، منهم رؤساء للمجلس الخصوصي العالي».

اعتَرَتْني الدهشة، الرجل لا يبدو من طراز المُبالغين، وقلتُ له متسائلًا: «حقًّا! مثل من؟». ارتخى جبين الرجل وابتسم بكياسة: «مثل رئيس النُّظَّار الحالي». شعرتُ بالذهول الذي تضاعف حينما استطرد: «بالمناسبة، مصطفى رياض بدأ حياته المهنية بالعمل ناسخًا في مجلس العموم». وحاولتُ التعقيب، ولكن لساني انعقد وتلعثم، ولاحظ ذلك، فقال: «ما حالك إذن حينما تعلم أنه كان يمتهن العزف لفترة طويلة -بجانب عمله في التبييض- بفرقة الموسيقى العسكرية؟». وصمتَ قليلًا ثم قال: «لقد بلغ صاحبنا من المهارة ما جعله يتقلَّد وظيفتي شخصيًّا كمهردار عام 1852، في عهد عباس الأول». بقيتُ صامتًا أحاول الاستيعاب،

فأردف محدِّثي بنبرة ذات مغزى: «في هذا البلد متاح للجميع الوصول لأعلى المناصب، ما داموا مستعدين لتنفيذ ما يُطلبُ منهم». وصمتَ للحظات، ثم أردف ببطء: «أيًّا كان».

كانت هذه العبارة ترنُّ في خاطري، صباح اليوم، الثامن عشر من يناير لعام ألف وثمانمائة وواحد وثمانين، والمهردار يصطحبني معه في لقائه مع الخديوي. بخصوص التطورات السياسية الأخيرة، كان التركيز على عريضة عرابي. كنت أواصل نظم جدول أعمال الخديوي كما كلَّفني المهردار بينما أصغي. وعجبت أن أرجع الخديوي حانقًا سبب جرأتهم إلى الشيخ جمال الأفغاني، وعبَّر عن ذلك بقوله: «قد تأخر كثيرًا قرار ترحيله عن مصر».

وقال خاير باشا: «على الأقل علمنا من علي فهمي أنهم بتواصلهم مع قنصل دولة فرنسا، تم التأكيد لهم أنهم لا يسبغون أي نوع من الحماية على رياض باشا، أو حكومته. وأن فرنسا وسائر الدول الأوروبية لا همَّ لهم إلا مواصلة مصر دفع ما عليها من ديون». وقال الخديوي: «جلُّ ما أريده ألَّا أرى رياض هذا ثانيةً، إنه بالغ التعجرف، ويظنني غرًّا صغيرًا على المنصب!»، ثم تبرَّمَ: «وفي النهاية، لم يطلب الضباطُ سوى تغيير رفقي، لا رياض!». قال خاير: «بوسع جنابك الإيحاء لرياض باشا برفض العريضة، حينها سيتوجه سخطُ الضباط إليه هو، وبالتالي يطالبون بعزله». بَرَمَ الخديوي طرف شاربه: «أتعلم؟ رغم أنني لا أطيقُ رياضًا، إلا أنني مستفَز جدًّا كذلك من جرأة هؤلاء الضباط! طلباتهم أشبه بإدارة للدولة بطريقة غير مباشرة!». وهنا طرق الحاجب الباب، ودلف ليستأذن لدخول رياض باشا. عجبًا، قد أتى على السيرة! ودخل الرجل بهيئته

الجادة وهيبته الواضحة. حيَّا الخديوي، وأومأ برأسه للمهردار. كان التوتر باديًا على محياه، وبادر الخديوي قائلًا: «لقد تسلمتُ بالأمس عريضةً بالغةَ الخطورة». اندهشتُ للحظة؛ لأنه توقع أنهما لا يعلمان، ثم سرعان ما تذكرت أنه طبعًا لا علم له بذلك البكباشي عميل القصر بين رفاق عرابي، وكتمتُ ابتسامة عابثة أمام جمود ملامح الخديوي والمهردار كأنهما بالفعل لا يعلمان. وأشار الخديوي لرياض باشا بالجلوس، وقال بوقار: «اجلس أولًا، وهاتِ ما عندك». جلس رئيسُ النظار منتصب الظهر، وقال فيما ملامحه تنطقُ بالانزعاج: «توجه عرابي ورفيقاه: عبد العال حلمي، وعلي فهمي، صباح أمس، إلى مقر نظارة الداخلية، لتقديم عريضة موسومة بتوقيعهم، حاول وكيل الوزارة تسلُّمها منهم؛ لكنهم طلبوا تقديمها إلى رئيس النُّظَّار بأنفسهم. فلما قابلتهم وعدتهم بالنظر في الأمر. ثم فكرتُ في دعوتهم إلى منزلي مساءً، فلما أتوا في الميعاد، وكنتُ مغيظًا محنقًا، قلتُ لهم صراحة: «تعلمون أنني أكره تقديم العرائض، مهما كانت عدالةُ المطالب التي تحويها. وألقي بلا اكتراث في السجن أو أحكم بالنفي على من يخطون مثل هذه الخطوة». خاطبتهم في كبرياء وغلظة كما يليقُ برئيس للنظار. فردَّ عرابي غير هياب قائلًا: «إننا لم نطلب إلا حقًّا وعدلًا، وليس في طلب الحق من خطر؛ وإنَّا لنعتبرك أبًا للمصريين، فما هذا التلويح والتخويف؟!». تأففتُ وتركتهم ودلفتُ لغرفة داخلية، لأعيد قراءة العريضة عن كثب، فما إن رأيتُ جرأة مطالبهم حتى خرجتُ عليهم زاعقًا: «التماسكم هذا مُهلِك! كيف تجرؤون؟! هل تريدون حقًّا تغيير النظارة؟ ومن الذي ستضعونه مكانها؟ من هو الذي تريدونه أن يواصل الحكم؟!».

فقال عرابي: «يا سعادة الباشا، هل مصر امرأة لم تلد سوى ثمانية أولاد ثم عقمت بعد ذلك؟!». شعرت بالغيظ، كان يُعرِّضُ بي ونظَّاري السبعة، فالتقطت نقطة أخرى: «تطلبون إنشاء مجلس للنواب؟! ليس في البلاد من هو أهل لأن يكون عضوًا في مجلس النواب». فقال عرابي: «مصر فيها العلماءُ والحكماءُ والنبهاء. وعلى فرض أن ليس بها من يليقُ لأن يكون عضوًا في المجلس النيابي، فماذا يمنعُ إنشاء مجلس يستمد من معارفكم، ويكون كمدرسة ابتدائية تخرجُ لنا بعد خمسة أعوام رجالًا يخدمون الوطن بصائب فكرهم، ويعضدون الحكومة في مشروعاتها الوطنية؟». فكبُر عليَّ ما قال، لم أعتد أن يساجلني أحد بهذا الشكل، خاصةً وأنه أحد مرؤوسي. فكبحتُ ما بداخلي، وآثرت التريُّث، فأنهيتُ المقابلة مكتفيًا بالقول: «سننظر بدقة في طلباتكم هذه».

وأنهى رياض باشا مقالته والانفعال بادٍ على قسماته. فساد الصمت حينًا، ثم قال الخديوي: «إذَن رئيس النظار أتى إلى هنا يتطلَّع لمشورتنا». حدج رياض باشا الخديوي بنظرة طويلة كأنما يسبر أغواره.

هذا الرجل يملكُ قدرةً عاتيةً على ضبط النفس. ولما طال الصمتُ نهض الخديوي، وقال بلهجة من يُنهي المقابلة: «الأمر خطير لا شك. قم بالترتيب لاجتماع للنظار بالمجلس الخصوصي تحت رئاستي، لننظر في أحكم قرار».

نهض رياض باشا، حيًّا جناب الخديوي، ثم مضى مغادرًا بخطواته الرصينة. أغلق المهردار الباب وراءه برفق، ثم عاد للخديوي الذي كان شابكًا أصابع كفيه، يقول كأنما يحدِّث نفسه: «لا أكترثُ لعثمان رفقي. أما رياض فللأسف لم يقترب من الحافة بعد». وصمتَ برهةً ثم أردف:

«جبل الثلج قمته تبجح هؤلاء الضباط، إن لم تتم السيطرةُ على جرأتهم، فسيكونُ لها ما بعدها». وأفلتت منِّي نظرة متبادلة مع جناب المهردار، ولم ينبس أحدنا ببنت شفة.

***

أُحب في إجازاتي الأسبوعية تخصيص ساعة أو ساعتين في التنزُّه بالحدائق المكتظة بالورود والأشجار، لا سيما الكبيرة الشاسعة منها. بذلك تبقى في نظري خالية مهما زاد الزائرون، وأنا لا أرتاح للزحام. أُفضِّل الخلوة وراحة البال. أنتقي الساعة التي تسبق أذان العصر. أتنسم النسيم المُعبَّق برائحة الزُّهور، حتى إذا ذهبتُ للغداء كانت شهيتي طلقة مفتوحة. بيد أن ذلك اليوم، وتلك الساعة، لم تكُن كأيِّ ساعة! كنت جالسًا إلى مقعد خشبي عريض، تعلُوه مظلة نُحاسيَّة، عندما ارتطم بعنقي شيء ما، التفتُّ أنظُر وراء كتفي، فإذا بدمية مطاطية ترتدي فُستانًا كثير الزركشة، هي ما ضربني. وقبل أن أستوعب ما يجري، إذا بشمس أُخرى تُنير دنياي، غير الشمس التقليدية التي في السماء. شمس وجدتها تنحني نصف انحناءة في أدب جَم، وتقُول بعربية تبعث على الابتسام: «آسفة جدًّا، (صُولا) غضبت منِّي لطلبي العودة للقصر، فقذفتْ دميتها احتجاجًا». كانت الشمس البشرية التي تُحدثني تُظلِّل رأسها قُبعة على الطراز الأوروبي، أسفلها عينان خضراوان في لون أوراق النعناع، بشرتها بيضاء يشوبها بعض النَّمش على جانبي أنفها الدقيق ذي المقدِّمة الدقيقة الحادة، شفتاها رفيعتان، أشعر بحرارتها من موقعي. نبرة صوتها ناعمة رقيقة، فيها دفء لا تُخطئه الأُذن. قُمت من فوري ألتقط الدمية، قُلت بارتباك لم أتعمَّده: «معها حق. من يترك كل هذا الجمال بهذه السُّهولة؟».

خطفت منِّي الطفلة التي قدَّرت سنَّها بسبع سنوات دميتها، ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها لنفهم أنها ما زالت غاضبة. أمَّا شمسي فتوردت وجنتاها، لانتبه أنها فهمت عبارتي كنوع من الغزل. في الحقيقة كُنت أقصد الحديقة؛ لكني لو كُنت جريئًا لقُلت في جمال مُحدثتي أكثر من ذلك. بادرتها: «إن لم يكُن في سُؤالي تجاوز، من أيِّ بلد أنت؟».

«آيرلندا»، أجابت بسرعة. وقبل أن أسألها سُؤالًا آخر، من قبيل استمهال اللحظة، إذا بها تدور لتمسك يد الطفلة برفق وتبتعد بها، فيما تُحدثني: «أعتذر إليك مرَّة أُخرى سيدي». وقبل حتى سؤالها عن اسمها، كانت قد انعطفت لتختفي عن الأنظار، بعد أن أسَرَتْني دونما حول مني ولا قوة.

***

غربت شمسُ يوم 31 يناير 1881 قبل ساعة، لم أتوقع أن أمور المراسم بهذا التعقيد. ثمة كثير من الترتيبات تجري في القصر، خاصةً في السلاملك[8]. ترتيبات لاستقبال عدد كبير من الضيوف على الأرجح، وإن كنتُ لا أعلمُ متى. خاير باشا لا يزال يصر على تمريري على معظم إدارات القصر، دائمًا أصرفُ ذهني عن التفكر في جديته بتأهيلي لمنصبه، هذا خيال جامح! خاير باشا اليوم على غير عادته، قلوق شارد النظرات، يتابع تنفيذنا لأوامره بذهن غائب في مسائل أخرى، وددتُ لو أسأله عن حاله؛ لكني لم أجسر، حتى مر أمامي رجل خمسيني أوروبي القسمات، يرتدي زيًّا عسكريًّا موشحًا بالنياشين، مر من أمامنا في مشية عسكرية صارمة، هنا لم أملك نفسي من سؤال المهردار: «من هذا؟». رماه خاير

8) جزء مخصص لاستقبال الضيوف من الرجال. وهي مِن نُظم العثمانيين. [المُترجِم].

باشا بنظرة خاطفة، وقال: «ميرميران[9] تشارلز پومروي ستون، رئيس أركان الجيش المصري».

«من؟!»، ظننتُ أنني لم أسمع جيدًا. فقال خاير باشا: «الأميركي ستون باشا، أميركا. ألم تسمع عنها؟!». وحينما رأى حملقتي بوجهه قال: «معذور أنك لا تعرفه، هو لا يأتي للقصر إلا للضرورة القصوى».

كدت أُبدي استغرابي أن يكون رئيسُ أركان جيشنا أميركيًّا، لولا نظرة التوتر على مُحيًّا المهردار، فقلت: «حتمًا لذلك علاقة بالاستعدادات المحمومة التي تجري بالقصر». رمقني المهردار بنظرة شاردة ثم قال: «هذه أولى تبعات اجتماع اليوم».

ندت عني نظرة متسائلة، فاستطرد خاير باشا: «اجتمع مجلسُ النظار صباحًا، وكانت الرئاسةُ لجناب الخديوي، بخصوص عريضة الضباط اللعينة تلك. وكان رأيُ رياض باشا أنه حاول لأسبوعين كاملين إقناع الضباط بسحب العريضة، وما داموا يصرون لهذه الحد، فالرأيُ عرضُ مطالبهم على مجلس عسكري للتحقيق فيما يريدون. ولكن كان لعثمان رفقي ناظر الجهادية رأي آخر؛ إذ طالب بالقبض على الضباط الثلاثة: أحمد عرابي، وعبد العال حلمي، وعلي فهمي. والحكمُ عليهم بأشد عقوبة ليكونوا عبرةً لغيرهم من الضباط الفلاحين؛ بحسب قوله. ولقي رأيه قبولًا عند بعض النظار، وكان الخديوي توفيق مع رأي ناظر الجهادية. وقد استمر الجدال إلى مجيء وقت الظهيرة ولم يتقرر شيء،

9) كلمة فارسية الأصل، ومختصرة من «أمير أميران»، أي «أمير الأمراء» بالعربية، وهي واحدة من أرفع الرتب في الإمبراطورية العثمانية، وتُعادل رتبة فريق في الوقت الحالي. [المُترجِم].

فقاموا إلى المائدة، وبعد الفراغ من الطعام عادوا للمداولة، واتجهت الأغلبية إلى رأي الخديوي، ورياض باشا صامت لا يعقب، لم يبد لي راضيًا عما يجري، حتى وجَّه سؤاله إلى عثمان رفقي مباشرة: «أراكَ تدفعُ لمعاقبة الضباط. فهل تتحمل تبعات هذا الأمر؟». أجاب ناظر الجهادية بلا تردد: «نعم».

فكان أن صدر الأمر بتكليف عثمان باشا رفقي بالقبض عليهم، وتقديمهم للمحاكمة العسكرية، وسجنهم.

قلتُ في تردد: «هل مطالب الضباط بهذه الخطورة؟ هل لا تحقُّ لهم؟».

قال باستياء: «ليست المسألة مطالبهم تعبر عن حق أم باطل، المسألة هل لديهم القوة لتحقيق هذه المطالب أم لا؟». وفرك ذقنه ليشرد بنظراته مُردِّدًا: «تلك هي المسألة».

ولبثتُ في السراي نحو ساعة أخرى، ثم هرولتُ لأغادر، وذهني مضطرب بمهام كثيرة تنتظرني في الغد، تبدأ بنظارة الجهادية في ثكنات قصر النيل. وأثناء مروري بأحد أروقة السراي، لمحتُ علي فهمي واقفًا مع أحد الضباط، كما لو يتهامسان. وبدا أنهما لمحاني، فأسرعتُ من خطواتي، ولكن تعالى صوتٌ آمِر: «مظهر أفندي». توقفتُ مُلتفتًا، كان الأميرالاي يناديني، ذهبتُ إليه متسائلًا، رأيته يصرفُ الضابط الذي أدى إليه التحية العسكرية بانضباط جم، لمحتُ شارته، إنه بكباشي. وواجهني علي فهمي متفرسًا في ملامحي: «لقد لمحتُك كثيرًا في مكتب الخديوي». أحكمتُ وضع رزمة ملفات تحت إبطي وأنا أقولُ: «أنا كاتبُ جلسات ومبيِّض محاضر». قال علي فهمي بنبرة ذات مغزى: «لا يقتربُ من الخديوي إلا من يراهم موضع ثقة».

لم أعلق. فحدجني بنظرة فاحصة ثم قال: «أكيد سمعتَ بالعريضة؟». تفاقم اضطرابي، لا أعلمُ ما الذي ينبغي عليَّ قوله، فمال الضابط ناحيتي: «أكيد تعلم أسرارًا لا يجوزُ التفوه بها». ثم نظر لعيني مباشرة: «لكن يجبُ ألا ننسى أن مصر أكبر من أي شخص أو منصب»، وخفتت نبرته: «ونحنُ كضباط معنيين بهذا البلد، يهمنا فعلًا معرفة رأي الخديوي توفيق فيما يجري». انطلق لساني أخيرًا: «وضعي الوظيفي لا يخول لي لقاء الخديوي وفقًا لإرادتي، إنما ألقاه متى استدعاني».

سألني علي فهمي باهتمام: «والمهردار؟».

قلت بسرعة: «شأنه شأن الخديوي. إنما أنا مجرد موظف، وجوده بالقصر لم يزد على عام وشهور». سبرني الأميرالاي بنظرة عميقة: «ورغم ذلك تمكنتَ من نيل ثقة ذوي النفوذ بالقصر». وتلفت حوله، ثم قال: «يتعين عليَّ المغادرة سريعًا، ثمة الكثير من الترتيبات يتعينُ إجراؤها». استمعتُ إليه شاعرًا أنني على وشك التورط فيما لا يجدر التورطُ به. وصدق حدسي حينما قال: «سأُحمِّلَكُ أمانةً، إن استطعت تبليغها للخديوي بلا خطورة عليك فافعل». أحاط القلقُ بقلبي مثل قماشة من صوف، فيما يستطرد الأميرالاي هامسًا: «وصلتنا عصر اليوم -الأميرالاي أحمد عرابي وعبد العال حلمي وأنا- دعوة من ناظر الجهادية عثمان رفقي. تخيل ما موضوعها؟ يدعون ثلاثتنا للقدوم غدًا، أول أيام شهر ربيع الأول 1298هـ والموافق 1 فبراير 1881م. لمقر ديوان الجهادية، للتباحث في ترتيب حفلة زفاف الأميرة جميلة، شقيقة جناب الخديوي. تخيَّل؟!».

حملقتُ به بغير استيعاب، فيما يستطرد: «ما علاقتنا نحنُ -الذين من ثلاثة آلايات مختلفةً- بترتيب حفل زفاف؟! لقد تباحثنا مع الثقات،

وانتهينا إلى أن حتمًا ثمة مكيدة تنتظرنا». ومط شفته السفلى بازدراء: «واضح أن سلوك الحكومة هذا السبيل المبتذل للغدر والخداع، يدل على مدى ما باتت فيه من ضعف وخوَر». وأردف بوجه جامد، وإن لمستُ في نبرته قلقًا: «ورغم ذلك استقر الرأيُ على عدم النكوص. سنذهبُ لقَدَرنا، أيًّا كان».

وجدتُ نفسي أقول: «و... ماذا إن كانت مكيدة فعلًا؟».

أطلق الضابطُ نفسًا مكبوحًا وقال: «حينها سيكونُ كما قال عرابي، فليفعل كلٌّ ما يمليه عليه ضميره». لم أفهم، وعاجلني علي فهمي مُمسكًا منكبيَّ: «تهمُّنا معرفة جناب الخديوي، هل هو على علم بهذه المكيدة أم لا؟».

نظرتُ إليه ممتقع الوجه، كيف عساي أعلمُ؟، ويبدو أنه حدس ما في ذهني، فتركني مبتعدًا بخطوات متعجلة، مرددًا: «فقط حاول، وفقًا لما يمليه عليك ضميرك». واختفى الأميرالاي في آخر الرواق، فيما ضربات قلبي تدوي بقوة، أتخبطُ في اضطرابي وحيرتي.

***

يوم الجمعة، مرة أخرى آتي للحديقة التي أُغرمتُ بها فجأةً، أو منذُ أسبوع بالأحرى، بعدما رأيتُ صاحبة العينين الخضراوين بلون النعناع. أجلسُ فوق ذات المقعد؛ لكني هذه المرة لا أشرد في أفكاري وأحوالي وأحوال السراي؛ لكن في مَن شغفت قلبي. لم أعهد نفسي من الذين يصرعهم الجمال، ما أكثر الحسناوات اللاتي رأيتهن؛ لكن في فتاة الحديقة شيئًا غامضًا، ربما رِقَّتها؟ أشهد بضعفي أمام الرقيقات. لكن لا، ثمة شيء مضاف لذلك؛ لكني لا أعلمُ كنهه. أتلفتُ يمنةً ويسارًا، مرارًا

وتكرارًا. هل لن تأتي هذا الأسبوع؟ يا ويلي لو كانت زيارتها للحديقة عابرة وليست منتظمةً! ليتها تأتي ولو لمرة واحدة، ولو لأعرف فقط اسمها.

ومع مرور المارة، أغلبهم من الأجانب، وقلائل من المصريين الأفندية أمثالي في أزيائنا الإفرنجية، وعدد أقل من أولاد البلد في العِمَّة والقفطان، طار ذهني ليسبح في الأحداث الأخيرة بالقصر، لطالما أثار الخديوي حيرتي، سنه الصغيرة، والمهام الجسيمة فوق كتفيه، تارة يجنحُ لأقصى اليمين، وتارة أخرى لأشدِّ اليسار. أعلمُ أنه لا يريد سوى الأمان. لعله يجنحُ مع التيار، يحاول استبيان الحصان الرابح ليقامر عليه؛ لكن الأحداث في بلدنا صارت تتقلبُ سريعًا، والإنجليز بوجه الخصوص فائقو النشاط. لكم يستفزني تسجيلهم لكل شيء، وتحوطهم لكل الحسابات، ليت شعري عدد النفوس التي يجندونها لذلك! أحلمُ بأن أرى مصر تدار بذات الطريقة، القائمون عليها لا يتركون شيئًا للاحتمالات. لكن كما أرى، فردية الحكم ومركزيته تجعلان ذلك حلمًا بعيد المنال. وهكذا عدتُ للغرق في خواطري المعتادة، حتى انتبهتُ على قرصة جوع آلمتني، علمتُ وقتها أن الشمس توشكُ على المغيب. توجَّع قلبي، لا أظنُّ فتاتي قادمةً. قمتُ حزينًا.

لعل في الجمعة القادم فرصةً جديدةً.

***

المرة الأولى التي أدخل فيها نظارة الجهادية. قبل قليل انتهيت من إرسال عدة برقيات بأمر من جناب الخديوي شخصيًّا، الآن يتوجبُ تسلُّم بعض الأوراق من جناب ناظر الجهادية عثمان باشا رفقي. مررتُ عبر الردهة المؤدية لمكتب الناظر، ثمة الكثير من الضباط ذوي الرتب العالية، يتضاحكون ويتندرون. لم أركز معهم؛ لكن لفت نظري أن النظارة تعجُّ بالضباط الچراكسة. طلبتُ من سكرتير الناظر الإذن بالدخول، غاب بالداخل برهةً، ثم انفتح البابُ فجأة بعنف وسمعتُ صياحًا عاليًا مُزعجًا: «الدوابُّ أسرع منكم فهمًا، لن أكرر كلماتي، لا تراجع في قرار النقل. كلمة أخرى وسيتغير القرار إلى مديرية دارفور». ورأيتُ ضابطين، أحدهما برتبة صاغ والآخر يوزباشي[10]، يهرعان خارجين في خطوات مضطربة، وفي أثرهما السكرتير. أشار لي بالدخول. عدلتُ هندامي وقبضتُ على الملفات، ودخلتُ مُتهيبًا. استقبلني الفريقُ عثمان باشا رفقي، رمقني من فوره بنظرة حادة، فانقبضتْ نفسي، حاولتُ التكلم فتجمد لساني. فسارعت بسحب ورقة ممهورة من جناب رئيس الديوان الخديوي، وقدَّمتها إليه مُطرقًا للأرض تفاديًا لنظراته الحادة. تناول مني الورقة وجلس إلى مكتبه، وقال مُنفعلًا: «يظنون أن سماح الحاكم الأسبق سعيد بترقي المصريين في الجيش يبيحُ لهم التبجح على أسيادهم»، ورمقني بنظرة نارية، بدا كما لو يتفحصني، ثم لانت ملامحه: «أنت چركسي، أليس كذلك؟».

كدتُ أقول إنني مصري ذو أصول چركسية، ولكنني جبنتُ، فأومأتُ برأسي بقوة، فقال لي بيقين: «نحنُ الأسياد وهم العبيد، لا

10) في الوقت الحالي: صاغ تعادل رتبة رائد. يوزباشي: تعادل رتبة نقيب. [المُترجِم].

يستطيعون العيش من دوننا، ويجب دائمًا أن يشعروا بحاجتهم إلينا».

ورمق الورقة التي قدمتها إليه، ما أتاح لي النظر بحرية إلى ملامحه، هو ذو وجه طويل نوعًا، بارز الوجنتين، شاربه مبروم، في نظراته جرأة متحدية غير خافية. بدا لي صداميًّا جدًّا. ودار بكرسيِّه يسارًا ليفتح ملفًّا ذا غلاف سميك، تناول منه أربع أوراق، ألقى عليها نظرة خاطفة، ثم ناولها إليَّ فيما يقولُ: «حظك حلو أنك أدركتني قبل بدء المحاكمة».

طفرتْ مني نظرات متسائلةً، فيما كان يُجمجم: «نام وقام فوجد نفسه قائمقام!».

ساورني التوتر. تابع ناظر الجهادية بنبرة متعجرفة: «ثلاثة ضباط فلاحين رعاع، يظنون أن رتبتهم تبيحُ لهم الجرأة على كبرائهم». وقدَّم لي دفترًا لأوقِّع بالاستلام. مهرته بتوقيعي فيما أسمعه: «واهمون. قبل قليل أتوا كالمغفلين، فتم القبض عليهم، وسحب أسلحتهم، وتجريدهم من رتبهم، وتم تعيين ثلاثة ضباط چراكسة مكانهم». وألقى نظرةً سريعةً على توقيعي فيما يردفُ: «الآن يقبعون في زنزانة عفنة، ريثما تنعقد المحاكمةُ العسكريةُ بعد قليل».

أومأتُ برأسي باضطراب. لهذا الرجل حضور غير مريح بالمرة. أحنيتُ رأسي مُحيِيًا؛ لكنه لم يرني على الأرجح؛ إذ أدار لي ظهره لينشغل بشأن ما. فسارعتُ بالخروج بأسرع ما أستطيعُ. لا يتبقى لي إلا تسجيل بعض الأوراق في قلم المحفوظات. ولكن أين يقعُ؟ قد أخبروني عند البوابة أنه بالثكنة الملاصقة لنهر النيل. سرت بخطوات شبه راكضة، أريد العودةَ بأسرع ما يمكنُ إلى القصر. هذه مهمتي الميدانية الأولى،

ولعلها الأخيرة. ودخلتُ الثكنة المرادة، قابلني عسكري سألته عن القلم، فأشار إلى الطابق الثالث قائلًا: «ستجده آخر الرواق إلى اليسار». صعدتُ الدرج قفزًا حيثُ أشار. دلفتُ للرواق المطلوب، على جانبيه حجرات بعضها له أبواب حديدية. لمحتُ أربعة حراس مسلحين يجوبون الرواق. فجأة تناهى إلى مسامعي صوت صخب شديد وهدير. الحراسُ الأربعةُ تبادلوا النظر ثم هرولوا للمدخل الذي دخلت منه. في مروري بمنتصف الممر سمعتُ صوتًا رجوليًّا كأنه التأوُّه، توقفتُ مُصغيًا، كان الصوتُ وراء باب حديدي لحجرة إلى اليمين، ثم سمعتُ صوتًا بدا لي مألوفًا، يقولُ: «لا نجاةَ لنا من الموت. مَن لأولادنا الصغار؟!». ثم سمعتُ جلبةً بالداخل، تلاها صوت عميق يقول: «أيعقل أن تحاول القفز من النافذة؟! إن أسفلها النيل مباشرة! تماسك يا رجل ولا تجزع».

وشعرتُ بالخزي من وقفتي المتلصصة هذه، فهرولتُ إلى قلم المحفوظات. استقبلني الموظفُ بقلق جلي، وقال فيما يسجل لي الأوراق: «كان يجدر بهم صرفنا مبكرًا اليوم من النظارة». نظرتُ إليه بتساؤل، فأشار للردهة: «يحبسون مصيبة هنا، ولا يضعون لحراستها سوى أربعة فقط!». قُلتُ وأنا أسترد الأوراقَ وأضعها في الملف: «أيةُ مصيبة؟».

صاح بي: «الضباط الثلاثة؛ عرابي وعبد العال وفهمي. هل أنت نائم يا رجل؟!». قلتُ مندهشًا: «تعني أن صوت الرجال الذي سمعتهم بالرواق كان...»، وقاطعني صوتُ انطلاق عدة أعيرة نارية فجأة، فهبَّ الموظفُ من مكانه، وهرع للنافذة، ثم جعل يردد كما لو أصابه مس: «انظر! انظر! هذا ما خشيتُ منه». هرعت إلى جواره أنظر عبرَ الشبَّاك، فهالني ما رأيتُ! جموع كثيفة من الضباط والعساكر تحيطُ بالنظارة، تنتشر

بشكل منظم منضبط كأنهم في معركة. ساورني الفزعُ، قبضتُ على الملف وركضتُ من الحجرة، ثم توقفتُ مضطربًا، أين أذهبُ؟ وماذا سيفعلون؟ ووجدتُ نفسي أصعد الدرجَ حتى وصلتُ لسطح المبنى، ومن فوقه جعلتُ أتابع ما يجري مشدوهًا. رأيتُ أورطة[11] من بضع مئات من الجنود تنفصل عن الجموع العسكرية لتذهب للجهة الخلفية لقصر النيل، فيما قصدتْ أورطة أخرى الجهة الأمامية. إنهم يحيطون بالنظارة بشكل محكم. صكَّت أذناي أصوات متتابعة قوية، مِلتُ بجذعي للأمام لأرى، إنها أصواتُ طرق نوافذ وأبواب المبنى، لقد أحكم المُحاصَرون إغلاقها على أنفسهم من الداخل! وقبل أن أستوعب معنى ذلك، رأيتُ فرقة من العساكر تقتحمُ ديوان الجهادية! درتُ حول نفسي، أين المفر؟ هذا غير مسبوق!

وانتقلت لجهة أخرى من السطح أتابعُ ما يجري، فوجدتُ النوافذَ تتفتَّحُ بعنف، ورجال ببزات عسكرية يقفزون منها بلا تردد. دققتُ النظر، أليس هذا وكيل الجهادية الذي يقفزُ؟ وها هو أفلاطون باشا يحذو مثله! ثم رأيتُ ما جعل فكِّي يتراخى ذهولًا؛ عثمان باشا رفقي وزير الجهادية يتشبثُ بإفريز إحدى النوافذ، ثم يفلتُ يديه ليفر هاربًا هو الآخر!

وتتابعت المشاهد المخزيةُ، الكل يهربُ طالبًا النجاة لنفسه، ضباط تتدلى منهم أوشحةُ القضاء، عسكريون يخلعون ملابسهم العسكرية ويفرون، منهم من قفز في النيل، ومنهم من انكسرت عظامه على الأسفلت،

11) تسمية قديمة للوحدة العسكرية التي تُعرَف اليوم بالكتيبة. أصلها في التركية العثمانية «أورته» بالتاء. [المُترجِم].

ومنهم من جُرح، ومنهم من هبط سالمًا واختلط بين الجموع العسكرية المهاجمة. وما أدري إلا ووجدت يدًا غليظةً فوق كتفي! التفتُّ، فوجدتُ زمرة من العساكر يرمقونني في تحفز! رفعتُ يديَّ عاليًا وصحتُ: «خذوني لقائدكم، إنما أنا موظف مدني بالقصر الخديوي». لم يعلِّق أحد، وإنما دفعوني دفعًا حتى وصلتُ لضابط بدا وجهه مألوفًا، تذكرتُّه؛ إنه البكباشي الذي رأيته مساء أمس واقفًا مع الأميرالاي علي فهمي الديب! وبدا أنه تذكَّرني هو الآخر بمجرد أن وقعتْ عليَّ عيناه؛ إذ صرف الجنود عني بإشارة من يده، وشد نفسه في وقفته قائلًا بنبرة صارمة: «البكباشي محمد عبيد. عرِّف نفسك». أجبتُ فيما أزدرد ريقي: «مظهر شُقير، موظف بالقصر الخديوي. موفد هنا في مهمة رسمية من المهردار خاير باشا».

تفرَّس في ملامحي لحظات، ثم أمرني: «غادر حالًا».

لم أصدق أذنيَّ، سأغادر هذا المكان سالمًا، وبكرامتي! حمدًا لله. وهرولتُ خارجًا أتفادى الجموع المقتحمة الذين طفقوا يحطمون بكِعاب بنادقهم كل الأبواب الموصدة.

تنفستُ الصعداء مع خروجي، وهرولت عبر شارع الخديوي إسماعيل قاصدًا سراي عابدين. يجب أن أصل بأقصى سرعة.

***

وهناك، وجدت التشكيلات العسكرية المختلفة، تتقاطر من كل اتجاه، في حركاتها المنتظمة المهيبة، لتحاصر القصر.

شعرت أن شيئًا جللًا يجري، ترى، ما هو؟ وما مآل ذلك كله؟ وصادفتُ المهردار داخل القصر مهرولًا، فاستوقفته لاهثًا وقصصتُ عليه سريعًا ما جرى بثكنات قصر النيل، فعقَّب قائلًا: «واضح جدًّا أن

الضباط الثلاثة تركوا وراءهم من يتتبعهم حتى وصولهم نظارة الجهادية. الماكرون وضعوا حتمًا خطةً احتياطيةً حال عدم خروجهم. ولعل ذلك سببُ ما جرى من تمرد ضباط الآلاي الأول بالحرس الخديوي، إذ قام البكباشي محمد عبيد -أحد ضباط الآلاي- بتحريض جنوده للزحف إلى قصر النيل، لإطلاق سراح عرابي ورفيقيه قسرًا».

سألتُ باهتمام: «أليس الأميرالاي علي فهمي ضمن الآلاي الأول؟». أومأ المهردار برأسه بعصبية، واستطرد: «البكباشي محمد عبيد قام بمناداة جنده نداءً عسكريًّا فاحتشدوا، وأمرهم -من داخل السراي- بالسير إلى قصر النيل. قائمقام الآلاي خورشيد بك اعترضه -ذلك الذي حل محل فهمي في وظيفته- فلم يستمع محمد عبيد إليه؛ بل اعتقله في إحدى حجرات القشلاق[12]!». اتسعت عيناي دهشةً، فيما يتابعُ خاير باشا: «وشهد الخديوي تأهب الجند للمسير؛ فأرسل إليهم الفريق راشد باشا حسني -سير ياوره[13]- ليصدهم عن سبيلهم ويهددهم، فما استمعوا له. فأرسل الخديوي توفيق يستدعي الضابط عبيد وبعض إخوانه، فرفضوا أن يذهبوا إليه! ولم تبقَ سوى الأورطة الأولى حكمدارية البكباشي أحمد أفندي فرج، في ساحة عابدين، ومعها بيرق الآلاي، وكان وقوفها في هيئة طابور لأجل حفظ الخديوي مما عسى يطرأ من أمور».

12) قِشلاق: بالكسر، الثكنة العسكرية. بالتركية «قشلاق» (kışlak)، مِن kış بمعنى الشتاء، وأصل المعنى معسكر الجيش في الشتاء. ويقال له كذلك «قشله» (kışla). [المُترجِم].

13) الياور: كلمة تركية، معناها المُرافق الشخصي. وهي كذلك رتبة عسكرية عثمانية تعني رئيس حرس الأمير، وله مهمة حمل السيف أمام ضيوف الدولة، ويسير أمامهم مستعرضًا حرس الشرف. [المُترجِم].

رددت غير مصدق: «البكباشي محمد عبيد رفض أمر استدعاء الخديوي؟!».

لوَّحَ خاير باشا رئيس الديوان الخديوي بورقة في يده: «يجب أن يرى جنابُ الخديوي هذه البرقية بأسرع ما يمكن». وهرعتُ وراءه أناديه: «إلى أين؟».

«إلى السلاملك».

وفوجئتُ فور صعودي بوجود الناظر القافز من نافذة مكتبه، عثمان باشا رفقي. وجمع من الأمراء الچراكسة، وأعضاء في بزات عسكرية متشحين بوشاح القضاء. لا ريب هربوا من قصر النيل إلى هنا مباشرة ليحتموا بالخديوي.

بدا من الجو العام أن ثمة تشاورًا مَا يجري؛ إذ علا صوتُ الأميركي ميرميران ستون باشا قائد أركان الجيش المصري: «ما يجري بالخارج ليس سوى تمرد عسكري، ومن الواجب ضربهم حالًا بالمدافع».

عارضه ميرميران إسماعيل باشا كامل: «لن يجدي البطشُ نفعًا، فالفِرَقُ العسكرية جميعها تؤيد عرابي ومن معه».

عبس ميرميران ستون قليلًا، ثم قال: «هناك حل آخر، الآلاي السوداني بطرة يكفي لإكراه الآلاي الأول هنا على التسليم». فعارضه إسماعيل باشا كامل مرةً أخرى: «أظنك لا تعلمُ أن الآلاي السوداني هو الأشد تحمسًا لعريضة عرابي من بين باقي الآلايات». وبدا كما لو غضب الخديوي من سلوك إسماعيل باشا كامل المُعارض، فأمر من فوره تلغرافيًّا خورشيد باشا طاهر بإحضار الآلاي السوداني من طرة إلى سراي عابدين

بغاية السرعة، ومعه الجبخانة[14] اللازمة. وخرج الخديوي لشرفة السلاملك، تبعناه جميعًا، بدا الخديوي كما لو صُدم حينما رأى تشكيلات الجيش المصري تحاصر السراي. فأسرع المهردار يُهدِّئه: «رغم وقوفهم هذه الوقفة، إلا أنهم يهتفون باسم جلالتك، وموسيقاهم العسكرية تعزف بالسلام لفخامتك». واقترب من الخديوي رياض باشا في هذه اللحظة، ليقول بنبرة متحفزة: «كنت في نظارة الداخلية حينما جاءتني أنباء محاصرة ثكنات قصر النيل، واقتحام نظارة الجهادية، وإخراج عرابي ورفيقيه عنوةً، فهرعتُ فورًا إلى هنا». ومال ناحية الخديوي قائلًا: «وردني من مصادري أن عرابي فور إخراجه قام بإرسال شكوى إلى البارون إم. دي. رنج، قنصل فرنسا العام، ملتمسًا منه إبلاغ جميع القناصل بسلامة موقف الضباط، وما كان من الغدر والكيد لهم، وأرفق شكواه بدعوة الزفاف المزعومة».

ظهرت نظرة قانطة في عينَي الخديوي. تتبعت مسار نظراته فوجدتها تتجه صوب عثمان باشا رفقي الذي كان يقفُ باعتداد متحدثًا بعصبية مع بعض كبار الضباط. وارتفع صخب وهدير ناحية الجموع المحتشدة حول السراي، فاصطففنا بشرفات السلاملك نتبين ما يجري، حتى سمعنا صوتًا يقولُ: «إنه ذلك المارق عرابي، يخطب في زملائه». بحثت عن صاحب العبارة من بيننا فلم أُميِّزه، فيما تمعَّر وجه الخديوي وهو يقول: «تفاعلهم معه فج مبتذل». ثم التفت إلى رياض باشا: «عاجل الأهمية، إخباري برد قنصل فرنسا العام على عرابي، هام جدًّا».

14) الموضع الذي يُحفظ فيه العتاد الحربي والذخائر، وأصلها في اللغة التركية جبهخانة. [المُترجِم].

أومأ رئيسُ النظار برأسه. ولكن أطل علينا المهردار بوجه ممتقع: «القنصل الفرنسي شخصيًّا هنا، ويطلب الإذن بلقاء فخامتك».

انتبه الخديوي توفيق، وطفرت من عينيه نظرة قلقة، فيما ضاقت حدقتا رياض باشا. وأشار الخديوي للمهردار بأن يدخل القنصل. مِلتُ تجاه المهردار وهمست: «خاير باشا، الأوراق التي كلفتني بها أنهيتها. أين أتركها لجنابك كي أنصر...»، قاطعني المهردار مُحملقًا بي: «هل هذا وقته يا مظهر أفندي؟!».

وأقبل القنصل على الخديوي، وعلى قسماته نظرة حازمة، وبعد تحية الخديوي بادره: «قد أرسل لي عرابي موضحًا أنهم على ولائهم للأسرة الحاكمة، وكل مطالبهم وقف المزايا الفئوية للضباط الچراكسة، واكتساحهم لخير المصريين». وتوقف لحظات كما لو يريد تبيُّن أثر كلماته، ثم قال: «ويطلب مني إشهاد بريطانيا وسائر الدول الصديقة على ذلك». اكفهرَّ وجه الخديوي، بينما أكمل قنصل فرنسا العام: «ويطلب من القناصل الأوروبيين التوسط لإصلاح ذات البين».

جمجم الخديوي: «هل رددتَ عليه بعد؟».

أجاب القنصل العام: «أثنيتُ عليه ما دام الحقُّ بجانبه». ثم ناول الخديوي ورقةً مطويةً: «هذه عريضةُ عرابي، أسلِّمها إليك بنفسي». وتساءل الخديوي: «ترى هل أجابه أيٌّ من قناصل الدول الأوروبية الصديقة؟». قال القنصل: «ليس بعد على حد علمي». بدا الارتياحُ على وجه الخديوي. وهنا أتى أحد موظفي القصر، وناول المهردار ورقة ما، فضها خاير باشا، ثم احتقن وجهه، فسأله الخديوي: «خير خاير باشا؟». قال المهردار: «هذا رد ناظر محطة طرة على برقيتنا»، وصمتَ لحظات ثم

أردف: «البكباشي خضر أفندي خضر، ألقى في السجن سلفًا كلًّا من خورشيد باشا طاهر، والأميرالاي خورشيد بك نعمان، وأحمد بك أحمدي الياور الخديوي، والقائمقام فرج الذكر!».

ظهر أثر النبأ الصاعق على جميع الحاضرين، باستثنائي؛ لأني لا أعلمُ من هؤلاء أصلًا، ويبدو أن القنصل الفرنسي مثلي؛ إذ سأل باهتمام عن معنى ذلك، فتطوع رئيس الديوان الخديوي بالإجابة: «أمر جناب الخديوي تلغرافيًّا قبل قليل خورشيد باشا طاهر بإحضار الآلاي السوداني من طرة إلى سراي عابدين بغاية السرعة، ومعه الجبخانة اللازمة». ثم نظر للميرميران ستون مُردفًا: «ولكن جاء الرد أن خورشيد نفسه تم سجنه من البكباشي خضر أفندي خضر، أحد ضباط الآلاي السوداني». وتنحنح ميرميران إسماعيل باشا كامل، فندَتْ عن الخديوي نظرة عصبية: «نعلمُ نعلمُ، كنت على حق». قال إسماعيل باشا كامل: «ليس هذا ما أردتُ قوله، أردتُ إعلامكم فقط أن الآلاي السوداني حضر فعلًا بكامله، وموجود الآن بباحة القصر».

استنار وجه الخديوي، ولكن إسماعيل باشا سارع بالقول: «وهو إلى جانب عرابي!».

امتقع وجه الخديوي، قال: «نأمر حالًا إذن بعضًا من حرسي الخاص لمقابلة البكباشي خضر أفندي خضر، وإخباره أن ما دام عرابي ورفيقاه خرجوا من الاحتجاز، فعليه إخلاءُ سبيل الأمراء الذين احتجزهم بطرة حالًا، وتنفيذ الأمر الخديوي برجوعه بالآلاي إلى مقره في الحال حيثُ طرة». وسرعان ما عاد حرسه الخاص بإجابة خضر: «البكباشي يرفض مجرد الاستماع لنا فخامتك».

حافظ الخديوي على جمود ملامحه، فيما أردف أحد حراسه الخاصين: «عرابي يخطبُ في الجنود الآن، يشرح لهم المطالب الواردة في الوثيقة التي تسببت في كل ذلك، ومدى عدالتها». سأله الخديوي: «هل استشعرت منهم إلى متى يقفون؟». أومأ ضابطه برأسه: «يُرددون أنهم ماكثون». وبدا كما لو خاير باشا انتبه لوجودي، فنظر إليَّ باستنكار، فتلعثمتُ، وقبل أن أُذكره، خطف مني الملف، وأشاح إليَّ بعصبية أن أغادر.

وغادرتهم إلى بيتي مباشرة، لا أفكر سوى في فراشي الوثير، تاركًا هذا السيرك للاعبيه.

❋❋❋

في عودتي إلى البيت، كان كل ما يدور حولي مشحونًا على غير توقع. حتى الحوذي الذي أقلني لم ينقطع حديثه عن جسارة أولئك الضباط الذي حاصروا حاكم مصر في عقر داره!

لم أشاركه الحديث ولو بكلمة؛ لكنه كان يسترسل ويسترسل، وكأن انبهاره ودهشته بما جرى لا نضوب له. وهكذا حينما نزلت، لم أصعد إلى البيت، بل تتبعت أحاديث الناس على اختلاف طبقاتهم، كان كل منهم يتناول جانبًا مما جرى ويسهبُ كيف يراه من زاويته. حتى قادتني قدماي إلى مقهى شعبي بسيط الطراز؛ لكنه يعجُّ بالرواد، اقتربتُ مُستطلعًا، وجدتُ رجلًا ذا لحية مشذبة يخطبُ في الناس بوقار وحرارة، جذبتني نبرته الرجولية والفصحى الجذابة التي يتحدث بها. جذبتُ كرسيًّا وجلستُ أستمعُ، ما زلتُ حتى هذه اللحظة أتذكر عباراته.

«يا بني الشرق، أين أحلامكم العظيمة وذكاؤكم البديع؟ كفاكم من العار فَقْد الثقة منكم وعدم الركون إليكم في أعمال وطنكم فضلًا عن

الغير. كفاكم ما رميتم به على ألسنة الجرائد الإفرنجية، بل وبعض الوطنية، من بعدكم عن مدارك العلوم والصناعة والإدارة، بل البعض يفضل الحيوان الصامت عليكم».

كلمات عنيفة؛ لكنها غير مألوفة. جُلتُ بنظراتي في المستمعين، جميعهم منتبهون يصغون متجاوبين. وراقَ لي أسلوبُ هذا الرجل بغض النظر عن اقتناعي بكلماته. سألتُ عن اسمه، قيل لي: «عبد الله النديم». وجلستُ مستمعًا حتى انفض الجمعُ. عدتُ إلى بيتي فارغ القوى كالعادة؛ لكني كنت مندهشًا من كمية الوعي والتطلعات لدى هذا الرجل، وما بثه في وعي المستمعين. كان كل ذلك جديدًا عليَّ. مرة أخرى، شعرت أنني أدخل دنيا جديدة... لها جاذبيتها، وكذلك مسؤولياتها.

شغل ذلك تفكيري، حد مزاحمة منامي وأحلامي. وحينما استيقظتُ مع صباح اليوم التالي، وهرعتُ لألحق ميعاد عملي بالقصر، كم كانت دهشتي وأنا أجتازُ جموعَ العساكر المحيطة بالقصر، هل باتوا ليلتهم أمام السراي؟! وفي الداخل علمتُ الإجابة من رفاقي بقلم المعية.

الضباطُ وعساكرهم رفضوا الرجوع لثكناتهم قبل إجابة طلباتهم. وقبل أن أهم بسؤال آخر، وضع داود أفندي أمامي برقية مكتوبة بالتركية، وقال لي: «ما دام أتى فتى المهردار المدلل، فعليك بإيصال هذه البرقية إذن؟». قلتُ: «للمهردار؟».

قال: «بل لجناب الخديوي»، وهمس: «إنها آتية من الباب العالي رأسًا، ويتعين الرد عاجلًا».

قُلت: «ولماذا لا تسلِّمها أنت، أو فايز أفندي؟». قلب داود أفندي كفَّيه: «لم أفعلها في الأيام العادية، فكيف أفعلها في ظل الأحداث الحالية؟».

فضضتُ البرقية وقرأتها، إنها فعلًا من جناب السلطان العالي عبد الحميد الثاني، يطلب موافاته فورًا بأسباب الاضطرابات الحالية في الجيش، ويبدي استعداده لإرسال لجنة تقصي إن لزم الحال. طويتُ البرقية متجهًا لمكتب الخديوي، سنتعرضُ جميعًا للمساءلة إن تأخر تسليمها أكثر من ذلك. في طريقي علمتُ أن فخامته في السلاملك، ما إن دلفتُ حتى وجدتُ الجمع على حاله كما بالأمس، ربما زاد العدد قليلًا. لمحت عددًا من قناصل الدول الأوروبية حاضرين. ولقاني رئيس الديوان الخديوي فهممتُ بإخباره بأمر البرقية، ولكنه بادرني: «أنت قضيتَ ليلتك خارج القصر. قل لي، كيف يرى المصريون ما يجري؟». حملقت بوجهه لحظةً ثم قلتُ: «جلستُ بمقهى البارحة، تضاربتْ أحاديث الناس، ولكني استمعتُ لخطيب مفوَّه، أَسَرَ السامعين».

سأل باهتمام: «ما اسمه؟». قطبتُ محاولًا التركيز ثم قُلت: «عبد الله النديم». عبس المهردار: «هل أتى سريعًا هكذا للقاهرة!».

لذتُ بالصمت مهابةً، ثم لاحظتُ أن ناظر الجهادية عثمان رفقي غير موجود، فسألتُ خاير باشا عن ذلك، فانتحى بي جانبًا، ثم رد باقتضاب: «تم عزله». ارتفع حاجباي دهشةً، وتمثلتُ في ذهني آنيًّا صورته وهو يقفزُ هربًا من نافذة النظارة، واستطرد المهردار: «جرتْ لقاءات كثيرةً هنا بالأمس بغرض التشاور، وكان أبرز الآراء قول ذلك الضابط الچركسي محمود باشا البارودي ناظر الأوقاف: «إني أرى العساكر على الطاعة

بدليل هتافهم باسم الخديوي، وموسيقاهم تعزفُ لجنابكم، فلو أجبتَ طلباتهم لانحسمت المسألة بسلام».

وأتى بعدها عدد من القناصل إلى جناب الخديوي، وكان الرأي إجابة طلبات الضباط حسمًا للنزاع ودرءًا للخطر؛ خاصة وأن لا قوة للحكومة في غير ذلك. فاستقر الرأيُ أن يسلك الخديوي معهم جانب اللين، فيطفئ بذلك نار الفتنة. وتقرر إيفادي مع ناظر الأوقاف، لمفاوضتهم.

قلتُ مشدوها: «ومتى تنزلان إليهم؟». قال: «قد ذهبنا فعلًا. كانوا يرددون أنهم على الطاعة مُلازمون، ولا يبغون غير الإصلاح. فقلتُ لهم: وما هو الإصلاح؟ أجابوا؛ هو ما أوضحناه بعريضتنا. وإن شئتَ التحديد؛ فرغبتنا البدء بعزل ناظر الجهادية عثمان رفقي، ثم يشرع أفندينا في تنفيذ باقي الطلبات». ثم نفخ: «وهكذا جعلنا في ذهاب وإياب بينهم وبين الخديوي».

قُلت: «إذن قبل الخديوي كل طلباتهم». أجاب: «بل بدأ بالموافقة على عزل ناظرهم، وعدنا إليهم بطلبه أن يُسمُّوا بأنفسهم الناظر الذي يريدونه، فقال عرابي: «لا نفعل، يكفينا أي ناظر وطني»، فقلتُ: «بل سمُّوا اسمًا، الخديوي يصر على ذلك لئلا تشتكوا منه بعد ذلك». فاختار الضُبَّاطُ محمود سامي البارودي. قلتُ مندهشًا: «ولكنه چركسي مثله مثل عثمان رفقي!». حملق بي: «وما لهم الچراكسة؟ ألست أنت منهم؟!». قلتُ بصوت خافت: «في الحقيقة لم أشعر أنني كذلك إلا منذ ولوجي هذا القصر». فاستفهم المُهردار: «ارفع صوتك، لا أسمعك». تنحنحت: «لا شيء خاير باشا، كنت فقط أحاول معرفة كيف يفكرون».

قال: «هم لا يرون في محمُود سامي سوى رجُل وطني مُثقَّف. ثم إن معلوماتنا أنه لم يكُن أبدًا مع عثمان رفقي وزمرته»، وخفَت صوته بمكر: «إنه مثلك، لا يرى نفسه إلا مصريًّا».

إذن قد سمعني الدَّاهية العجوز! وقُلت مُداريًا ارتباكي: «ما دام عزل ناظرهم وعيَّن لهم البارودي، لماذا إذن ما زالُوا في أماكنهم؟». هزَّ رأسه: «قالُوا لن يبرحوا الميدان حتى تُجاب بقيَّة الطَّلبات».

كدت أسأل سؤالًا آخر، ولكن أمر البرقية ومض بغتة في ذهني، فبادرت المهردار بخبرها، فنظر إليَّ في عتاب شديد وأخذها مني، وهرول بها إلى الخديوي.

طُفت بنظراتي في أصحاب الياقات الأنيقة، من قناصل وباشوات وأمراء، ثم نظرت لحُلَّتي البائسة، فشعرتُ كأني نغمة نشاز بينهم، فخرجت لأعود إلى زملائي بالمكتب، حيث أنتمي.

***

الصباح التالي 3 فبراير 1881 – 4 ربيع الأول 1298، في مكتبي بقلم المعية، حانت مني التفاتة لجريدة الأهرام، إحدى الجرائد التي ترِدُ السراي بصفة دورية، تأملتُ العنوان الرئيسي:

الضباط يَمثُلون بين يدي الخديوي مُعربين عن امتنانهم ولائهم للعرش

ومتن الخبر أن الخديوي توفيق أنصف الضباط وأعادهم فورًا لمناصبهم التي عُزلوا منها، ووعدهم بإجابة بقية مطالب العريضة. فانصرف الجُند فرحين مُستبشرين.

طويت الجريدة، شعرت بالضجر من حديث زملائي بالمكتب عن السياسة، ذات الحديث في المقاهي، والشوارع، وحتى في الأسواق وأحاديث الباعة.

ووجدتُ نفسي أنعزل عما حولي لأهيم في عوالم فاتنتي صبابة واشتياقًا.

***

يوم جُمعة آخر، لم أعُد أذكُر ترتيبه، أسابيع طويلة مرت مُذ آخر مرة رأيتُ فيها جميلتي الأجنبية؛ لكني أُحافظ على القُدوم هنا بانتظام أُسبوعيًّا، وفي نفس الميعاد، علَّني...

أخيرًا أتت! ها هي تقبل بمشيتها الرقيقة تحُوم حول الصغيرة التي تتقافز فرحة وفي يدها الدمية إياها. ودونما تريث هرولتُ إليها، بادرتها: «أخيرًا!».

رمقتني مُتسعة العينين كما لو فُوجئتْ، سرعان ما بدا أنها تذكرتني، قالت بابتسامة مُتحفظة: «عفوًا؟».

قُلت غير هياب: «أزُور هذه الحديقة أُسبوعيًّا، مرت مُدة طويلة على قذفي بهذه الدمية اللطيفة». تورَّد وجه الفتاة الآيرلندية ولم تعقب؛ لكني لم أتزحزح من مكاني، حتى قالت بلغة عربية فُصحى ذات لكنة أجنبية: «الفترة الماضية سنجق باشا اصطحب الأُسرة كُلها إلى عزبته في الصعيد. وقت الحصاد يُفضِّل أن يكُون موجُودًا».

قُلت: «حضرتك من الأُسرة إذن؟». استشعرتُ حرجها من طُول المحادثة، أجابت وهي تُشير للطفلة: «أنا مُربية صولا، الابنة الكُبرى لسنجق باشا». في هذه اللحظة كانت صولا تجذب المربية من كُمها،

فسارعت بالسؤال: «أرجُو ألا يكُون سؤالي مُزعجًا، هل لي معرفة اسمك؟». حملقت بي بدهشة جميلة، ثم قالت برقَّة آسرة: «آرلين... آرلين أُوجستين».

قُلت على الفور: «مظهر أفندي شُقير، مُوظف بقصر عابدين». هزت رأسها تحية، وهمت بالتحرك، فاستوقفتُها: «طلب أخير ولن أُزعجك أكثر من ذلك، هل ستأتين الجُمعة القادم؟».

هنا رأيتُ أجمل ابتسامة خجول قد يراها إنسان، صمتت بُرهة، ثم قالت: «باستثناء يوم الجُمعة، أخرج للتنزه يوميًّا من الساعة السابعة إلى الثامنة، أكُون وحدي...». وحيَّتني بهزة أُخرى من رأسها، وابتعدت لتنشغل مع الطفلة، بينما كُنت أُحلِّق في سماوات النشوة وقد التقطت تلميحها. القبول... ما أعظم القبول، خاصة حينما يأتي من آرلين.

***

(4)

على غير العادة، بعد أحداث عابدين الأولى، تغيرت الأحاديثُ على المقاهي، فتعالت أصواتُ الرواد من التندر واللجاجة إلى أحاديث الحُكم والسياسة، ومدى جرأة هؤلاء الضباط على أفندينا. كذلك جرت أيديهم إلى الصحف، يطلبون من المتعلمين قراءتها بصوت عالٍ، وربما رأوا في منظري منظر أفندي متعلم مثقف، فكان كثيرًا ما كان يُطلبُ مني ذلك، حينها ينصتُ الجميعُ ويصغون.

وما أكثر ما وددتُ لو أدليتُ وتباهيتُ بما لدي من معلومات، لأستدر مزيدًا من نظرات الانبهار والإجلال؛ لكنني أعلم أن ذلك فيه نهاية علاقتي بالسراي، فكنتُ أزجر نفسي وأكبحها بصعوبة.

الأميرالاي علي بك فهمي توطدت علاقته بي عن ذي قبل. لم أبادره أي مرة بالحوار إن تصادفنا في باحات القصر بحكم وظيفة كل منا، ولكنه بدا لي في كل مرة كما لو يحاول فتح مجالات للحوار معي. ترى هل يظنني مُهمًّا نوعًا ما؟

ربما ظن ذلك بحكم كثرة مصاحبتي جناب الخديوي... ويبدو أنني استطبتُ هذا الشعور بالأهمية والخطورة، رغم علمي أن ذلك بداعي وظيفتي لا أكثر. ثمة احتمال وارد كذلك أنه يريد أن يستدرَّ ما لدي من أسرار بحُكم موقعي، خاصةً بعدما أفلح فعلًا في إقامة علاقة ودية معي. لا أنكر أن حديثه لطيف حقًّا، بيد أنه بات كلما يلقاني يقول أشياء عن الضباط لا علاقة لي بها، اللهم إلا أن يتباهى بما لديه من أخبار،

أو يريدني أن أقوم بسرد ما لدي بالمقابل. من ذلك قوله بعد نحو شهر من أحداث عابدين الأولى في فبراير؛ إن على الرغم من إقالة عثمان رفقي من الوزارة، إلا أن أعمال الدس والتحريض لا زالت قائمة.

قلتُ له مداعبًا: «أراكم ترمون نحو رياض باشا هذه المرة». قال مكفهر الملامح: «أظن الأمر أكبر من ذلك».

اندهشت من إجابته، مَن أكبر من رئيس النظار؟! وقبل أن أستغرق في تساؤلاتي بادرني: «أراكَ مرتابًا، لقد قبضنا فعلًا على باشجاويش[15] بالآلاي السوداني، بعد إغواء ثمانية أفراد بالآلاي، واعترف بكل شيء».

قلتُ مندهشا: «اعترف بماذا؟». أجاب: «يعرضون على الضباط والجنود التمرد على قاداتهم، والمقابل ثمانية جنيهات مصرية، بالإضافة لتزويجه جارية من حسان جواري هذه السراي».

قلت مُستفهمًا: «من يعرضُ؟».

تلفتَ حوله، ثم قال بخفوت: «ما كان ذلك الباشجاويش إلا بيدقًا في يد يوسف باشا كمال».

قلتُ مبهوتًا: «وكيل الدائرة الخديوية؟! لقد كنتُ عنده صباح اليوم!».

أومأ الأميرالاي برأسه مقطبًا، فقلتُ: «وما مصلحته في ذلك؟».

تمتم علي فهمي عابسًا: «أظنه بيدقًا آخر». قلتُ: «في يد من؟». نظر لي الأميرالاي نظرة ذات مغزى، وقبل أن أستوضح لمحتُ المهردار يقبل علينا، فشد الأميرالاي قامته وغادرني مُسرعًا، وهو يُدمدم: «لحديثنا بقية، أراك لاحقًا».

---

15) يعادل في الوقت الحالي رتبة رقيب أول. [المُترجِم].

رفعت نظري إلى المهردار، كان يُشير لألحق به في مكتبه. وهناك ناولني بعض الأوراق لأنجزها، وحدستُ من ملامحه أنه عكر المزاج، فسألته عن ذلك، فأجاب إجابةً مقتضبةً: «حكم مجلس الآلاي قبل أيام بسجن باشجاويش چركسي ستة أشهر مكبلًا بالحديد، كما قضى بإعفاء ثمانية من ضباط الصف السودانيين من الخدمة. واليوم فقط، صادقت نظارة الجهادية على الحكم».

كدتُ أسأله عن مدى السوء في ذلك، ولكن أسعفتني خبراتي السابقة؛ حذارِ من البقاء طويلًا أمام متعكري المزاج. فاستأذنتُ وخرجتُ بلا كلمة.

* * *

ساورتني الدهشة من كم وجود عساكر الحرس الخصوصي للخديوي داخل أروقة السراي وليس خارجها. ذلك ليس معتادًا، تمامًا كزيارات القنصل البريطاني في مصر (ماليت) التي زادت في الأسابيع الأخيرة للخديوي، دونًا عن بقية قناصل الدول الأخرى. الزياراتُ شبه يومية، وتتكرر ليلًا ونهارًا. ليس الفضول من سماتي، ولكن الأمر غير تقليدي. ثم توتر بالقصر غير خافٍ.

ودلفتُ إلى قلم المعية فهتف فيَّ داوود مُهللًا بطريقة مسرحية: «حمدًا لله على السلامة، عاش من شافك». رمقته متسائلًا، فقال باسمًا: «لا تؤاخذنا، رغم وجودك اليومي بالسراي إلا أنك لا تشرفنا بالزيارة إلا نادرًا». تجاوزتُ عن السخرية المبطنة، وسألتهما مباشرة: «ماذا يجري في السراي؟ لماذا ينتشر الآلاي بالداخل بهذا الشكل؟».

بدا كما لو سؤالي قد أطربهما، إذ هرعا إليَّ، وقد استبدت الحماسة بهما، فطفقا يتحدثان في آن واحد: «ألم تعلم بسرقة المجوهرات الخديوية؟! لقد اتهم الخديوي آلاي السراي بسرقتها. تخيل شوبكجي القصر إبراهيم أغا متورط في الأمر! الأميرالاي علي بك فهمي حينما علم باتهام مرؤوسيه جن جنونه».

استوقفتهما لاهثًا: «حيلك حيلك منك لُه! فيم تتسابقان؟ يا واش يا واش!».

رمقني داوود مُستغربًا: «ألا تعيش معنا يا رجل؟!».

قُلت: «كل ما جرى غيابٌ ليوم واحد، ولم أقضه في بيتي، بل كنتُ في مأمورية قصدني بها خاير باشا إلى بورسعيد». ثم جلست إلى مكتبي، وقلت: «الآن واحدة واحدة، أخبراني، ماذا جرى؟». جذبَ فايز مقعدًا، ومال ناحيتي وقال: «بالأمس جناب الخديوي استقبل وفدًا ضم قناصل الدول الأوروبية. تعلم أن من ضمن البروتوكول عرض المجوهرات الخديوية في التشريفات للضيوف المهمين. كانت المفاجأة أن الخديوي اكتشف سرقتها كلها».

وتابع داوود: «كانت فضيحة، وأمام مَن؟ قناصل أوروبا المُهمون».

فايز: «انزعج جناب الخديوي جدًّا، خاصةً حينما أبدى القناصل خشيتهم من نزاهة العاملين بالقصر».

شحب وجهي، هل معنى هذا أننا جميعًا في دائرة الاتهام؟! حمدت الله أنني كنتُ خارج القاهرة. ويبدو أن تساؤلي كان بصوت مسموع، إذ قال داوود: «ومن أدراك أن المجوهرات لم تُسرق قبل أمس؟». وعاجلني فايز: «الخديوي تشكك صراحة في آلاي الحرس بالسراي». حينما

سمعت ذلك هدأت ضربات قلبي، فيما عاجلني فايز: «حينما علم علي فهمي بالاتهام الذي مس نزاهة سلاحه، جن جنونه، وأصر على قيادة التحقيق بنفسه». وقال داوود مُستمتعًا: «تخيل؟ لم تكد تستحكمُ التحقيقاتُ حتى فقد شوبكجي القصر محمد حسن الحبشي أعصابه، ليعترف بأن المجوهرات موجودة في الحفظ والصون، وإنما كل ذلك مجرد مكيدة».

رددتُ مذهولًا: «مكيدة؟!».

أومأ فايز برأسه: «تخيل! وإبراهيم أغا -توتنجي[16] الخديوي- مصدرها».

ساورني التشوشُ مما أسمع، وأبديتُ لهما عدم تصديقي، فقهقه فايز: «فات أوان الشك، لقد دل محمد حسن الحبشي على مكان وجود المجوهرات الخديوية فعلًا صباح اليوم». حملقتُ به، فيما يقول داوود: «تخيل أين خبَّؤوها؟» وصمت لحظات مستمتعًا بترقبي على الأرجح، ثم قال ببطء: «في مجرور المراحيض، هنا، بالقصر ذاته». ومال فايز ناحيتي هامسًا: «قلب الأميرالاي علي فهمي الدنيا، وطلب إثبات كل ذلك في محضر رسمي، لتسجيل براءة رجاله من عار تهمة السرقة. ولكن المهردار يرفض، ويريد إبقاء الأمر عند هذا الحد».

خاير باشا! الآن علمت لماذا صرفني الحاجبُ عن مكتبه قبل قليل. وقال داوود: «الجميع هنا يتهامس بأن هذه المكيدة لم يكن لها هدف سوى تشويه سمعة الجيش الأخلاقية، خاصةً أمام القناصل الأوروبيين».

16) لغةً واصطلاحًا لفظ تركي من «تُتُن» أو «توتون» بمعنى التبغ المستعمل للتدخين، و«جي» علامة مهنة في اللغة التركية، واللفظ يدل عل صانع التبغ وبائعه. [المُترجِم].

قُلت: «ولماذا؟!». قال داوود بمكر: «بعضُ القناصل الأوروبيين صاروا يخاطبون كبار الضباط وكأنهم شركاء في الحكم. قطعًا هذا أغضب البعض».

وتبادل مع فايز النظرات. فنفختُ حنقًا، وتناولتُ رزمة ملفات سبق إنهاؤها، وخرجتُ بها إلى المهردار، آمل أن يسمحوا لي بمقابلته الآن. وبالفعل أدخلني السكرتير، وجدتُ خاير باشا ما زال جالسًا إلى مكتبه كاسف البال عاقدًا أصابعه أمام وجهه، فسلمته الملفات، فلم يُلقِ إليها نظرة، فرأيتُ من واجبي أن أنقل إليه ما يُهمَس به في السراي. وبعد أن قصصتُ عليه ما علمت، قُلت: «وما حال شوبكجي القصر الآن؟ هل هو قيد التحقيق؟».

زفر خاير باشا: «الشوبكجي إبراهيم أغا لعله في البحر في هذه اللحظة». حملقت به بغير فهم، فأردف: «في طريقه للآستانة».

قلتُ مبهوتًا: «هرب؟!». نظر لي قانطًا وقال باقتضاب: «بل بناءً على أمر جناب الخديوي».

سادَ صمت طويل، ثم قُلت مُترددًا: «سيلبس الشوبكجي محمد حسن الحبشي التهمة إذن؟». زفر مرةً أخرى، ثم ناولني ورقةً كانت على مكتبه، وقال: «سلِّم هذه الورقة للأميرالاي علي بك فهمي». كانت الورقة ممهورةً بالختم الخديوي، قرأتها سريعًا، فتفجرت الدهشة بداخلي، ويبدو أن خاير باشا كان يرمقني، إذ قال: «نعم، أمر جناب الخديوي بنفي محمد حسن الحبشي إلى سواكن بالسودان»، واشتدت نبرة صوته: «ويجب التنفيذُ حالًا».

***

بسبب مشاغل العمل فوتُّ عدة أيام حتى استطعتُ توفيق توقيت وجودي أمام قصر سنجق باشا في الميعاد الذي حددته آرلين. لم يكن الوصول للعنوان صعبًا، حينما سألتُ عنه علمتُ أن صاحب القصر أشهر من نار على علم. الرجل فاحش الثراء، يتاجر في القطن ومحاصيله؛ لكنه لسبب ما ليس من مريدي قصر عابدين. لم أره حاضرًا أي حفل أو مراسم بالسراي. أفقتُ من أفكاري على تكة خافتةً من باب القصر الكبير. أخرجتُ الساعة ونظرت فيها، تمامُ السابعة. أطلَّت آرلين وهي تنزل الدرج في خفة الغزلان. رفعتُ الطربوش وصففتُ شعري سريعًا بأصابعي. نفحتني ابتسامةً بطرف شفتيها ومضت وكأنني غير موجود. ألقيتُ نظرة على نوافذ القصر، انتظرتُ برهةً ثم سرتُ وراءها. مع أول منعطف اقتربتُ منها مُحييًا، ردت تحيتي بابتسامة. ذهبنا إلى الحديقة التي شهدت لقائنا الأول في شبرا.

انطلق الحديثُ بيننا بما فاق كل تصوراتي. آرلين قدمت لمصر كغيرها من الأوروبيين لتصنع لنفسها مستقبل أفضل. تعمل مربيةً، تُعلِّم اللغة الإنجليزية وفنون الإتيكيت لأبناء الأعيان والطبقات الثرية. علمتُ منها أنها تعلمت العربية سريعًا. عكس لي ذلك قرارها الراسخ بالاستقرار في مصر، أسعدني هذا بشكل خاص. مضت الساعة سريعًا قبل أن يحين ميعاد أوبتها. مضت ولم ينته ظمئي من السماع لها، وحينما قالت بنبرة كالاعتذار: «أزعجتك بثرثرتي، تقريبًا لم أدع لك فرصة لتتكلم عن نفسك». قلتُ وأنا أقبِّل ملامحها بنظراتي: «هذا يجعل لقاءنا الثاني ضروريًّا لأفعل». أطرقتُ للأرض حياءً. وهكذا عدتُ أحلِّقُ في عالم غير العالم، وأنا أُمنِّي نفسي بلقائنا القادم.

***

(5)

شهر مايو 1881م، بداية القيظ، الخديوي يجمعُ حاشيته وينتقل إلى مصيفه بالإسكندرية. سراي عابدين حينها تهدأُ كثيرًا، لا مقابلات ولا نُظار ولا قناصل خارجين داخلين على الخديوي. أظنُّ سأتفرغُ كثيرًا الفترة القادمة، لأستمتع بشؤوني الخاصة بعيدًا عن العمل.

وقبيل سفر جناب الخديوي، علمنا أن ثمة ضيوفًا مهمين قادمون، وتبين أنهم الضباط مثيرو القلاقل، عرابي ورفاقه. استدعاهم الخديوي، وفي حضوري خاطب مُمثلهم عرابي: «المحروسة أمانة في أعناقكم، أحمِّلكم مسؤولية المحافظة على الأمن العام في البلاد، كما أكلفكم بالذهاب إلى جميع قناصل الدول الأوروبية، لتأكيد تأمينهم على رعاياهم، وإعطائهم بأنفسكم كلمة شرف بحفظ أرواحهم وأموالهم».

لأول مرة أرى أحمد عرابي بهذا القرب. هو مهيب الطلعة، عريض الصدر، وئيد الحركات، غليظ الأطراف، متى نظرتُ لوجهه تغمرك سكينة من نوع ما. هذا الرجل فعلًا إما أن يكون زعيمًا، أو دجالًا. ولم يعلق أحد من الضباط، بل صدَعوا بأدب لأوامر الجناب الخديوي، ثم انصرفوا، لتنتهي المقابلة بأقصر مما أتوقع.

فيما بعد، بطبيعة عملي أتت لي صور من تعهدات رسمية من عرابي في هذا الإطار موجهةً إلى جميع الآلايات والطوبجية والسواري وفروع البحرية والجهادية، تُعلمهم بوجوب السكينة والتزام الهدوء، انصياعًا لما أخذه عليهم جنابُ الخديوي من عهود.

كنت أتوقعُ أن الفترة القادمة ستكونُ فترة هدوء وسلام، لولا أن أتت الأيامُ بنقيض ما تصورتُ!

***

من الإسكندرية، صدر قرار بإقالة وزير الجهادية محمود سامي البارودي. السببُ المعلنُ أن أداءه غير منسجم مع نظار الحكومة، فيما ألمح لي المهردار أن السبب جهوده الدؤوبة لتعديل القوانين العسكرية، بما يخلّ بالتوازنات المقررة دهرًا، وكذلك إقراره السريع لكل الأحكام التي تصدر ضد المناوئين لعرابي وزُمرته، فتم عزله ليحل محله داوود باشا يكن، صهر الخديوي. تزامن ذلك مع إصدار أفندينا أمرًا بعزل مأمور ضبطية المحروسة أحمد باشا الدرملي، ذي الشعبية بين أتباع عرابي، وتعيين عبد القادر باشا حلمي بدلًا منه.

من ناحيتي، توجستُ من عودة الاضطرابات، كيف سيسمحُ عرابي بعزل من اختاره هو ورفاقه بعد حصارهم للسراي؟ ولكن المفاجأة ما نقله لي المهردار، بأن ناظر الجهادية الجديد داوود باشا يكن، أخبره بأن عرابي جمع رفاقه المقربين وزاروه في بيته يهنئونه بمنصبه الجديد، ولم يغادروا إلا بعدما طلبوا منه استفتاح أعماله في السعي لدى الخديوي للتصديق على قوانين الإصلاحات العسكرية التي طالما طالبوا بها. وقتها علق المهردار لي ساخرًا بأنهم سيجدون منه ما يسرهم.

وبالفعل، لم يمر أسبوعان إلا وبدأت الصحفُ تنشر أنباء قرار ناظر الجهادية الجديد بالمنع التام لاجتماعات الضباط مع بعضهم البعض، ليلًا أو نهارًا، سواءً في مراكز الآلايات أو في المدينة أو حتى في المنازل. ومن يُضبط بذلك ولو كانا اثنين فسيجري ضبطهم بمعرفة رجال الضبطية وسجنهم.

وعلمتُ من الأميرالاي علي فهمي أنه لم يكتفِ بذلك، بل يصر على المرور بنفسه ليلًا على مراكز الآلايات لمتابعة تنفيذ أوامره. وقال لي علي فهمي بأن أمراء الآلايات يرون في ذلك إهانةً للشرف العسكري ومخالفة للقوانين العسكرية. الأميرالاي بدا كاسف البال، وحينما سألته عن السبب، رد بأن قنصل فرنسا العام (أم. دي. رنج) تم استدعاؤه بطريقة غير كريمة لباريس، والأرجح أن ذلك بسبب تفهمه ودعمه للضباط المصريين، وأردف بمرارة أنهم بذلك فقدوا داعمًا لا يُعوض.

المهردار قال لي عقب أحد الاجتماعات إن الخديوي سيعود قريبًا، وحينها سيجد ما يثلجُ صدره. لم تتجاوز تساؤلاتي نظراتي، فأردف المهردار بفخر: «مأمور الضبطية الجديد عبد القادر باشا حلمي الذي عينه الخديوي، نشر الجواسيس حول منازل الضباط من زمرة عرابي، وفي طرقاتهم، لجمع المعلومات، بل وللفتك بهم غيلة متى تيسرت الأحوالُ». ويبدو أن اتساع عيني جعل المهردار يعبس في وجهي، ثم يصرفني للعودة لمكتبي، كما لو تضايق من خطورة ما تفوَّه به قبل قليل.

***

(6)

في صباح قائظ الحرارة، وبينما كنتُ أعبر مدخل بوابة قصر عابدين، لمحني الأميرالاي علي فهمي، صرف بعض عساكر كان يُحدثهم، بدا كما لو كان يتفقدهم، ثم ناداني مستوقفًا. لم أرتح لحديثي معه، الخديوي عاد من مصيفه بالإسكندرية قبل أيام، وأظنه عاد أكثر ارتيابًا وعصبية مما ذهب، تحفُّز القصر من فئة ضباط الجيش المصريين بات واضحًا، لا أريد أن أتورط في كل ذلك! ويبدو أن علي بك حدس توتري الذي حاول امتصاصه بابتسامته الطيبة، وترحيبه الهادئ، وفوجئت به يقولُ: «أحمد عرابي وبقية الرفاق يتطلعون للتعرف عليك».

رددتُ: «التعرفُ عليَّ أنا؟!».

وبعد أن لمح ارتباكي ضحك: «ما لك يا رجل؟ كل ما في الأمر أنني حدثتهم عنك، وعن كفاءتك الظاهرة للجميع»، ومال ناحيتي باسمًا: «إمكاناتك أكبر بكثير من موقعك الوظيفي لو تلاحظ». هذه الجملة باتت تتكرر أكثر من اللازم في الفترة الأخيرة، لا أعلمُ كيف سيبدون حينما يعلمون أنني لستُ كما يظنون. وهز الرجل منكبيه قائلًا: «الدعوة مفتوحةً، يمكنك تلبيتها في أي وقت».

لا يزال التوتر جاثمًا لا يُفارقني، خاصةً حينما سحبني من مرفقي برفق جانبًا ليستطرد: «هل لديك علم بقرار داوود باشا يكن الأخير؟».

أجبتُ: «لا، وظيفتي بالأساس تحرير المحررات الرسمية الصادرة عن جناب الخديوي، مع ترجمة الصادر والوارد فيما يخص السراي».

تلفت الأميرالاي حوله وقال: «أصدر ناظر الجهادية أمرًا بنقل آلاي القلعة -الآلاى الثالث مشاة- من القاهرة إلى الإسكندرية». استغربتُ عن السبب في إخباري بذلك، ومع ذلك قُلت: «أليس هذا الذي يرأسه إبراهيم بك حيدر؟». أومأ برأسه: «وفي نفس الوقت أصدر أمرًا بانتقال آلاي الإسكندرية حكمدارية حسين بك مظهر إلى القاهرة».

قلتُ مُهونًا الأمر: «كل المسألة عملية تبديل للمواقع إذن».

حملق بي: «لا تكن غرًّا ساذجًا! ضباط الآلاي الثالث ذهبت بهم التوجساتُ والظنونُ كل مذهب، يخشون إغراقهم عبر كوبري كفر الزيات، كما جرى في عملية الاغتيال لولي العهد الأمير أحمد رفعت باشا، ابن إبراهيم باشا، والأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي قبل اثنين وعشرين عامًا، إبان عهد سعيد».

قلتُ مستغربًا: «ولكن الأمير محمد عبد الحليم حيٌّ يرزق!».

قال: «الأمير محمد نجا بأعجوبة، أما بقية مَن في القطار، ومنهم ولي العهد الأمير أحمد رفعت، قضوا غرقًا». وقال لي بنبرة حازمة: «ذلك الحادث حوَّل مسار العرش من أحمد رفعت إلى شقيقه الأصغر إسماعيل». اكتفيتُ بالصمت، لم أصارحه بعدم اقتناعي لما يلمحُ له. لذلك لا أرتاحُ للسياسة التي أول مبادئها سوء الظن، فيما يردفُ: «لقد جمع إبراهيم بك حيدر-قائد الآلاي الثالث- ضباطه، وتلا عليهم أمر ناظر الجهادية، فأعلنوا جميعًا رفضهم الإذعان له، والامتناع عن مغادرة القلعة. فكتب إبراهيم بك حيدر إلى ناظر الجهادية يخبره بذلك.

بدأتُ أتوتر، هذا يعني عودة التمرد مرةً أخرى لصفوف الجيش. وشعرتُ كما لو الأميرالاي يتوقعُ مني ردًّا معينًا، فقلتُ بشكل مباشر:

«علي بك، أقدر جدًّا مشاركتي هذه المعلومات، وإني لأفكر، كيف يمكنُ لي أن أفيدك؟».

قال بصراحة وحزم: «أحب أن أعلم موقفك، هل أنت معنا أم ضدنا؟».

قلتُ مندهشًا: «من أنتم؟ ومن الضد؟!».

أجاب بصوت أشد حزمًا: «مع الجيش المصري، أم مع الخديوي؟».

وأُرتج عليَّ الأمر!

***

لطالما شعرتُ أن الخديوي يافع جدًّا على هذه الأحداث الجسام، شابٌّ سِنُّه تسعة وعشرون عامًا يتعامل مع دهاة فطاحل غيلان مثل رياض باشا، وكوكسن، وماليت، ورسل السلطان، وغيرهم. لا أنكر تعاطفي مع هذا الرجل، لا أعلمُ، هل السببُ قربه من عمري؟ طبعًا شتان بين مقام كل منا، هو لا يكبرني سوى بسنوات قليلة، ورغم ذلك أراه عادة مهمومًا، حزينًا، متوترًا، وفي الفترة الأخيرة؛ مُهتزًّا.

وفكرتُ أن أنصح له نصح المحب لا نصح المرؤوس، أظنه سيتقبل ذلك، الرجل صموت يستمع أكثر مما يتكلم، وحتمًا سيتسعُ صدره لنُصحي. وعزمت أن أفعل في أول مقابلة تجمعني بسموِّه، وخرجت من تفكيري على سماع نشيج طفق يعلو، حتى صار ولولةً!

خرجت من الحجرة وقد سبقني فايز وداوود وزاهر، رأينا امرأةً عجوزًا ترتدي جلبابًا أبيض واسعًا جدًّا وذا أكمام واسعة، وعلى رأسها وشاح أبيض ملتف على جميع رأسها، وتتدلى من رقبتها سلاسل ذات

أحجبة من الفضة، منها ما هو مستدير، ومنها ما هو محاط بجلاجل صغيرة. وابتعدت عنَّا المرأة، فقلتُ: «من هذه؟».

ضحك داوود: «حقًّا لا تعلم؟! إنها ست عائشة، الكوديا».

رددتُ: «الكوديا!». أوضح فايز: «يا رجل! المرأة التي تُبخِّر ملابس الخديوي وتتلو عليه التمائم والعزائم».

قلتُ مندهشًا: «حتى جناب الخديوي!». رفع فايز منكبيه: «لو كنتُ ملكًا لفعلتُ مثله». تفكرتُ في قوله، فيما غمغم داوود: «تُرى ما سبب بكائها؟ لم أرها قط بهذا الشكل».

وفي المساء استدعاني خاير باشا لإحدى المهمات، انتهزتُ الفرصة وسألته عن الكوديا، فقال بغير اكتراث: «المأفونة ظنت نفسها في موقع يبيحُ لها نُصح الخديوي». رجف قلبي، رددتُ: «نصح أفندينا!».

قال: «نعم، قالت له وهي تدور حوله بالبخور إنه شاب صغير، وإن المصريين يتوسمون فيه كل خير، وعليه كسبُ قلوبهم بالعمل على تقليل المكوس وتقليل الأسعار. فما كان منه إلا أن نهرها، واستدعى زوج ابنتها الوحيدة ليُخيِّره إما يُطلِّقُ ابنتها أو يرفته من عمله. وحينما طلَّقها أمامه نفاها إلى جدة بالحجاز».

ورقبتُ خاير باشا وقد عاد لمراجعة أحد المحررات الرسمية، حمدت الله لانشغاله كي لا يلحظ ما اعتراني. شعرتُ بأذنيَّ تشعان سخونة، يا لحماقتي!

كنت على وشك النفي لغياهب النسيان، لولا علمي بما حدث للكوديا. أنا ساذج تمامًا كما أخبرني علي فهمي. وتراجعتُ نهائيًّا عن نصح الخديوي. حقًّا، ما أهول التعامل مع الكبار!

مساء ذلك اليوم، بعد المغرب، ومع عودتي من عملي، وفور صعودي للبيت، لمستُ بشهيتي جوعًا. استغربتُ ذلك، لم يكن من عادتي تناول العشاء. جربتُ تجاهل الأمر؛ لكن مع ازدياد الألم تناولتُ ثلاثة صحون خزفية صغيرة شاغرة، وضعتُ أغطيتها المقببة فوقها، ونزلتُ إلى دكان البقالة أسفل البيت. ولدهشتي لم أجد عم طلبة في وقفته المعتادة بالدكان. جلتُ بنظراتي في الداخل وأنا أناديه. الشموع المنيرة تضيءُ الدكان بالكاد.

وسمعتُ صوتًا أنثويًّا قادمًا من الداخل يطالبني بالانتظار. تتبعتُ مصدر الصوت، مع تدقيقي النظر انتبهتُ لمرآة متوسطة الحجم في زاوية الدكان. المدهش، أنني رأيتُ داخلها انعكاسًا لفتاة دون العشرين، ذات شعر أسود مسترسل ناعم يصل لجانبي خصرها، مرتديةً ثوبًا رمادي اللون من قماش بادي الخشونة. كانت تضع وشاحًا فوق رأسها، ثُم أسرعت إليَّ. شعرتُ بالارتباك فور وقوفها أمامي، رغم أن المسافة بيننا لم تكن لتزيد عن متر؛ حيثُ لم يكن يفصلنا سوى طاولة خشبية مرتفعة تسد مدخل الدكان، إلا أن مرآها أربكني آنيًّا. عيناها الواسعتان، رموشها الطويلة، بشرتها القمحية فائقة الصفاء، نهداها النافران، كل ذلك جعلني أزوغُ بنظراتي بعيدًا وأنا أقولُ: «عم طلبة، أين هو؟».

قالتُ: «أنا ابنته، حُسنية، هو متوعك اليوم. أي خدمة يا سيدنا الأفندي؟». صوتها ناعم رقيق ذو دفء مخدر.

نهلتُ منها نظرات سريعةً، ثم نظرتُ بعيدًا: «أريد رطل جبنة قديمة، ورطل عسل أسود». أسرعتْ بتلبية الطلب، وهي تقولُ: «إن أردت رأيي، جرب العسل الأسود مع الطحينة الحمراء، ينتجان مزيجًا ذا مذاق حلو جدًّا». قلتُ مرتبكًا وأنا أخشى أن تنتبه لمسار نظراتي:

«أعرفُ، أنا لم أطلب العسل الأسود سوى لمزجه مع الطحينة الحمراء؛ لكني نسيتُ طلبها». عزز قولي إشارتي للصحن الثالث فوق الطاولة. واستدركتُ: «أريد رطلًا من فضلك». صبَّته سريعًا حيثُ أشرتُ. وضعتُ فوقهم الغطاء الفخاري. نقدتها ثمنهم بعدما لاحظت أنها أجرت الحساب بدقة بالغة. وحينما شاركتها ملاحظتي، قالت: «بابا أصر على تعليمي بنفسه».

قُلت: «عم طلبة؟!».

قالت: «بابا علمني الحساب، أما القراءة والكتابة فزوجة الشيخ حمدان، إمام المسجد، هي من تعطَّفت بذلك، بعدما صارح زوجها برجائه في تعلمي القراءة والكتابة».

قلتُ مندهشًا: «أي وعي هذا لدى أبيك؟!». ابتسمت ابتسامةً وددتُ لو يتوقفُ الزمانُ لأرنو لها إلى الأبد، وقالت: «لعل السبب أنني ابنته الوحيدة».

ولم يكن من اللائق أن أماطل في الوقوف أكثر من ذلك، خاصةً لو انتبه لذلك فتوة العطفة. حملتُ صحوني وابتعدتُ، وعقلي يغلي عن شيء آخر أحتاجه لأعود وأبتاعه من البقالة.

وحينما صعدتُ للبيت ووضعتُ الصحون فوق الطاولة، جلستُ ساهمًا. شتان الفارق بينها وبين آرلين؛ لكن مع ذلك، أثر حسنية بي كأثر النار على الفحم.

وتملكت فكرة واحدة خواطري، آه لو يطول توعك عم طلبة بعض الشيء!

***

(7)

كنت لدى جناب الخديوي مساء الثامن من سبتمبر، أقدم له عدة أوراق، عندما استأذن الحاجب ليدخل ناظر الجهادية داوود باشا يكن، ورئيس مجلس النظار مصطفى رياض. لمحتُ نظرات الخديوي المتسائلة.

دخل الرجلان، وبادر صهره داوود باشا بتقديم ورقة لأفندينا، فضها، ثم اكفهر وجهه: «مظاهرة أخرى؟!»، ثم رمى الورقة جانبًا وصاح: «كنا نظن مطالب ذلك الضابط ورفاقه في حدود إصلاح أمور الجيش، فقبلنا على مضض. لكن أن يتمادوا وتتملكهم الجرأة للظن بأنفسهم القدرة على اقتراح إجراءات لإصلاح أمور البلاد، فهذا انعدامُ أدب، ووقاحة».

قال رياض باشا بنبرة متوترة: «لقد علمتُ أنه أرسل إلى قناصل الدول، يؤكد لهم أن لا خوف البتة من تلك المظاهرة المُزمعة على رعاياهم، لأنها مقتصرة الغاية على أحوال البلاد الداخلية». امتقع وجه جناب الخديوي: «يخاطب قناصل الدول الأوروبية دون إذن مني؟!». وضرب سطح مكتبه بقوة: «يجب إجهاضُ هذه المظاهرة»!

وصاح مُناديًا ياوره الخاص، وسرعان ما أتى طه باشا لطفي، فأمره من فوره بالذهاب إلى عرابي ليقنعه بالعدول عن المسيرة. امتثل الرجل وخرج مُسرعًا. في الوقت الذي دلف فيه للقاعة المهردار خاير باشا، والتوتر متفجر في ملامحه، وبادر الخديوي: «ثمة اجتماع جرى قبل ساعات، جمع عرابي وضباطه، ورؤساء الحزب الوطني، وكان قد تجمعت

لديهم عرائضُ من الشعب تطالب بعزل وزارة رياض، ودعوة مجلس نواب على أساس دستوري. واتفق الزعماءُ على أن يقوم الجيشُ بمسيرة سلمية تأييدًا لمطالب الأمة. فيما تشارك الضباط شكاواهم عن كثرة الدسائس وحالات التحريض والتمرد لجنود بعض الآلايات، وما كان من إقالة البارودي ومجيء يكن، ثم استيائهم من الحكومة التي تماطل في تنفيذ المطالب الوطنية، وعدم التصديق على القوانين العسكرية التي تم تنظيمها. قالوا إن الحكومة تماطل في عدم الشروع في تأليف مجلس النواب الذي وعد جناب الخديوي بإنشائه. باختصار، أبدوا تهيجهم من عدم الوفاء بالمطالب التي طالبوا بها في ساحة عابدين قبل سبعة أشهر».

وزاغت نظراته وهو يُردف: «لذا قرروا القيام بمظاهرة وطنية شاملة للعسكرية والأهالي الذين أنابوهم عنهم في المجادلة عن حقوقهم، وتأمينهم على الأنفس والأموال والأعراض».

ساد صمت ثقيل في القاعة، وعاجلهم رئيس الديوان: «ليس هذا كل شيء، لقد أرسل لنا عيوننا في فن الإشارة العسكرية، فحوى برقيات أرسلها عرابي إلى كل فرق الجيش المرابطة بالقاهرة؛ البيادة، والسواري، والطوبجية، للاستعداد فعلًا للحضور إلى ميدان عابدين في الساعة العاشرة ليوم الجمعة الموافق 9 سبتمبر سنة 1881 ميلادية ليعرض طلبات عادلةً على الحضرة الخديوية تتعلقُ بإصلاح البلاد وضمان مستقبلها».

«الملعون يسبقنا دائمًا بخطوات!»، قال الخديوي وهو يتهاوى فوق كرسيه.

تمتم داوود باشا يكن: «هل يخططون لمظاهرة عسكرية لإملاء إرادتهم على أفندينا مرة أخرى؟!».

تنحنح رياض باشا، وقال بكياسة: «أرى أن نبادر نحن كذلك، ولا ننتظر رد جناب ضابط فلاح».

رفع إليه الخديوي نظرات متسائلةً، ثم داعب ذقنه مفكرًا، لينهض آمرًا: «داوود باشا، ارجع لنظارتك، لا تغادرها لتكون على علم بكل ما يجري. مصطفى باشا، خاير باشا، ائتيا معي، سأذهب إلى مركز آلالاي قشلاق عابدين لأقنعهم بنفسي».

لملمتُ أوراقي لأعود لقلم المعية، ولكن خاير باشا اقترب مني وقال بنبرة مفعمة بالتوتر: «احضر معنا لتسجل كل ما يجري، إن التاريخ يُسجل الآن».

ومسَّت كلمته وترًا حساسًا في نفسي، آه لو يعلمُ أنني أسجل كل شيء فعلًا سلفًا!

وهكذا ذهبتُ وراءهم إلى قشلاق عابدين، الذي بدا كما لو فوجئ برؤية الخديوي، الذي جمع الضباط والجند، وخاطبهم برفق ولين: «أنتم أولادي وحرسي الخصوصي، فلا تتبعون التعصب الذميم، ولا تقتدون بأعمال الآلايات الأخرى».

فأعلن الأميرالاي علي بك فهمي قائد الآلاي بالخضوع والبقاء على ولائه، وتبعه بقية الجند والضباط في الإجابة بالسمع والطاعة. ولحق بنا طه باشا لطفي ياور الخديوي، ممتقع الوجه. كان من السهل استنتاجُ إخفاقه، وهو ما أكده حينما انتحى بالخديوي: «لم يزد عرابي عن القول إنها مظاهرة عادلة لا بد منها لضمانة حرية الأمة وسعادتها».

وعُدنا للسراي، وهناك وجدنا السير أوكلاند كولڤن المراقب المالي الإنجليزي في انتظار الخديوي، الذي شكره قائلًا: «كل العرفان لمبادرتكم بتلبية الدعوة». وبادره الخديوي طالبًا النصيحة، عارضًا عليه كل المستجدات، فكان رد المراقب المالي الإنجليزي: «معلوماتنا أن لك في القاهرة فرقتين مواليتين. إن دعوتهما إلى قصرك، مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الحربي بالسراي، فسيكون بوسعك القبضُ على عرابي متى اقترب».

قال الخديوي مهمومًا: «لدى عرابي المدفعية والفرسان، وربما أطلقوا النار». لوح كولڤن بيده: «لن يجرؤوا على ذلك، وإن فعلوا فستكون مجزرة لن يخرج منها عرابي حيًّا».

لم يبدُ على جناب الخديوي الاقتناع، فيما بدا على رياض باشا الانزعاج الشديد من رأي المراقب المالي الإنجليزي. أنا كذلك توترت، لم أتخيل أن تشهد ساحة عابدين معركةً عسكريةً بين فرق الجيش المصرية بعضها ضد بعض، وفقًا لنصيحة البريطاني.

ورغم ذلك استدعى الخديوي الأميرالاي علي بك فهمي رئيس الحرس، الذي جاء مُسرعًا، فأمره بالدخول إلى القصر بفرقته والتحصن به. وما لبث أن أنهى الخديوي الاجتماع، على أن يُستكمل باكرًا. وعند الباب استوقفتُ المهردار هامسًا: «غدًا الجمعة، إجازة لنا، أليس كذلك؟». رمقني خاير باشا بنظرة مستنكرة، قال: «في هذه الظروف؟!»، وزعق بي فيما يغادرني: «الإجازاتُ ممنوعة على الجميع، حتى إشعار آخر».

وهكذا انتهت الليلة، ليتبدد أملي في إجازة أسبوعية أستحقها، ويقضي الجميع ليلتهم على وعد بعاصفة جديدة، أو سراب جديد.

***

الصباح التالي، كنت في قلم المعية منهمكًا في تبييض بعض الأوراق، حينما وجدت فايز فوق رأسي: «يا أخي! ألا تكف عن العمل؟! الوضع مشتعل حولك».

رفعت رأسي إليه، زميلاي العزيزان اللذان لا هم لهما سوى الثرثرة، ووجدتُ داوود عند أذني: «ألم تسمع بجولات جناب الخديوي، والتي بدأت مع بزوغ الشمس؟». وضعتُ القلم جانبًا: «ما أعلمه أن الخديوي بالسراي».

هز فايز رأسه نفيًا: «غير صحيح، الخديوي لم يأتِ بعد، وبوسعك التأكد إن شئت».

ساورتني الحيرة، فيما عاد داوود لهوايته في الوسوسة بأذني: «المتداول هنا في القصر، أن مع تباشير الصباح الأولى، طاف الخديوي بنفسه على الآلايات في القلعة، والعباسية، يحاول استرضاءها لمنعها عن الحضور. تخيل أن الآلايات رفضت طاعته؟!».

وجذب فايز ذقني لأنظر إليه: «لقد بلغت صدمة الخديوي مما رآه، أن أمسك بتلابيب قائد فرق القلعة فودة حسن، فكان أن وضع العساكر الأسنَّة في بنادقهم وتجمهروا حول الخديوي مهددين، حتى أطلق قائدهم! تخيل؟!».

خفق قلبي، كم أشفق على ما يلاقيه أفندينا من قلة قيمة. وقُلت مُتوترًا: «عند مجيئي صباح اليوم كانت فوهاتُ البنادق والمدفعية تطل من النوافذ والشرفات العليا بالقصر!». أومأ زميلاي برأسيهما بحماسة، وقال فايز: «قد حضر منذُ الصباح كثير من قناصل الدول، ووجهاءُ المحروسة، بانتظار جناب الخديوي».

ورويدًا رويدًا بدأنا ننتبه لهدير متصاعد، كأننا في سوق شعبي، هرعنا للنوافذ، فإذا بوحدات من الجيش تحضر تباعًا في حركتها العسكرية لتتخذ مواقعها في أنحاء الميدان. داخل جناح التشريفات المطل على الميدان، رأينا فرقًا من الجيش قادمةً من جهة شارع عابدين. هرولتُ مُحاولًا الخروج من السراي لأتحقق أكثر، رأيتُ خفراء على أبواب القصر كأنما يحرسونه، ذهبتُ إليهم أسألهم، فأجابوا بأن الأميرالاي أحمد عرابي أمرهم بالتزام أبواب السراي ومنع الدخول والخروج منها، لأي كان!

لم أكن خبيرا كفايةً بالقصر، ولكن خبرتي القليلة مكنتني من الدوران والخروج من باب صغير تغشاه الأكمة، لأخرج عبر الباب الغربي الموصل إلى الميدان، وهناك، جف حلقي ذهولًا. رأيتُ الميدان غاصًّا بالجُند والخيل والمدافع، اصطفت آلايات البيادة والسواري والطوبجية في أماكن بالميدان كأنها محددة سلفًا لكل من هذه الأسلحة. الميدان محتل تمامًا بواسطة جنود يحيطون به، ويبعدون الناس إلى مسافة بعيدة، فيما كانت حوافُ ساحة عابدين غاصةً بجماهير المتفرجين من أجانب ومصريين. الخلقُ كثير من العامة وهم في رهبة وخوف، ونوافذُ البيوت المجاورة للقصر وأسطحتها ملأى بالنساء المتفرجات وأطفالهن فوق أكتافهن. حاولتُ العودة للقصر، فرأيتُ الأميرالاي علي فهمي يقبل بفرقته خارجًا من القصر، لمحني فأبطأ من مشيته العسكرية، بادرته مندهشًا: «ألم توافقوا على أمر الخديوي ببقاء قواتك بالداخل؟».

قال بابتسامة باهتة: «سأقول لك ما قلته لعرابي قبل قليل؛ السياسة خداع». ومضى بفرقته لينضم إلى عرابي بالميدان. خفق قلبي بقوة، الآن أصبح القصر خاليًا من أي من عناصر الحماية. عدتُ للدوران حول

القصر للعودة عبر الباب الصغير الذي خرجتُ منه، كان أمام الجناح الذي بالجانب القبلي من السراي الذي لم ينتبه إليه عرابي بعد. فإذا بالخديوي والأميركي ستون باشا رئيس أركان الجيش المصري، في نقاش ما، فيما حولهما السير أوكلاند كولفن المراقب المالي، ومستر كوكسن قنصل إنجلترا في الإسكندرية نائبًا عن معتمد إنجلترا، وأحمد شفيق باشا، أحد كبار الموظفين بالديوان الخديوي، وعدة ضباط مصريين وأوروبيين من الحرس الخصوصي للخديوي، وخاير باشا، الذي ما إن لمحني حتى أشار إليَّ لأقترب. هرعتُ إليه، وبادرته بالسؤال لأطمئن عليهم، فأجاب واجمًا: «حاولنا الوصول لعرابي في العباسية قبل التحرك بكتيبته؛ لكنه كان قد سبقنا بالتحرك إلى السراي، فوجدنا المكان محاصرًا بالجند، فاتخذ موكب الخديوي تحويلةً طويلةً، حتى وصلنا إلى هنا».

واقترب خاير باشا من الخديوي، فأتبعتُه، لأسمع كولفن يُخاطب أفندينا بصرامة لافتة: «من واقع مُعايشتي لأجواء مُشابهة وقعت في الهند، أصر على نصحك بعدم البقاء في القصر بأية حال من الأحوال. عليك النزول إلى ميدان عابدين. ارسم على وجهك الثقة والحزم، وعندما يمثُل عرابي أمامك، مُره أن يُعطيك سيفه، وأن يأمُر الجُند بالانصراف. ثم اتجه بعد ذلك إلى أرجاء الميدان، ومر كل قائد فيها -باعتبارك الخديوي- بالانصراف».

بدا على أفندينا الإصغاء والاقتناع.

وبالفعل نزلنا معًا إلى الميدان، ومن خلفنا على بعد مسافة كبيرة أربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين برفقة ستون باشا، وواحد أو اثنان من الضباط الأوروبيين.

تقدم الخديوي في حزم إلى الميدان، ومعه اثنان من حرسه الخصوصي، أحدهما أظُنه حسن صادق، وكان ضخم الجسم مُنتفخ العضلات. اتجه أفندينا بحرسه في اتجاه مجموعة صغيرة من الضباط وبعض الأفراد، بينهم من يمتطي حصانًا، وعند مُنتصف الميدان أمر الخديوي بإحضار عرابي. تساءلت في نفسي: هل يقبل الحُضور؟ ولكني رأيته مُقبلًا راكبًا على جواده سالًّا سيفه، ومن حوله ضُباط السواري وكأنهم حرسه الخاص. الخديوي بادر عرابي آمرًا بصلف غير خافٍ: «أغمد سيفك أمام رب البلاد، وانزل عن جوادك».

حبست أنفاسي، فإذا عرابي يترجل عن حصانه، ويتقدم نحو الخديوي ماشيًا على قدميه، مع حرس كثيف شاهرين حراب بنادقهم، لم يمنعهم ذلك من تحية أفندينا، ولكن الخديوي قال بنفس الصلف: «أبعد عنك ضُباطك».

أشار إليهم عرابي لينفذوا الأمر، ثم خاطبه أفندينا بقوله: «ألم أكُ سيدك ومولاك».

عرابي: «بلى».

الخديوي: «ألستُ أنا الذي رقيتك إلى رتبة أميرالاي؟».

صمت عرابي لحظة، ثم أجاب: «بلى؛ بعد ترقية أربعمائة من قبلي». فقال الخديوي: «ما لُكم نبذتم طاعتي وعصيتم أمري؟». قال عرابي: «حاشا يا مولاي، نحن للعرش مُخلصون». الخديوي: «ما هي أسباب حُضورك بالجيش إلى هنا؟».

عرابي: «لنوال طلبات عادلة».

الخديوي: «وما هذه الطلبات؟».

عرابي: «إسقاط الوزارة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبي، وإبلاغ الجيش إلى العدد المُعين في الفرمانات السلطانية، والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها».

الخديوي: «ليس من نطاق وظيفتك العسكرية كل هذه الطلبات». فقال عرابي بصوته الرخيم: «إنما جئنا إلى هنا نيابة عن شعب مصر، لأجل هذه الطلبات».

لاحظتُ زيغ نظرات الخديوي، أطرق، ثم اختلس نظرات من مُرافقيه. ليسود صمت ثقيل، ثم أخيرًا رفع رأسه وقال: «انصرفوا. وسأبذل جُهد الاستطاعة في تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة». فأجاب عرابي: «إني وإخواني وجميع ضُباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يا مولاي. ولكنا لا نبرح من هذا الموقف حتى يتم إنجاز ما طلبناه». وأتبع قوله بتغير وجهه وتقطيب حاجبيه. فلمحتُ توتر حاشية أفندينا، وبدا كما لو ارتبك الخديوي، فلم يُلقنه كولفن بأكثر من ذلك، ويبدو أن هذا ما انتبه إليه أيضًا المراقب المالي الإنجليزي، إذ اقترب من الخديوي وهمس له بكلمات ما، تبدد بعدها ارتباك الخديوي، واقترب أحمد شفيق باشا ليتبادل ثلاثتهم الهمس، ثم خاطب أحمد شفيق باشا عرابي قائلًا: «أميرالاي أحمد عرابي، ليس من اللائق أن يُناقش أفندينا مسائل من هذا القبيل مع من هم بمثل رتبتك». وشد الخديوي قامته وقال لعرابي بلهجة حاسمة: «سأذهب للسراي، وسيُكون قُنصُلا إنجلترا والنمسا رسلًا بيننا». ودار على عقبيه مُتجهًا للقصر دون أن ينتظر ردًّا. وأقبل كُوكسن ومعه تُرجُمان، فأخذ يُناقش عرابي، والذي انضم إليه الأميرالاي عبد العال بك حلمي، في المطالب المقدمة.

في هذه اللحظة علا الضجيج من الجماهير المتزايدة حولنا، وبالكاد سمعت مستر كُوكسن يُجادل عرابي: «مطالبكم في غير محلها، الجيش لا يحق له لا إسقاط الوزارة، ولا المطالبة بمجلس نيابي. تلك قرارات حصرية للخديوي. أما مطلب زيادة عدد أفراد الجيش، فحاكمكم السابق إسماعيل استدان بقدر شعر رأسه، وللدائنين الأوروبيين حُقوق تحُول دون تحميل مالية البلاد بتكاليف إضافية».

فقال عرابي وقد لانت نبرته: «لا نمثل أنفسنا، وإنما نمثل شعب مصر. ولقد أرسلنا عريضة بنفس هذه المطالب إلى السلطان العثماني، وقَّع عليها أعيان وذوات مصر، من كل الأطياف والأديان، لنحيطه علمًا بما يجري». ومال إليه قائلًا بنبرة ذات مغزى: «ولنغلق الطريق أمام الدس والمكايد والشائعات».

قطب كوكسن فيما يترجمُ له الترجمان، ثم سأله بنبرة صارمة: «وماذا إذا لم تجب مطالبك؟». فصمت عرابي برهةً ثم قال: «حينها يكون لكل مقام مقال». فقال كوكسن: «لم أفهم»!

أشار عرابي ناحية القصر: «اسألهم إذن».

بدا التبرمُ على وجه القنصل الإنجليزي، وقال إنه ذاهب إلى الخديوي للتشاور.

وطفق يغدو ويروح. ينقل موافقته على إسقاط وزارة رياض، وتسمية حيدر باشا مكانه، ولكن عرابي تشاور مع ضباطه ورفضوا، فتصاعد بين الناس اسم محمد شريف، أبرز مؤسسي الحزب الوطني، وذي التوجه الدستوري الواضح، فعاد كوكسن بعد حين يُعلن إلى عرابي قبول الخديوي المبدئي إسناد رئاسة النظارة إلى محمد شريف. فتصاعدت

الهتافاتُ للضابط عرابي، ثم تغيرت سريعًا إلى الخديوي، فسارع كوكسن بالتوضيح: «أما بقية مطالبكم فسينظر فيها سموه بعين العقل والروية، فبعضُ مطالبكم لا بد فيها من مشاورة السلطان العثماني».

تبادل عرابي النظر إلى ضباطه، كان الإرهاقُ والرضا باديًا على معظمهم، فدنوا من بعضهم. فلم أعرف فحوى ما يدور بينهم. إلا أن عرابي عاد لكوكسن وقال: «نثقُ في وساطتكم، وكلمة سمو الخديوي»، وأشار للميدان خلفه: «وعلى كل حال، فهذا المكان موجود»، وأردف بثقة توغر الصدور: «وإن عدتم، عدنا».

***

بعد عودة الآلايات لثكناتها، صار عرابي محور أحاديث المحروسة، هذا الفلاح الأصيل الذي ترقى في الجندية حتى فرض إرادته على حاكم مصر، وليس مرةً واحدةً، بل مرتين، وفي عام واحد!

كان لافتًا للنظر تلك الليلة رؤية المصريين وهم يعانقون بعضهم بعضًا في الشوارع بغير سابق معرفة، الزغاريد تدوي في الشرفات، أصحاب المقاهي وزعوا الشربات مجانًا على الرواد. مانشيتات الصحف بحجم عريض تصف حجم الإنجاز؛ أخيرًا بات للمصريين رأي في إدارة وطنهم. بالأجواء استبشار عام، ثمة يقين راسخ، وتفاؤل يقيني تنطقُ به وجوه الجميع؛ أن مصر أخيرًا ستغدو أفضل، وكما يريد المصريون.

***

(8)

جناب الخديوي لم يعد كما كان.

كُنت أُحرر محضرًا للقاء تم بين الخديوي والقنصل الروسي الذي غادر للتو، عندما دخل على أفندينا خاير باشا، وقال له ما تتناقله الصحف والألسن عن عرابي، وكيف صار بيتُه قِبلة الوجهاء والمظلومين على السواء، الكل يقصده. بدا كما لو تحول لرمز. وقال الخديوي بقسمات كالحة: «لقد حاصروا السراي مرتين في سبعة أشهر، نستحق الهلاك إن سمحنا بالثالثة»!

غمغم خاير باشا: «رجلُنا البكباشي ألفي أفندي يُوسف، للأسف أوقعوا به، بعد أن شكوا بنقل أخبار اجتماعاتهم».

انتبهتُ للعبارة؛ البكباشي؟! ترى هل هو البكباشي ذاتُه الذي قام بنقل فحوى اجتماعات الضباط مُنتصف يناير الماضي؟

وقال الخديوي: «دائمًا يسبقوننا بخطوات، يجب أن ينعكس هذا الوضع».

قال خاير باشا: «والأميرالاي علي بك فهمي، بعد سحبه لحرس القصر وانضمامه لعرابي في الميدان، ذلك يُلغي أية نية مُستقبلية للاعتماد عليه». كُنت أستمع لهما فيما أكتُب، فجأة شعرت كأنما ثمة نظرات مُصوبة نحوي، رفعت رأسي عن الورق، فإذا الخديوي يُحدق بي!

ارتبكتُ، فيما قال أفندينا: «الحل في مظهر».

ضاقت حدقتا خاير باشا مُصغيًا، فيما يُردف الخديوي: «مظهر رجُل مدني، وبغض النظر عن ملامحه الأجنبية، فإنه ابن بلد، غير مُثير للشك»، وصمت برهة، ثم قال: «سينضم لعرابي باعتباره من مُريديه، وهكذا يُعلمنا بكل خُطواته وخططه».

بدا كما لو خاير باشا يزدرد ريقه، قبل أن يقُول: «فكرة خلاقة سموك، غير أنهم قد يرتابون به لصلته بالقصر».

نهض الخديوي وقد بدت عليه الحماسة: «ذلك نفسه هو الطعم الذي سيقنعهم به»، وصمت لحظة ثم أردف: «سيتظاهر مظهر بإخبارهم بعض الأخبار التافهة غير المهمة والتي سنلقنه إياها، ليثبت ولاءه للضباط. وبالمقابل سيكتسب ثقتهم، ويقربونه منهم».

افترَّ ثغر المهردار عن ابتسامة راضية. كُنت مُرتاحًا جدًّا والرجلان يتناولان مصيري دون الاكتراث بي بأي حال، أشعرني هذا بالفخر ومدى ثقلي الشخصي! وأشار لي الخديوي بلهجة قاطعة: «مظهر، مُنذ الغد، ستكُون عيننا على عرابي وزمرته، ستكُون رجُلنا بينهم».

جناب الخديوي يخصني بحديثه، نهضت فورًا مُطرقًا برأسي في إذعان.

ها هي مرحلة جديدة على وشك البدء، الله وحده يعلم، إلى ماذا ستُفضي؟

***

لم يكن الذهاب لبيت عرابي صعبًا، يكفي الاستدلال بالزحام الشديد حوله كأنه مقام أو مولد، الجميع ينتظر لتقديم مظلمة أو شكاية. ومعهم -جنبًا إلى جنب- أعيان المحروسة ومثقفوها، يتدفقون على بيت الضابط الذي لطالما أعلن في كل مكان اعتزازه بأنه فلاح ابن فلاح. كان جليًّا فرح

الجميع بمسلك عرابي الثوري ورفاقه: المسلمين وشيوخهم، البطريرك والمسيحيين، اليهود وأحبارهم؛ خصوصًا حول نقطة الإصلاح الدستوري.

لم تكن هذه رؤيتي. ولكن هكذا كان يرى أغلب الناس، من أراهم في المقاهي، في الأسواق، حتى في القصر.

شققتُ طريقي وسط الزحام ويدي فوق طربوشي، لا أعلمُ بأي صفة أطلب مجالسة أمل الأمة؟ هل أقول إنني أحد مريديه؟ الجميع كذلك، وما أكثرهم! كم وددتُ لو يكون خاير باشا أو جناب الخديوي حاضرًا ليرى الوضع على الطبيعة.

«مظهر أفندي؟ غير معقول!».

بحثتُ عن مصدر الصوت ذي النبرة المألوفة، وإذا بيد قوية تجتذب كتفي لتخرجني من بين الناس، لم أكد أرى وجهه حتى علمت أنه منقذي.

«لم أتوقع رؤيتك هنا، رغم أنني تمنيتها»، قال مُحدثي علي فهمي باسمًا. بدا وسيمًا نوعًا في غير زيه العسكري. شعرتُ بالارتياح لرؤيته، وكذلك بشيء من القلق، ترى هل يرتاب أنني مُرسل من الخديوي؟ ووجدتُ لساني ينطلقُ: «الجميع يتحدثُ عن البطل أحمد عرابي، ورفاقه، وكيف لأول مرة منذُ قرون، بات حاضر مصر يُسطر بيد أبنائها، فأردت أن أرى كيف يجري هذا العمل الجلل». أنهيتُ عبارتي فإذا بعينَي علي بك تلتمعان. ترى هل بالغتُ في الإطراء؟ فاستدركتُ: «سمعتُ أن مجلسه يضم خيرة مثقفي الأمة، العالم الفلكي والرياضي ذائع الصيت محمود أحمد حمدي، والشيخ الجليل محمد عبده، والصحفي والخطيب المفوه عبد

الله النديم»، وقُلت بتردد: «تُرى هل يتسع هذا المجلس القيم لوجود العبد لله؟».

ابتسم علي بك وربت على منكبي: «الجميع يحضر مجلسنا، من الناظر للخفير»، وغمز لي: «وبلا وساطة».

ودخل بي البيت ليتقدمني إلى ردهة جانبية، أفضت إلى صالة واسعة، حفت بالكراسي والمقاعد والأرائك. وابتعد عني بينما يقول ضاحكًا: «اظفر بمقعد حالًا، بعد دقائق لن تجد موضعًا لقدم». تخيرت أقرب مقعد، ولبثتُ برهة أتفقد الوجوه حولي، بعد هنيهة شعرتُ بنوع من الدفء والتلقائية، ربما السبب وجود المصريين بكافة أطيافهم في مكان واحد، ما أشاع جوًّا حميميًّا مُفعمًا بالألفة. كان الناس قد افترشوا الأرض في هذه اللحظة، ثم خفتت الأصواتُ مع تقدم بعض الرجال إلى منضدة مستطيلة تتوسطُ الصالة، استطعتُ تمييز بعضهم. هذا الشاب الثلاثيني الوقور ذو العمامة والزي الأزهري لعله الشيخ محمد عبده، وهذا الأميرالاي عبد العال بك حلمي، وجواره علي بك فهمي، أما هذا الوجيه الطويل عريض الظهر، فقد رأيته من قبل بالقصر وبباحة عابدين، إنه الأميرالاي أحمد عرابي. وفوجئت بعد كثير من العبارات المجاملة -ولكنها بدت لي طبيعيةً دافئةً خاليةً من النفاق- أن الحوار مضى في أغلبه يُعبر عن الفرحة لتفهُّم الخديوي وعدم معاندته، وفي نفس الوقت التخوف من أثر مُضي الوقت في احتمالية فتور حماسته وتملصه مما وعد به. وسرعان ما تبارى الحاضرون في الإنشاد وإلقاء الأشعار الوطنية الحماسية. وبعد ساعات مضت كدقائق، وفي طريق عودتي مستقلا عربةً، جعلت أتأمل الحوذي الجالس أمامي، فيما أفكر بما سأقوله باكرًا للخديوي...

لم أجد أسرارًا، ولكنني وجدتُ حُبًّا مُتدفقًا عظيمًا. فهل تخبو حماسة أفندينا وينجدني من هذه المهمة؟

❋❋❋

على النقيض مما توقعت، ما إن سمع مني الخديوي توفيق حتى احتقن وجهه، وبدا عليه عدم الرضا، ثم صرفني مستاء يشيعني بأمر صارم: «تابع الوجود بينهم، لا تفوت جلسة من جلساتهم».

وقُرب العصر كنتُ في مكتب رئيس الديوان ليوقِّع بعض الأوراق، وسألته بطريقة عابرة عن سبب استياء الخديوي، فتغير وجهه هو الآخر: «ألم تفهم؟ الخديوي يغا... أقصد يتوجس من شعبية عرابي المتزايدة. المفترض أن يكون جل حب الناس له، لا لأحد رعاياه».

كتمت دهشتي في أعماقي، لا أظنني سأتمكن أبدًا من فهم عقلية رجال الحكم، وانشغلتُ بالكثير من التدوين حتى نهاية اليوم، وعادت آرلين تطرق مخيلتي كعادتي كلما تأزمت بي الأمور. وهكذا عزمت على محاولة لقائها، هذا إن سمحت الظروف.

❋❋❋

بدأ يومي بداية حافلة، تم استدعائي فور حضوري إلى جناب الخديوي، كانت تنتظرني مهمة تدوين جلسة مباحثات رسمية مع المراقب العام الإنجليزي إدوارد ماليت.

شددت جذعي في جلستي المُتأهبة، وأمامي المحبرة ورزمة من الأوراق. جعلتُ أتأكد من بقية أدواتي عندما دخل الحاجب مُعلنًا أن محمد باشا شريف في الخارج يطلب مقابلة معالي الخديوي. أشار له الخديوي بما معناه أن ينتظر قليلًا، بيد أن المراقب الإنجليزي قال: «إن

جاز لي إبداءُ الرأي سُموك، أرجو أن تسمح لرئيس النظار الجديد بالدخول».

قال الخديوي: «لديك مكتب في مبنى رئاسة النظار كمستشار للوزراء، فلماذا تبدو وكأنك تفتقد وجوده؟».

رد ماليت باللياقة الإنجليزية التقليدية: «هذه فرصة لاختبار نتيجة دروسي في اللغة العربية، أحب أن أسمع من رئيس النظار الجديد في حضور سُموك».

وأسرع الخديوي بالموافقة، وأشار للحاجب بدخول محمد باشا شريف. ثوانٍ وأقبل رئيس النظار الجديد، خطواته بادية الهمة، قدَّرت عمر الرجل بمنتصف العقد الخامس، فهو أشيب الشعر، ذو شارب مبروم ولحية لا تتجاوز بشرته، مشذبة بعناية، الرجل ذو عينين نفاذتين، حملق بنا ثم حيا الخديوي الذي بادره بعد أن أشار إليه بالجلوس: «اليومُ الخامس عشر من سبتمبر. في يومك الثاني بالنظارة تأتي للقائنا، أراك بادي الهمة كالعادة». فيما قال المراقب الإنجليزي: «مستر محمد شريف، كنت ناظرًا للخارجية عام 1877، إبان حكم الخديوي إسماعيل، أعتقد كان ذلك في الرابع من أغسطس، عندما وقَّعت عن الحكومة المصرية معاهدة إبطال تجارة الرقيق»، وشمخ بأنفه: «كان ذلك موقع تقدير كامل من التاج البريطاني».

أحنى الرجل رأسه دلالة الشكر، ثم قال بجدية: «لدينا جدول أعمال مُتخم، ونُظَّاري الستة أمامهم عمل كثير».

قال الخديوي: «ما دمتَ بهذه الحماسة، فلماذا ترددتَ أربعة أيام كاملة

قبل قبول النظارة؟». صمتَ محمد باشا للحظات، وكأنما يقلِّب أمرًا ما في رأسه، ثم قال: «أتفقُ مع الأهداف النبيلة للضباط، ولكني لم أكن راضيًا عن الوسيلة التي وصلوا بها إلى هذه الأهداف، ناهيك من أنني لن أقبل أن أكون ألعوبةً في يد العسكريين».

استنار وجه الخديوي، فيما لمعت عينا المراقب الإنجليزي، وأردف محمد باشا: «لا أرتاحُ لتدخل العسكريين في السياسة، ذلك ليس ميدانهم، مهما كانت المبررات».

تساءل الخديوي: «وما الذي دفعك للقبول إذن؟». قال محمد باشا: «لم أقبل إلا بعدما أكد لي الأميرالاي عرابي أنهم حققوا هدفهم، ولن يعاودوا التدخل في شؤون الحكومة».

تدخل المراقب الإنجليزي في الحوار، سائلًا بهدوء: «وتظنهم سيلتزمون؟».

أجاب مُحمد باشا بتلقائية: «إن حادوا عن كلمتهم، فاستقالتي موجودة».

أومأ الخديوي برأسه: «لن تكون مرَّتك الأولى، قد سبق وفعلتها عام 1878 عندما رفضتَ المثول أمام لجنة التحقيق الأوروبية، بسبب خلاف بشأن تسوية الدَّين العام».

شدَّ رئيس النظار قامته: «ما كان ليُحقَّق مع وزير مصري من قبل أجانب، وعلى أرض مصرية. فاستقلت حفاظًا على كرامتي وكرامة المنصب».

قال المراقب الإنجليزي بنبرة ارتبتُ في سخريتها: «ولكنك كنت

الوزير المصري الوحيد الذي آثر الاستقالة». زوى رئيس النظار حاجبيه. شعرتُ بسُحب التوتر تغيم على القاعة، ولكن الخديوي قال بنبرة لينة: «فيم جئتَ تعرضُ عليَّ؟».

قال شريف باشا: «جئتُ بصدد القانون الأساسي الذي سوف يُحدد سلطة مجلس النواب في البرلمان الموعود. وكذلك بشأن وضع مواد الدستور».

قال ماليت باهتمام: «أراكم جادين في مسألة قيام حكومة دستورية في مصر؟».

حدجه رئيس النظار بنظرة مستنكرة، ثم غمغم ضاغطًا على كلماته: «وماذا تتوقع غير ذلك من رئيس الحزب الوطني الدستوري؟». وقال الخديوي وعيناه مركزتان على المراقب الإنجليزي: «يجب العلمُ أن رأي شيخ الإسلام محمد المهدي العباسي واجب، للموافقة على وجود نظام دستوري في مصر». عبس رئيس النظار ولم يعقب.

مضت لحظات، ثم قام المراقب الإنجليزي، مُخاطبًا الخديوي: «سأسافر على كل حال للقاء السلطان العثماني، ثمة مباحثات رفيعة المستوى ستُجرى مع الباب العالي»، والتفتَ لرئيس النظار ليرمقه بنظرة طويلة، ثم عاد مخاطبًا الخديوي: «وحينما أعود؛ أتوقع حديثًا مستفيضًا مع سُموك».

استطعتُ تمييز الانزعاج الخفي في ملامح جناب الخديوي، بات مألوفًا استشعار مدى انزعاجه كلما ذُكر السلطان، أو حكومة المملكة المتحدة. ومع انتهاء مقابلة ممثل دولة بريطانيا في مصر انتهت مهمتي.

نظرت لجناب الخديوي فأذن لي بالمغادرة، لململتُ أوراقي وخرجتُ، فيما تتناثر إليَّ كلمات رئيس النظار مع الخديوي عن ميزات النظام الدستوري المزمع في مصر.

❊❊❊

حفلة أخرى من حفلات السراي، أنا لا أستسيغُ الوجود وسط جمع كبير من الناس، ولولا الأمر المباشر من خاير باشا بالوجود ما حضرت. الآلاتُ النحاسية تعزفُ لحنًا كلاسيكيًّا، أظنه لهاندل[17]. في الواقع بتُّ أتحرج من وقفتي المُتيبسة، ومراقبتي المدعوين من الأمراء وعلية القوم والأجانب في غدوِّهم ورواحهم. لم يمنع ذلك ملاحظتي نظرات مختلسة من بضع أميرات باتجاهي. ارتبكتُ أمام نظراتهن الباسمة. تصاب ملامحي بالتيبس فورًا وتتحجر، لا أقدر حتى على مبادلتهن الابتسام. من أنا حتى أفعل؟ آه لو يعلمن أنني مجرد مُستخدم في القصر. وأخرجتني من أفكاري دفعة بسيطة أصابت مرفقي. التفتُّ للخلف، وجدتُ رجلًا طاعنًا في السن، هل عمره جاوز التسعين؟! بيد أنه كان في أناقة باذخة، تكفي عصاته ذات الرأس الذهبية التي كان يستند إليها. لاحظتُ أن الرجل يرمقني في اهتمام بالغ، وقبل أن أُبدي فعلًا، بادرني: «ما اسمك أيها الفتى؟». أجبت بتلقائية: «مظهر شُقير، أعمل هنا في قلم المعية». وسرعان ما أدركت أنه سأل سؤاله باللغة التركية، وقد رددت تلقائيًّا باللغة نفسها. وقبل أن أستوعب دهشتي بادرني بسؤال آخر، بلغة أخرى، لم أعلم ما هي، وحينما أدرك عدم فهمي قال باقتضاب: «إنها اللغة

---

17) جورج فريدريك هانْدل George Frideric Handel (23 فبراير 1685 – 14 أبريل 1759) مؤلف موسيقي كلاسيكي إنجليزي من أصل ألماني. [المُترجِم].

الجورجية». ثم دار حولي: «هل لديك صلة قرابة بشاكر محمد بك الألفي؟».

رددتُ مُتسائلًا: «شاكر محمد بك الألفي!». كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم. قال العجوزُ فائق الأناقة وهو يفركُ ذقنه: «لديك شبه كبير به، كأنك ابنه!». ثم ضرب الأرض الرخامية بعصاته وقال كالساخط: «ولكن كيف هذا؟ وقد مات قبل عشرات السنين!».

شعرتُ بالارتباك من حديثه الذي انتقل للغة العربية. ولما رأى حيرتي، قال باعتزاز: «لم أقدِّم نفسي. أنا كاظم باشا السلحدار، ابن القائد الأقرب لمحمد بك الألفي شخصيًّا».

ظللتُ على حيرتي، واضح أن هذا الألفي شهير جدًّا؛ لكنني للأسف لا أعلمُ شيئًا عنه البتة، ومن غير اللائق أن أبدي جهلي هكذا أمامه، إلا أن كاظم باشا قال بصوت عركته السنون: «جيل خائب بائس، يبدو أنك أقل ذكاء مما يوحيه شكلك». وأشار بعصاه حول أركان القاعة: «محمد بك الألفي كان ليكون هذا القصر قصره، وعرش مصر ملكه، لو لم يمت فجأة بطريقة غامضة، بعدما كاد ينتصر تقريبًا على محمد علي باشا».

أجفلتُ أمام ما يقوله، فتمعَّر وجهه وقال: «اقرأ عن جيشه الذي وصل به إلى قرب قناطر شبرامنت، وكيف كاد يهزمُ به محمد علي، لولا وفاته المفاجئة و...»، كنت أصغي إليه باهتمام، حينما بتر عبارته فجأة ومال ناحيتي: «متأكد أنك لا تمُتُّ له بصلة قرابة؟». كانت إجابتي الصمت، فقال: «ملامحك غير مصرية، واسمك يقول إنك چركسي؛ لكن ملامحك لا تقول كذلك. أنت إما من أصل تركي أو جورجي».

ولم أُعلق، فرقَّت نبرة الرجل، وقال بشيء من الشجن: «ابنه شاكر كان صديقي الصدوق، فجأة اختفى، وبعد عشرات السنوات، وبعدما بلغتُ من العمر عتيًّا تظهر أنت فجأة وكأنك نسخة منه، لتعيد لي الشجن مرةً أخرى». ثم ربتَ على ساعدي: «على كلٍّ، إكرامًا للشبه المدهش بينكما، أرجو أن تقصد قصري حال واجهتك أية مشاكل، أنا عظيم النفوذ هنا إن كنت تدركُ قصدي». أومأتُ برأسي شاكرًا وأنا أنحني ربع انحناءة.

تركني العجوزُ الغامضُ وابتعد بخطواته البطيئة، وأنا أرمقه وتساؤلات لا حصر لها تعصفُ بي، ثمة دفء في حديثه أعادني للذكريات المشوشة في ذهني عن أبي، عن الصورة الوحيدة المتعلقة له في ذاكرتي. وأتاني أحد الموظفين وأخبرني أن جناب الخديوي يريد مني الحضور حالًا إليه في حجرة مكتبه. الآن أدركتُ سبب وجودي، لا ريب ثمة اجتماع يتعين عليَّ تدوين محضره، وهكذا هرولت في خطوات سريعة ملبيًا أمر جناب الخديوي، طاويًا كل ما كان من أمر العجوز الطاعن في السن، وحديثه العجيب.

***

لم يكُن دخولي لصالون عرابي بصعوبة المرة الأُولى. مع تكرار ذهابي بات وجهي مألُوفًا نوعًا، أمسى مجلسي يتقدمُ رويدًا رويدًا، حتى صرت على بعد ثلاثة أمتار على الأكثر من عرابي ورفاقه الأقربين: عبد العال حلمي، وعلي فهمي، ومحمود سامي البارودي. الأول والثاني قليلا الكلام، لا يشتركان في الخطب عادةً، ولكنهما من آن لآخر يميلان بالهمس بأشياء ما لأحمد عرابي. محمود سامي البارودي مثقف حقًّا. رغم نبرة عرابي الرخيمة، وقبوله الذي لا يقارن بغيره، إلا أن البارودي مع

خُطبه الوجيزة جدًّا، تكون متخمةً بالمعلومات الشيقة السهلة، ناهيك عن أشعاره التي تأسر السامعين متى يلقي ببعضها.

الأقرب دومًا مجلسًا إليهم هو عبد الله النديم. في الأربعين من العمر، شاعر وصحفي متحمس نابه، ظهر مع حرية الصحافة، فصيح صاعق اللسان كسوط من نار، خطيب يؤججُ الجماهير ببراعة، حماسته مفرطة، من أول مرة استمعت له وأنا أتابع كتاباته بجريدة «الطائف». وأفقتُ من تفكيري على بدء حديث الشيخ محمد عبده، طفق يتحدثُ أن رياح الثورة المباركة يجب أن يهب نسيمُها على الأزهر الشريف، وأن كثيرًا من القواعد العتيقة آن أوان مراجعتها، منها أن السلطان العثماني سليم الأول جعل لولاته في مصر امتياز تعيين أعلى منصب ديني في البلاد، وهو شيخُ الإسلام، شيخ الأزهر. وأن مسايرةً للتوجه الثوري تجب العودة للنظام القديم قبل سليم الأول، وهو العودة لانتخاب شيخ الأزهر بدلًا من تعيينه، لئلا يكون مُجرد موظف آخر تابع للسلطة، أسير للولاء لها.

وعلمت لأول مرة -من خلال خطبته- أن المذهب الحنفي هو السائد في المحاكم في مصر، وأن أغلبية طلاب الأزهر البالغ عددهم نحو خمسة عشر ألفًا، ينتمون للمذهبين الشافعي والمالكي، لذا يرون من حقهم أن يكون شيخ الأزهر مذهبه أحد مذهبَي الأغلبية.

ووجدت نفسي أنسحب من مكاني. حسبي ما سمعتُ اليوم، يتعين عليَّ تدوينه بسرعة لئلا أنساه، وفي الغد أبلغ هذه المعلومات للخديوي.

تُرى، هل يجد بها ما يفيد؟

***

مضى ما يربو على الشهر منذُ أحداث 9 سبتمبر، ولا زالت توابع الحدث تبهرني، ما زالت الفرحة مستمرةً. المسارحُ بسرعة لافتة عرضت روايات تؤججُ الشعور الوطني، حملت الأغاني بالمقاهي أوجاع الناس، فراجت أهازيجُ البطولات الشعبية والأغاني الوطنية. الصحفُ في جرأة غير معتادة، طفقت تراجع أداء أسرة محمد علي تجاه المصريين، اندهشتُ كذلك من كثرة شكاوى الفلاحين المعروضة بالصحف، كمٌّ غير عادي من الفساد من مفتشي المديريات، والمرابين اليونانيين القاطنين بمصر. الفلاحُ عليه ضرائب طائلة للدولة، يستدين من المُرابي الذي عادةً يكون يونانيًّا، وحينما تحل فائدة الدين لا تكون الأرضُ أخرجت ما يكفي، فيستولي المرابي على الأرض.

كان ذلك الموضوع من أكثر المسائل التي أُثيرت في مجلس عرابي الجماهيري ببيته. أحمد عرابي فلاح ابن فلاح، كما يردد كثيرًا بفخر عن نفسه، ويعرف أحوال الفلاحين.

كذلك برز من بين الحضور رجل أشيب مهيب، هو محمد باشا سلطان، بدا لي الأكبر سنًّا ومقامًا بين كل الحاضرين، كنت أسمعهم ينادونه بـ«ملك الصعيد»، وحينما سألت عرفت أنه يمتلكُ مساحات شاسعة من الأفدنة، وعُرفت عنه كثرة العطايا، والقرويون يؤمُّون بيته لحل مشاكلهم وعثراتهم، بالإضافة لتوليه منذُ زمن منصب شيخ البلد وعمدتها. لم أره يحضر سوى مرة أو مرتين، ولكني لاحظتُ أن عرابي يجلُّه بشكل خاص.

كم أشعر بالحنين حينما أسترجع هذا الزمن. كانت هذه الفترة فترة نشوة عارمة، وطموح جامح، وجس نبض كذلك؛ من كل الأطراف!

***

استدعاني خاير باشا للقائه في السلاملك، ذهبتُ فوجدتُ الخديوي توفيق حاضرًا. كان الأمر بخصوص أية أنباء جديدة يمكن بها استشفاف طريقة تفكير عرابي ورفاقه، لاستنباط خطوتهم القادمة. ووضح أن ما لديَّ أثار إحباطهما؛ إذ ذرع أفندينا المكان شابكًا يديه وراء ظهره، ثم رفع رأسه وخاطب رئيس الديوان: «لعل الأنجع رفع مظهر درجة أخرى».

لم أفهم، نظرتُ نحو خاير باشا فوجدت الاهتمام على وجهه، فيما تابع الخديوي: «آن أوان تزويد مظهر ببعض المعلومات البسيطة، معلومات تبدو مهمةً، وصحيحة، ولكنها غير مؤثرة». أومأ المهردار برأسه: «وبذلك تزداد ثقتهم في مظهر». أكمل الخديوي: «وبثقتهم فيه، سيقربونه منهم، ويدلون بأسرارهم أمامه دون تحفظ». لمعت عينا المهردار، ربتَ على كتفي كأنما يشجعني، فيما يقول الخديوي: «ولا تنسى خاير باشا رفع درجة مظهر الوظيفية، الأفندي يستحق زيادة راتبه».

شعرتُ أن الدنيا تضحكُ لي، وللحظة مسني شيء من تأنيب الضمير، هل هكذا أكون خائنًا لعرابي ورفاقه الوطنيين؟ إن الخديوي يمثل الوطن، مصر، وإن لم أُطع ولي الأمر؛ فمن أُطيع؟ وتبددت فورًا مشاعري السلبية مع هذا الخاطر، وانتبهتُ على قول خاير باشا مُخاطبًا جناب الخديوي: «بالمناسبة، لقد علمتُ من عيون لي بالمنيا، أن محمد باشا سلطان لا يزال مُستاءً جدًّا من تجاهل عرابي له في تشكيل نظارة شريف باشا».

ارتسم الانتباه على ملامح أفندينا: «مستاء! كيف وهو رئيس مجلس النواب؟».

قال خاير باشا: «إنما أعطوه هذا المنصب لترضيته»، ثم أردف بمكر:

«ولكن المقربين منه يؤكدون أنه ما زال غير راض. الرجل يشيع أنه شارف على إنهاء العقد السادس، فإن لم ينل النظارة الآن؛ فمتى؟».

فرك الخديوي ذقنه: «تريد أن نستقطب ملك الصعيد؟ الرجل من أوائل من ساندوا عرابي، دعك من أنه مساند للوطنيين وضد الأجانب على طول الخط».

قال خاير باشا: «أعلمُ أن جذبه لصفنا صعب جدًّا، ولكن إن أفلحنا، فسنكون قد ظفرنا بصيد لا يفوقه قيمةً سوى عرابي نفسه». هز أفندينا رأسه ببطء: «لا تشغل تفكيرك بهذا الرجل، إنه صعيدي دماغه أقسى من حجر، ويؤيد عرابي قلبًا وقالبًا».

كنت مع رأي الخديوي، ولكن خاير باشا داهية، وليس ممن يتلفظون بالكلمات عبثًا. لكني لن أشغل نفسي، ورغمًا عني شردتُ في أبهة الدرجة الوظيفية الجديدة. واستبدت بي الحماسة حينما أبلغ آرلين هذا الخبر.

***

نزلتُ من البيت مسرعًا لألحق بميعاد حبيبتي، حانت مني نظرة إلى حذائي فرأيته مُغبرًا، تبًّا! عودتي المتأخرة من العمل سبب هذا الارتباك. عرجت على مقهى «مظلوم»، أتذكر ثمة ماسح أحذية يربضُ هناك. شعرت بالبِشر مع رؤيته، هرولت إليه، على غير العادة كان أمام صندوقه أكثر من سبعة أحذية تنتظر التلميع، قلت بمزيج من الجدية والرجاء: «أنا متأخر على مشوار مهم، هل يمكنك الإسراع بتلميع حذائي، ولو بأجرة أكبر؟».

رفع ماسح الأحذية رأسه باتجاهي، رمقني بنظرة سريعة من طربوشي حتى جوربي، ثم تناول مني الحذاء قائلًا باستهانة: «تفضل اشرب شايًا،

وقبل أن تنتهي سيكون المركوب تحت قدميك». وهكذا جلست أتلظى من التوتر، ترى هل ألحقُ بميعاد آرلين؟ هل تنتظرني؟ وشربتُ عوضًا عن كوب واحد كوبين من الشاي، وحذائي قابع مكانه أمام ماسح الأحذية لم تمتد إليه يده. بعد الكوب الثالث قمت إليه بنفاد صبر أستعجله، فإذا به ينتفضُ قائمًا. لم أكن قصيرًا، فطولي نحو مائة وسبعين سنتيمترًا؛ لكن ماسح الأحذية كان يفوقني طولًا، عريض المنكبين، ثخين الرقبة، بدا لي في جلبابه وشاربه الأسود مدبب الطرفين كأنه هلال مبروم: «جرى إيه يا سيدنا الأفندي؟!».

احتجاجُ الرجل وصوته العالي بدا كأنه ينهرني. تلفتُّ حولي شاعرًا بالحرج، وتعالت أصوات تناديه تطالبه بأن يمسك أعصابه. كنت أعلمُ أن اسمه صمدي. وقفته هذه بجسده القوي جعلتني أتساءل لماذا لم يمتهن الفتونة؟! وقمتُ بتذكيره بما قاله لي قبل نصف ساعة، فإذا به يتجعد جبينه، ويتناول حذائي، ليقوم بشطره نصفين!

قلتُ له ذاهلًا: «ماذا فعلت؟!»، فكان جوابه أن انقض عليَّ ودفعني بازدراء بعيدًا في كراهية ونفاد صبر.

كانت الدفعة من القوة أن كدتُ أتعثر وأقع في بركة طينية. التفتُّ إليه فإذا به يعود إلى جلسته بغير اكتراث، وكأن شيئًا لم يحدث. سمعتُ ضحكات هازئةً مجلجلةً انبعثت من عدة أماكن. ساورني قهر شديد، لماذا فعل ذلك؟ نعم أرى في هذه الحارة مُشاجرات لا تنتهي؛ لكنني لست من هذا الطراز، طوال عمري وأنا أتجنب العراك وقلة القيمة، فهل أفعلها الآن؟! ونفضت ملابسي وعُدت واجمًا حافيًا إلى بيتي، قد بات مستحيلًا الذهاب إلى آرلين في حالتي هذه.

وبينما أنا في ارتباكي، إذا بيد تربت فوق ظهري، استدرتُ، فإذا برجل شديد النحافة تجاوز السبعين، ناولني قبقابًا، وقال بابتسامة طيبة: «من المسجد القريب. فقط لا تنسى إعادته». وهكذا عدتُ لبيتي بالقبقاب، يشيعني وقع ضرباته على الأرض.

***

(9)

قُرب الأصيل كنتُ في طريق عودتي من إحدى المأموريات السريعة لصالح السراي، مررتُ على موقع بناء، لمحتُ بضعة صبية مُغبرة وجوههم، ثيابهم رثة، منهمكون في جمع الحصى وغسله، فيما آخرون يغربلونه إلى أحجام مختلفة. وسط هؤلاء لفت نظري صبي لا يتجاوزُ عمره الثالثة عشرة، بدا لي لا ينتمي إليهم من ناحية الشكل، فقد كانت عيناه زرقاوين قاتمتين، شعره حريري كثيف بني اللون، يعكس لونًا ذهبيًّا مع حركاته، أبيض البشرة، عريض الظهر رغم سنه الصغيرة. ذكَّرتني صفاته الشكلية، وعدم اندماجه مع زملائه، بنفسي. وما أدري إلا وفارت في نفسي خواطر لطالما كبحتها متجنبًا التفكر فيها. بيد أن مرأى الصبي أثار أفكاري الموؤودة، لتتحول من أحجار فحم سوداء مطفأة إلى جمرات استعرت بها النار فجأة...

واستسلمتُ للتساؤلات التي لطالما كبحتها، لطالما فكرتُ، بابا مات معدمًا فقيرًا كما قيل لي، فلماذا قُتل ما دام السارقون وجدوه بهذا الفقر؟! والأغرب، عمَّاي رغم كل شيء ليسا بهذا الحنان، فلماذا تعهداني بالرعاية ماديًّا طوال حياتي؟ صحيح لم ينفقا عليَّ بالمعنى الذي يليقُ بأخوَي أبي؛ لكنهما على الأقل لم يتركاني للضياع. كذلك، هما أغنياء فعلًا، فلماذا بابا بالذات فقير معدم؟! وما كان عمل جدي مثلًا؟ وما كان عمل بابا بالأساس؟! ولماذا أنا مقطوع النسب من جهة ماما؟ ولماذا لا أعلمُ لي أقارب من جهتها؟!

أسئلة كثيرة تنقر رأسي من حين لآخر، ربما إجاباتها غير معلومة سوى لدى عمَّيَّ؛ لكن أنى لي مواجهتهما بهذه الأسئلة؟ وهما لم يشعراني قط بحدب القرابة. العلاقة رسميةً جدًّا، كأنهما يحرصان ألا أتطلع لحظة واحدة لأكثر من ذلك. وأنا في الواقع لا أريد، قد قضيتُ حياتي وحيدًا؛ لكن ليس تعيسًا. بشكل ما حباني الله بتلمُّس الجمال في الأشياء؛ فالوحدة تأمل، والعزلة راحة، والفقر سكون، وعدم وجود أصدقاء حماني من أية سلوكيات مزعجة. نعم، أفتقد لوجود صديق مقرب؛ خاصة أن لا أشقاء لي؛ لكن أنى ذلك وعدم الاستقرار لازم طفولتي، بالذات كثرة التنقل بين الأُسَر، جعل من ذلك أمرًا غير يسير.

وأخرجني من أفكاري صياح الصبية، رأيتهم يطوِّقون الفتى ذا العينين الزرقاوين وهم ينهالون عليه ضربًا وركلًا. هرعتُ إليه، استخلصته منهم، وجدته ازداد اغبرارًا، بيد أنه غير باكٍ أو منهار، كان متماسكًا لكنه زائغ النظرات. ابتعدتُ به عنهم وهم يرمقوننا بنظرات متحفزة، سألته عن اسمه، قال وهو يتحاشى النظر لوجهي: «كريم». سألته عن أُسرته، قال إنه لا يعلمُ شيئًا عن ذلك، لقد وعى في الأزقة، وقوت عيشه يكسبه بحسب كل يوم. وعندما سألته إن كان نال شيئًا من التعليم، أشاح بنظراته بعيدًا قبل أن يهز رأسه نفيًا. هنا قلتُ في حزم ليس من طبعي عادةً: «تعالَ معي، سأجد لك وظيفة مؤقتة ريثما أجد لك وظيفة مستقرة».

نظر لي نظرات مزيج بين الدهشة والريبة، جمجم: «أنا؟! كيف؟».

سحبته من يده برفق فاستسلم لي. في الواقع لم تكن لدي خطة واضحة المعالم. لكن حتمًا ريثما أصل للسراي كانت لتخطر لي فكرة ما. ما لا يعلمه

الفتى أني أفكر في إلحاقه بركاب التعليم بأي شكل. كيف لا أفعل، وقد لمحتُ فيه فجأة معاناة طفولتي؟

***

سرتُ جنبًا إلى جنب جوار آرلين، في الواقع كانت تفصل بيننا مسافة تزيد عن المتر، نسير على مهل أسفل الأشجار الباسقة، والورود الزاهرة. صارت هذه الحديقة مكاني المفضل، كيف لا وهي شهدت لقائي الأول بالشمس التي أضاءت حياتي. سبقتني بخطوتين ثم جلست إلى أقرب مقعد، جلست جوارها على مسافة. كانت جالسةً منتصبة الظهر، تضع راحتيها بأناقة فوق فخذيها، قالت وهي تطرق للأرض المعشبة: «مضت فترة طويلة لم نتقابل، أخمن أن كثرة مسؤولياتك السبب».

قلتُ فيما كانت زقزقة العصافير صاخبةً فوقنا: «لا تتخيلين كم أشعر بالأسى مع كل يوم يمضي دون أن أراك».

توردت وجنتاها بحمرة زادتها جمالًا، نفحتني بنظرة باسمة جعلت الدنيا تثمر أزهارًا وورودًا، وسرعان ما عادت تطرق للأرض حياءً: «أعلمُ أن طوال لقاءاتنا حالت ثرثرتي دون استرسالك في الحديث، هذه المرة أعدك أنني سأستمع فقط».

شعرت بالهواء يضرب سقف حلقي، لا ريب كنتُ أفغر فمي ببلاهةً أمام نبرتها المُترعة في الرقة، أفقتُ من ارتباكي وأنا أقولُ: «آرلين، لو تكلمتِ أبد الدهر لما ساورني الضجر لحظة». عادت الحمرة في وجنتيها تتوهج لتزيدها حُسنًا، بيد أنها لاذت بالصمت، فقلتُ: «أعلمُ أنني قليل الكلام عن نفسي. هذا لأنني أخشى ذلك. أُغرق نفسي في العمل، أتطوع للقيام بأعمال زملائي. قبلك كنت أتعمد البقاء بالسراي قدر المستطاع،

لا لشيء سوى لعدم الاختلاء بنفسي، لأني حينها تخنقني الأفكار، تصرعني تساؤلات أشعر أن في إجاباتها ما قد يقلب حياتي رأسًا على عقب». التفتت ترمقني باهتمام، قالت: «أي أسئلة تلك التي إجاباتها تفعل كل ذلك؟».

نظرت للمارة القليلين بالحديقة وتنهدت، قُلت: «دعي ذلك الآن».

رمقتني بنظرة عتاب آسرة، قُلت: «أعدك أن وقتًا ما سأبوحُ لك بكل ما يشغلني. الآن، أرجو ألا تضنِّي عليَّ بصوتك أكثر من ذلك». أطرقت آرلين للأرض المُعشبة.

«أريد أن أعلم عن نشأتك، طفولتك، حدثيني عن والديك»، قُلت الكلمة الأخيرة بشجن عميق، لا أعلمُ إن كانت لاحظت آرلين، التي شردت بنظراتها وهي تقول: «بابا وماما لا يملَّان من ترديد ذات الحكاية، عن ملابسات خطبتهما، وما صاحبها من ظروف أكبر مجاعة شهدتها آيرلندا. كان ذلك بين عامي 1845 و1852، مجاعة راح ضحيتها أكثر من مليون إنسان، وهجرة مليون آخر، من شعب كان عدد سكانه آنذاك -قبل المجاعة- نحوُ ستة ملايين إنسان. لطالما رددت ماما على مسامعي: «لقد أرسل الله الآفة الزراعية، وصنع الإنجليز المجاعة».

قلتُ لها: «لعل والدتك قالت ذلك بحكم مسؤولية بريطانيا عن آيرلندا، كدولة مُحتلة؟».

قالت آرلين: «لطالما أخبرني بابا كيف كان الوضع بائسًا عند أبويه وإخوته الصغار. كان يقول لي بمرارة لا أزال أتذكر نبرتها: «عندما كنا نجلس للأكل، كنا لا نرى في صحون طعامنا الزهيد إلا انعكاس مخالب

إنجلترا». كدتُ أسأل عن ذلك؛ لكنها استرسلت طواعيةً: «بلغ سوءُ الوضع حدًّا أن تكالبت علينا المعونات من سائر أقطار العالم؛ لكن، خمن ماذا؟ لقد أعاقت إنجلترا بعض هذه المعونات، ومنعت بعضها؟».

كررتُ باستغراب: «منعت؟!».

قالت: «الدولة العثمانية مثلًا، بابا أخبرني أن سلطانها عبد المجيد الأول تبرع بعشرة آلاف جنيه إسترليني، فتخيل ماذا كان رد فيكتوريا ملكة إنجلترا؟ طلبت منها تخفيضها إلى ألف جنيه فقط، لأنها لم تتبرع سوى بألفين!».

بعد الفترة البسيطة التي قضيتها بالسراي، لم أفاجئ كثيرا لهذا السلوك من الملوك، بيد أن آرلين تابعت: «لكن السلطان العثماني كان مُصرًّا وحصيفًا، أرسل ألف جنيه، ومعها ثلاث سفن محمَّلة بالأطعمة. فكان رد بريطانيا منع دخولها ميناءَي بلفاست ودبلن. هل فترت إرادة السلطان العثماني؟ لا، إذ أفلح في النهاية في توصيل الأطعمة إلى ميناء دروكيدا على متن سفنه. بابا أخبرني أن وجهاء آيرلندا اجتمعوا على رسالة شكر وأرسلوها إلى عبد المجيد الأول، عرفانًا بمعروفه للشعب الآيرلندي».

جعلتُ أجيل نظراتي بمحبوبتي، دومًا هي لا تبلغُ هذه الدرجة من المرارة إلا حينما تتحدث عن ظروف بلدها المحتلة من إنجلترا، وخرجت من تفكيري وآرلين تردف: «تزوج والدي فور انتهاء المجاعة، ومع ذلك، طوال نشأتي في بيتهما لم يفترا أبدًا عن ترديد حكايات هذه الفترة على مسامعي».

قلت: «لا ريب كان صعبًا عليهما قرارك بتركهما والسفر إلى مصر».

قالت مُندهشةً: «على العكس، لطالما شجعاني على ترك آيرلندا إلى بلد حر ذي مستقبل، قالا لي إن آيرلندا ترزحُ تحت احتلال أغلب الظن سيستمر لأجيال. لذا فرحا كثيرًا حينما علما بأن مصر ستكون وجهتي. وبالفعل، أرسل لهما مبلغًا ماليًّا لا بأس به بشكل منتظم. يستحيل أن يحدث مثل ذلك إن بقيت بآيرلندا».

مع سماعي لحديثها ساورتني الحيرة، ما أكثر من قابلتهم من الأجانب ممن يمتنون لوجودهم في مصر. وما أكثر كذلك من قابلتُ من مصريين يعيشون أقسى درجات الغُبن بسبب سيطرة فئة من هؤلاء على مقاليد الأمور، خاصةً في الزراعة. ومرة أخرى أخرجتني حبيبتي من خواطري، حين قامت فجأةً وعلى وجهها اضطراب: «قد أزف أوان عودتي»، واختلست مني نظرةً مُترعةً في الحياء: «ألم أقل لك إني ثرثارة! أخبرتك ألا تدعني أسترسل في الحديث».

رمقتها في حب ولم أعلق، لا فكرة لديها كم أحب كل ما يصدر عنها. ويبدو أنها حدست نظراتي؛ إذ توردت وجنتاها بالحمرة المُحببة، لتُشيح بوجهها قائلةً: «سأذهب الآن كي لا أتأخر». وابتعدت عني في خطوات مضطربة. فيما بقيت أنا في جلستي أرقبها، وسؤال ملح يضرب وجداني: «لماذا مهما قضيتُ معها من وقت يمر بلمح البصر؟ ألن يأتي زمن أشعر فيه بالارتواء منها؟».

ولم أعلم وقتها، كم ستكون إجابة ذلك السؤال عسيرةً، وبعيدة المنال.

***

كان خاير باشا جالسًا إلى مكتبه يدقِّقُ في بعض الأوراق، عندما خاطبني: «أداؤك حتى الآن لا بأس به، صرتَ وجهًا مألوفًا لعرابي ورفاقه، ومعروفًا بالاسم. لبيت دعوات عشاء في بيوت الأميرالاي علي فهمي، والأميرالاي عبد العال حلمي. بل ودعاك عبد الله النديم للعمل في جريدته، بترجمة وتحرير صفحة كاملة تخصُّ ما يرد بالصحف الأجنبية». وتراجع بظهره للوراء فيما يرمقني بثبات: «يبدو أن الجميع بات يطلب خدماتك».

خفق قلبي من نظرته، قلت: «لم أعطه موافقتي بعد. والرأي رأيكم». حدق بي لحظات، ثم لوَّح بأصابعه كما لو يهشُّ ذبابةً: «الأمر يرجع إليك، جل ما يهمنا أن تكتسب ثقتهم».

قلتُ كالمتردد: «أخاف أن آخذ قرارًا بنفسي، ثم يتبين لاحقًا أن الخديوي لا يُقرِّه».

جمجم خاير باشا وعلى وجهه الغم: «الخديوي الآن لديه ما يشغله من المشكلات».

لم أفهم، ولكنه استطرد: «إدوارد ماليت، قنصل إنجلترا العام، فور عودته من إسطنبول، قصد أفندينا مباشرةً». وشبك أصابعه أمام وجهه، صمت برهة فيما أقفُ أنا كتمثال، حتى قال: «ماليت شدد على الخديوي أن السلطان عبد الحميد لا يوافقُ مطلقًا على قيام حكومة دستورية حقيقية في مصر». قلتُ مترددًا: «عدمُ وفاء جناب الخديوي بما وعد به عرابي ورفاقه يضع القصر في أزمة أخرى». ضاقت عينا خاير باشا: «بيني وبينك، أظن ماليت هذا يتقوَّل على السلطان. لكن، أنى إثبات ذلك؟ ولا عيون لنا هناك».

لذتُ بالصمت، فيما قام خاير باشا يذرع الحجرة مجيئةً وذهابًا: «لا يتخوفُ جناب الخديوي أكثر من السلطان العثماني والإنجليز. كلاهما مخيف ولو كان منفردًا، فما الظن لو اجتمعا على رأي واحد؟».

قلتُ مترددًا: «فقط اؤمرني جناب المهردار، وستجدني رهن إشارتك». قال: «أظن الخديوي سيستخدمُ بيدقًا آخر». وشرد بنظراته في الفراغ: «وأتعشمُ أن يفلح هذا الخيار».

***

شهد أول ديسمبر 1881 م ما احتفت به الصحفُ كثيرًا، من انعقاد أول مجلس نيابي مصري في تاريخ مصر، برئاسة محمد باشا سلطان، تبارت الصحفُ في وصف ذلك بالحدث التاريخي، وأنه أولى الثمار الملموسة لضغط الضباط على الخديوي.

تخيلت وقع هذه العبارات الفظة على أفندينا. كان الليلة ميعاد مجلس عرابي الجماهيري في بيته، ذهبتُ متأخرًا نوعًا، كان النقاشُ قد بدأ، إذ جلستُ فيما يقول الأميرالاي عبد العال بك حلمي حانقًا: «لقد طلب الخديوي من شيخ الأزهر محمد المهدي العباسي فتواه فيما يتصل بمسألة الحكومة الدستورية». قال الأميرالاي علي فهمي: «وهل ذلك مدعاة للقلق؟».

أجاب الشيخ مُحمد عبده بنبرة هادئة: «الخديوي يريد معرفة رأي وفتوى شيخ الإسلام في مشروعية الحكم الدستوري في مصر». انبرى علي فهمي: «هذا يفضحُ سوء نية الخديوي! فهو من عيَّنه، وقطعًا سيقول إنه لا يتسقُ والإسلامُ؛ ليرضي الخديوي».

قال رجل بملابس أزهرية، علمتُ فيما بعد أنه الشيخُ محمد خليل

الهجرسي: «وهكذا يجد توفيق في فتوى الشيخ العباسي مسوغًا للتحلل من وعده!».

تجهم وجه عبد العال حلمي: «والعمل؟ هذا نكوص خطير من توفيق».

تدخل أحمد عرابي بصوته الرخيم: «ما دام الخديوي ألقى المسؤولية على الأزهر، فمن حق طلابه الخمسة عشر ألفًا أن يتحملوا مسؤولياتهم».

تساءل علي فهمي مُندهشًا: «ماذا تعني؟». تبادل أحمد عرابي والشيخُ الأزهري محمد خليل الهجرسي نظرات ذات مغزى، ثم اكتست ملامحهما بابتسامة غامضة. انتقل الحديثُ بعدها لشكاوى الفلاحين ومظالمهم، كنت أعلمُ أن أحمد عرابي يولي ذلك أهميةً بالغةً، ويتابع إنهاءها مع الحكومة. وسرعان ما ابتعد ذهني عن متابعة أحاديث المجلس ليتساءل؛ ترى ما الذي عناه عرابي بتحمل طلاب الأزهر مسؤولياتهم؟

***

مظاهرات تلو مظاهرات قام بها طلاب الأزهر حول مشيخة شيخ الإسلام، هتافات ولافتات في كل مكان تطالب بعزله، ثلاثة أيام متوالية، تعطلت الدراسة، وأضرب المعلمون، حناجر الآلاف تدوي مطالبة بعزل الشيخ محمد العباسي، صنيعة توفيق، كما يرددون.

وضع داوود أمامي صحيفة «الطائف» قائلًا: «انظر لهذا المانشيت؛ ثورة العلماء! تورط الحزب الديني في السياسة بعدما تورط الحزب العسكري سيدخل البلاد في دوامة لا قرار لها». غمغم فايز بغير اكتراث: «ثورة العلماء. تعبير جميل، أظن أول من قاله محمد باشا شريف رئيس النظار، لقد قرأتُ له هذا التعبير بالأمس، معلقًا على أحداث الأزهريين،

وكذلك عن مشروع الإصلاح الداخلي الذي قدموه له -كوزير للداخلية- لإعادة ترتيب البيت الأزهري». قلتُ لهما مداعبًا: «صرتما تتحدثان في السياسة الآن جهارًا نهارًا بلا همس ولا خفوت». طوى داوود جريدته: «وهل ضاقت علينا؟! الجميع يفعل ذلك منذُ حركة ضباط الجيش». قُلت: «لعلك لا تسميها ثورة». قلب فايز كفيه: «الشعب تفرج فقط، ولم يقم بشيء». قُلت: «حسبه أنه لم يرفضها». غمغم داوود: «ومنذُ متى رفض المصريون أي شيء!». وطلَّ علينا في هذه اللحظة وجه الأميرالاي علي بك فهمي، فامتقع وجه داوود، فيما شحب وجه فايز، فأفلتت مني ضحكة وأنا أقومُ لأصافح الأميرالاي الذي تطلع إليهما مندهشًا مما اعتراهما على الأرجح، ثم مال ناحيتي، وبنبرة خافتة: «سأنتظرك بعد دقيقتين بحديقة السراي، ناحية الباب الشرقي». وخرج بخطوات رصينة.

تجاهلتُ نظرات زميليَّ المندهشة فيما أَلملمُ الأوراق من فوق مكتبي، ثم خرجتُ كيفما اتفق. في الحديقة وجدته ينتظرني، حيثُ بادرني: «هل لديك علم بشخص يدعى تيم هارش؟». هززتُ رأسي نفيًا، وقبل أن أسأله، أسرع بالقول: «تيم هارش، رحالة إنجليزي، من أولئك الرحالة الأوروبيين الذين بدؤوا يهلون على البلاد مع عهد إسماعيل. تعرف عليه عرابي عن طريق الشيخ محمد الهجرسي». قلتُ: «وما صلة رحالة إنجليزي بشيخ أزهري؟». أجاب: «يعلمه اللغة العربية يا أخي، لا تقطع تسلسل أفكاري! القصد، هارش هذا عرض على أحمد أن يستطلع رأي إدوارد ماليت بهذا الشأن».

قلتُ: «أي شأن؟ وأنى لـ(هارش) ذاك معرفة ماليت؟!».

نظر لي وكأنما لا يصدق سذاجتي: «قلاقل الأزهر يا مظهر أفندي! ثم -ألا تعلم- أن أي مواطن بريطاني بوسعه مقابلة قنصله العام في مصر، غير أن هارش له مزية إضافية، إنه يقول إن ماليت يعرفه شخصيًّا، لأن تيم هارش في الأصل كان موظفًا بالخارجية البريطانية، ثم ضاق من الروتين، فقرر تلبية هوسه بالسفر، تعينه على ذلك ثروته الطائلة التي ورثها عن أبويه». كنت أستمع إليه منصتًا، فيما يتابع: «هارش أبلغنا أنه قابل ماليت، وسأله مباشرة عن رأيه في النزاع القائم بين الخديوي وطلاب الأزهر الدائر حول عزل شيخ الإسلام، وتعيين غيره». حملقتُ به لحظات، في الحقيقة لم أكن أكترثُ، ولكن وجدتُ من اللياقة ألا أبدي ذلك، فتصنعتُ الاهتمام قائلًا: «وماذا كان رده؟».

أجاب: «قال بغير مبالاة إنه ليس مُخولًا له من قبل الحكومة الإنجليزية التدخل في تعيينات المسؤولين الدينيين. لذلك سيبقى محايدًا، فلن يميل كفة هذا أو ذاك».

قلتُ مترددًا: «هذه أنباء واعدة. ولكن اسمح لي، لمَ تخبرني بها؟». مال ناحيتي: «أريدكُ أن تُعلم بها جناب الخديوي».

تراجعتُ للوراء كأنما لدغني ثعبان، هل اكتشفوا ما يدبره الخديوي؟! تزايدت ضربات قلبي قوةً، وبادرني علي فهمي: «ما بال وجهك شحب هكذا؟! هل أنت بخير؟». كان يحملقُ بوجهي. لم أحر جوابًا، الارتباكُ عقد لساني، إلا أن عليًّا ربت على كتفي: «أعلم أنها مهمة ثقيلة. لقد فاجأتك. كان يجدر بي التمهيد، ولكني توسمتُ بك الوطنية. ولستُ وحدي بالمناسبة، بل بقية الضباط كذلك». قلتُ مرتبكًا: «بقية الضباط؟!». قال بابتسامة مشجعة: «نعم، وعلى رأسهم عرابي.

بصراحة نريد منك أن تعمل لصالحنا، أو بالأحرى؛ لصالح مصر». لم أدرِ لماذا شعرت أن للاسم وقعًا مختلفًا في أذنَيَّ، رددت مأخوذًا: «مصر...». أومأ برأسه وقال في كياسة: «اسمع يا مظهر أفندي، يهمنا أن يعلم الخديوي بفحوى اللقاء الذي جرى بين هارش وماليت». قلتُ مبهوتًا: «لماذا؟». قال: «لكي نسرع اتخاذ قراره. هو سيكفُّ عن التلكؤ بعد أن يعلم أن الإنجليز لن يتدخلوا في هذه المسألة».

أومأت برأسي شاردًا، كانت دماغي تغلي، آه لو يعلمُ كل طرف، لقد صرتُ عميلًا مزدوجًا!

ولم تمر أيام حتى كنت نازلًا من العربة الحنطور، بعد نهاية يوم عمل آخر بالسراي، عندما لمحتُ الشيخ محمد عبده في زيه الأزهري مقبلًا من شارع جانبي، أطرقتُ للأرض وأسرعتُ من خطواتي لأتجاوزه.

«مظهر أفندي...». توقفتُ مع النداء، التفتُّ فوجدتُ الشيخ مقبلًا عليَّ ببشاشة: «هل تسكن هنا؟». اندهشتُ أن الشيخ ميزني، إنني تقريبًا أبقى صامتًا في الجلسات الجماهيرية ببيت عرابي. للحظة شعرتُ بالغبطة لذلك، صافحته فيما أجيب: «نعم، في العطفة التالية إلى اليمين». قال لي: «تبدو مرهقًا جدًّا»، أومأتُ برأسي مؤمِّنًا، فقال مشيرًا لملف متخم تحت إبطه: «أنا كذلك، كان يومَ عمل طويلًا». ثم تنهد: «وغدًا يومُ أطول». قلتُ محاولًا الاستنباط: «حتمًا بسبب ما أفضت إليه تظاهراتُ طلبة الأزهر».

ابتسم: «لم يأتِ علينا الخامس من ديسمبر، إلا وقد وصلنا للمراد. ذلك أسرع مما تصورنا». ثم تجهم وجهه: «ولكن جناب الخديوي ما زال على ديدنه، مكيراً مراوغًا». حملقتُ إليه مستطلعًا، فاستدرك: «نعم

أفندينا استجاب لأصوات وضغوط الطلبة الأزهريين، وعزل صنيعته الشيخ محمد العباسي، إلا أنه خالف إرادة غالبية الطلبة الذين نادوا بالشيخ محمد عليش -المالكي المذهب- للمنصب، وأتى بالشيخ شمس الدين الإمبابي».

قلتُ بحذر: «وما مشكلة الشيخ الإمبابي؟». صمت لحظة ثم أجاب: «الشيخُ الإمبابي لا غبار عليه، ولكنه أقل كفاءة وشعبية بالمقارنة بمن صوَّتت له أغلبية طلبة الأزهر، وهو الشيخُ محمد عليش، الذي تثقل كفته كثيرًا في ميزان الشجاعة والعلم».

أطرقتُ بغير تعليق، إرهاقي منعني من جذب أواصر الحديث معه، ويبدو أنه لحظ ذلك بفطنته، إذ صافحني مرةً أخرى: «على كل حال الوضع بات أفضل، تخلصنا من صنيعة الخديوي، وقدمنا قانونًا للإصلاح الداخلي في أزهرنا. تجديد المؤسسة الدينية وتطويرها بات قاب قوسين أو أدنى». ولوَّح لي مودعًا: «أراك مُرهقًا جدًّا، السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته».

راقبته حتى توارى في الزحام، ثم تحركتُ بخطوات ثقيلة إلى منزلي، أعتقد لن أقدر على النزول مرةً أخرى هذه الليلة.

***

لم يكن صباح يوم 19 ديسمبر 1881 صباحًا عاديًّا، تم استدعائي للحضرة الخديوية، أفندينا أمرني بتسجيل محضر لقائه المرتقب مع كل من إدوارد ماليت، والسير أوكلاند كولڤن، ثم غاب عني في شروده. انهمكتُ في تجهيز المداد والأقلام والأوراق، فيما ذهني يتساءل عن سر اهتمام الخديوي الشديد بتسجيل هذه اللقاءات.

ذات مرة سألتُ المهردار خاير باشا، فنظر لي نظرة غريبة ولم يُجب، ولم أدرِ كيف جرؤت بعدها على سؤال أفندينا، ولكنه فاجأني بالإجابة بنبرة هادئة؛ بل وبها شيء من شجن: «إني أحكم في فترة عصيبة، أحمل فوق كاهلي إرثًا لم تكن لي يد في تشكيله. حرصي على التسجيل والمحاضر لكي أترك للأجيال القادمة الفرصة للحكم، وألا يُفتنوا كما فُتن المعاصرون». وعاد لشروده.

لا أحسب أنني فهمتُ جيدًا، ولكن حسبي ما وصلني من كلماته، ولم أجرؤ على الاستزادة. وجاء كولڤن وماليت، قاما بتحية أفندينا ثم ذكرا بلا مقدمات انزعاجهم من النفوذ المتعاظم للحركة الوطنية، وقُرب تجاوزها للدور المحسوب لها. من حديث الرجلين استنتجت أن السير كولڤن آراؤه أكثر تشددًا من إدوارد ماليت الذي يبدو أكثر تسامحًا تجاه الحركة الوطنية ورجالها. كان أفندينا مستمعًا أكثر الوقت. كم أشفق على هذا الشاب، أراه حَمَلًا غضًّا وسط كل هؤلاء الذئاب العتاة! وأفقتُ من خواطري على أمر مباشر من ماليت: «لقد اتفق رأينا -وأشار إلى السير كولڤن- على وجوب تولية أحمد عرابي منصبًا تنفيذيًّا ما في الحكومة. يجب أن يدخل داخل النظام، ذلك يحجمُ الرجل ويشغله عن المظالم والشكاوى التي يخصصُ لها أغلب يومه. يجب منع تضخمه في عيون المصريين الذين باتوا يرون فيه منقذهم الأوحد!». وأكمل السير كولڤن: «كما أن إعطاءه منصبًا تنفيذيًّا داخل النظارة يضعه ضمن النظام، ويخرجه بالنتيجة من صفوف المعارضة».

نظرت للخديوي مترقبًا، فرأيتُ النظرات الزائغة نفسها، ثم تنحنح وقال: «لكما ما تريدان. الأمر سيصدر اليوم». تبادل الإنجليزيان نظرةً

هادئةً، ثم قال كولفن، بلهجته الجادة: «تتبقى المسألة الأخطر، والتي تزعجُ لندن جدًّا». اربدَّ وجه أفندينا وتوتر، فيما استطرد كولفن: «ثمة ورطة بخصوص مخصصات الجيش المصري المالية». ونهض من مقعده فيما يقولُ: «المسألة إعداد مشروع الميزانية الجديد، ناظر الجهادية محمود سامي طلب مبلغُ 600 ألف جنيه إنجليزي مخصصات سنوية لنظارته».

عقب الخديوي: «أعتقد في تلك المخططات زيادة طفيفة عن المُخصصات المحددة مُسبقًا».

قال كولفن بصرامة رأيتها وقحةً: «لكني بحكم موقعي كممثل مالي للإمبراطورية البريطانية في مصر، ومسؤول علن حقوق الدائنين الأوروبيين في هذا البلد، أرى أن 522 ألف جنيه إنجليزي كافية تمامًا، ومناسبة لزيادة الجيش إلى 15 ألف فرد».

طفرت الحيرة من عينَي الخديوي، فيما تدخل إدوارد ماليت في الحوار، بطريقته الهادئة: «لقد استدعيتُ ذلك الناظر الچركسي؛ محمود البارودي، وفسَّر لي الزيادة بأنها نتيجة للوعد الذي قطعته لهم بتطبيق الفرمان العثماني لعام 1840، والقاضي بزيادة عدد أفراد الجيش إلى ثمانية عشر ألفًا. وحينما حاولتُ إثناءه عن ذلك، رد بنبرة لم يغب عني مغزاها: «عدمُ تنفيذ وعد الخديوي قد يتسبب في مظاهرة عسكرية جديدة».

ازداد توتر الخديوي، فقال كولفن بنبرة متعالية: «إنجلترا لا تريد ذلك. أو بالأحرى لن تسمح بتكراره من الأساس». وغمغم ماليت: «أرى وجوب علم عرابي باستحالة زيادة هذا الرقم. نحن نرى أنه العقبة الكؤود، ومن يحركُ المواقف».

تمتم الخديوي متفاديًا النظر إليهما: «سنرى بشأن عرابي ما يمكن عمله». قال كولڤن بنبرة ذات تهكم فواح: «لا تشغل بالك بذلك سُموك، دع لنا هذا الأمر».

ران صمت ثقيل، ثم قال ماليت: «بعد أسبوع -يوم 26 ديسمبر- سيناقشُ مجلس النواب مواد الدستور الذي وعدتم به الشعب». وقال كولڤن: «لندن تتابع عن كثب أداء البرلمان المصري، نصيحتي ألا يأخذه الشططُ، ويذهب لأبعد مما يجب عليه».

أطرق جناب الخديوي، تبادل الرجلان النظر ثم نهضا. قاما بتحية الخديوي باحترام بروتوكولي، ثم غادرا. غاب الخديوي في شروده، لم ينتبه لاستئذاني في الخروج رغم تكرار عبارتي. غادرتُ بهدوء وإشفاقي على هذا الرجل يوخز تفكيري.

***

حضرتُ المجلس متأخرًا، لم أتمكن من الجلوس بموقع متقدم كما اعتدتُ في الأسابيع الأخيرة، جلستُ وعرابي على رأس المائدة المستطيلة الكبيرة يتحدثُ: «يومُ السادس والعشرين من ديسمبر يوم مشهود من أيامنا الوطنية، حيثُ أينعت اليوم أولى ثمار حركتنا الوطنية المباركة، وكانت أولى جلسات مناقشة دستورنا المصري، الذي سيجعل لكل مصري حقًّا في هذا البلد، ويتحول به أبناؤه من مجرد مخلوقات داجنة، إلى أبناء فاعلين يمتلكون مقدرات بلدهم، ويوجهونه».

ثم أشار إلى الرحالة الإنجليزي هارش إلى يساره: «وهذه المناسبة التاريخية يجب ألا تلهينا عن هذا الإنجليزي الذي يمثل -حقًّا- مثيلًا

للأوروبي المتحضر، وتحديدًا ثقافة الإنجليز التي تحمل النور والخير للعالم. هذا الرجل، فتنه الشرقُ، جاب البلدان حتى رأى في المحروسة مستقرًّا ومتاعًا، ولم يكتف بذلك؛ بل تحمس للجهود الوطنية لأبنائها، كما تحمس رجال ونساء من إيطاليا وسويسرا، بل ومن الهند وما يجاورها».

علا هدير جماهيري دلالة على الاستحسان، فسكت عرابي هنيهة، ثم تابع: «آخر جهود صديقنا هارش تطوعه للوساطة بيننا وبين إدوارد ماليت، القنصل الإنجليزي في مصر، بخصوص الخلاف حول مخصصات وزارة الجهادية في الميزانية الجديدة. ولا أخفي عليكم، شعرتُ بكثير من الإحباط جراء إصرار كولڤن على تخفيض الرقم الذي قدمناه، الخلافُ كان خطيرًا، وأنذر بصدام وشيك، خاصة وأن الجميع يعلمُ أن سقوط تونس قبل شهور في يد الفرنسيين كان بسبب قلة عدد أفراد الجيش التونسي. ونحن كل طلباتنا كانت زيادة الاعتمادات المالية لنصل بعدد جيشنا إلى العدد المذكور في الفرمان العثماني؛ ثمانية عشر ألف جندي. ولكن هارش داوم على التأكيد أن كلام كولڤن ضمانة ويوثقُ به. فوافقت».

ومضت بذهني على الفور عبارة كولڤن الغامضة لأفندينا: «لا تشغل بالك بذلك سموك، دع لنا هذا الأمر». وتذكرتُ ما أخبرني به علي فهمي عن العلاقات الرفيعة للإنجليزي تيم هارش مع الساسة الإنجليز. هل كان كولڤن يرمي لتوسيط هارش حينها؟ ونزعت نفسي من خواطري عائدًا لصوت عرابي الرخيم: «حاولتُ تجاوز إحباطي مُذكرًا نفسي بأن من صبر ظفر. وأكدتُ لهارش أن مخاوف الإنجليز لا داعي لها،

وأن الجيش سيصبر، ولن يقوم بمظاهرة عسكرية جديدة. وأنا أمامكم جميعًا أعيد شكر هارش على مساعدته في نزع فتيل الأزمة، والخروج من هذه الورطة».

تعالى التصفيق من جموع الحاضرين، ولفتت نظري تعبيرات هارش، وهو يزوغُ بنظراته من الجميع، كما لو يعاني من إحراج جم.

***

(1882)

(10)

يومُ إجازتي الأسبوعية، الجمعة، دخلتُ قاعة الاستراحة خارج مكتب الأميرالاي أحمد عرابي، بنظارة الجهادية. حتى هذه اللحظة لا أصدقُ استدعاءه لي البارحة. الضابطُ الكبير، أمل المصريين، طلب مني أن أكون مترجمه الخاص في اجتماعه الهام اليوم مع تيم هارش.

كيف كان يتواصل سابقًا إذن مع الرحالة الإنجليزي؟ أجابني علي فهمي بأن الشيخ الهجرسي يقول إن هارش مستواه في العربية ليس متقدمًا كفاية، ولكنه يتعلمُ منه بنجابة، لذلك كان يتطوع بمهمة الترجمة بين عرابي وهارش، ولكن الآن ومع حماسة الأزهريين وتضافر جهودهم لأجل الأزهر الجديد، بات أكثر انشغالًا، فتم طرحُ اسمي الذي لاقى ترحيبًا من الضُباط الوطنيين.

اسمي أنا لاقى ترحيبًا! كم أندهش لمنح الأقدار ولطفها.

ودخل في هذه اللحظة عرابي بحضوره المميز، وبجواره تيم هارش بابتسامته الهادئة الرزينة، قدرت سنَّه ببداية العقد الرابع. هببتُ قائمًا متوترًا، لا أصدقُ أنني سأكون في غرفة مغلقة مع عرابي. رغم أنني اعتدتُ على اجتماعات أفندينا، إلا أن هيبة عرابي تفرضُ نفسها بشكل مدهش. ووجدت نفسي أندمج سريعًا معهما بعد عبارات المجاملة المعتادة،

ولج هارش فيما جاء من أجله مباشرة، فخاطب عرابي بجدية يشوبها شيء من التوتر: «تعلمُ علاقتي الطيبة مع المسؤولين الإنجليز، سواءً هنا في مصر، أو حتى في لندن». ترجمتُ ما قال، فأومأ عرابي برأسه مُصغيًا، فاستطرد هارش: «الإدارة الإنجليزية هنا تنظر بعين الرضا إلى ما لمسته مع بدايات العام الجديد من تعاون طيب ملحوظ بين كل القوى العاملة في مصر. سرها أن الجيش قد هدأ واعتدلت لهجة الصحافة تحت رقابة محمد عبده. وأرجعت ذلك لشعور النظار الوطنيين أنهم يمارسون عملهم بأريحية، وبلا ضغوط؛ حيث لم يعد يهددهم الخطر من أي اتجاه. حتى إن القنصل ماليت كتب إلى اللورد جرانفيل -رئيس وزراء بريطانيا- يقول: (لأول مرة منذُ سبتمبر الماضي، سمو الخديوي توفيق غدا متهلل الأسارير وبحالة نفسية طيبة، وينظر للموقف نظرة أمل وتفاؤل. بدا أن سموه قبل الموقف عن طيب خاطر)».

ترجمت ما قال، فيما أرصد تزايد القلق في نظرات هارش وهو يقولُ: «وكذلك راقبت الإدارة البريطانية كيف تعدون مسودة القانون الأساسي الذي تنوون بواسطته إعطاء البلاد حرياتها المدنية».

انتفخت أوداجُ عرابي: «تقصد مسودة القانون الذي يعدُّه محمد باشا شريف رئيس النظار، بخصوص نطاق واختصاصات مجلس النواب؟».
أومأ هارش برأسه بعدما ترجمتُ عبارة عرابي، ثم قال: «المسؤولون الإنجليز هنا يعلمون أن أغلب النواب يعارضونها، ولا يستسيغون من الأصل وضع المراقبة المالية الأجنبية الفريد في البلاد، التي تشرفُ على كل ما يختص بالديون على الدول. وإنه نظرًا لكون فائدة الدَّين تقدر بحوالي نصف الدخل المصري، فإنهم يصرون على وجوب خضوع النصف الآخر لتصرف ورقابة الأمة».

فرك عرابي طرف شاربه: «لماذا يبدو لي كما لو أن الإدارة الإنجليزية تحضر معنا جلسات البرلمان؟!».

تابع هارش: «إصرار النواب على زيادة سلطاتهم الرقابية، وخصوصًا في مسألة مراقبة الدخل القومي المصري بالسيطرة على نصف ميزانية الدولة، لا يروقُ أبدًا للمراقبين الماليين، الإنجليزي والفرنسي».

ترجمتُ ما يقال وعيناي مركزتان على تيم هارش. انبثق لدي شعور أن هذا الرجل يعلمُ بأكثر مما يبدي، بدا لي كما لو أنه يحمل أنباءً ثقيلةً، ولكنه يتلطفُ في قولها، أو يمهد لها!

ووجدتُ نفسي أتدخل في الحديث دونما مقدمات، مُخاطبًا عرابي: «رئيس النظار يأتي للقصر كثيرًا بطبيعة الحال، ومما حضرته من لقاءاته مع الخديوي، أنه كان يشكو من تعنت النواب ومعارضتهم لمشروعه، هو برر بأنه كرجل سياسي، كان يؤمن بأن السياسة فن الممكن وليس المأمول، أما النواب والوطنيون فيريدون طرق الحديد وهو ساخن، والفوزُ بكل المزايا أو أغلبها، طالما بقي ذلك متاحًا. شريف باشا قال لجناب الخديوي إنه ليس هكذا تورد الإبل. هو يفضل سياسة الخطوة خطوة، لقد صارح الخديوي صراحةً بضعف مصر وأبنائها حاليًّا أمام أي تحدٍّ جاد أمام القوى الأوروبية». وسكتُّ لحظات، ثم قُلت بارتباك: «لذلك يرى محمد باشا شريف ضباط الجيش متعجرفين وخشنين، بلا أسباب موضوعية».

أطرق عرابي ناظرًا للأرض، ساورني خزي مفاجئ، شعرتُ أنني تحدثتُ بما لا يحقُّ لي. كان هارش يرمقني مُستحثًّا لإعادة ما قلتُ بالإنجليزية. وما إن انتهيتُ حتى لمعت عيناه، وقال: «هذا قريب جدًّا من رأي مسؤولي إنجلترا هنا». رفع عرابي رأسه إلينا، وقال بهدوء:

«أعلم أن رئيس النظار رجل وطني، ودستوري عتيد، ومدنيته تغلب عليه. ولكننا كذلك لنا مسوغات لطلباتنا».

عاد القلقُ لنبرة هارش: «يجب أن تعلم عرابي أن معارضة دولتَي إنجلترا وفرنسا ليست بالشيء القابل للتغلب عليه. لا فكرة لديك عما يُعد في العاصمتين، وينتظر أقل فرصة مواتية للإعلان عنه!». انتقل التوتر لعرابي بعدما ترجمتُ له، فيما استطرد هارش: «وهذا في الواقع السبب الأول لمجيئي هنا الليلة». وأخرج ورقةً مطويةً ناولها لي، مكتوبةً بديباجة رسمية إنجليزية. قرأتها سريعًا، شعرت بالسخونة تفح من وجهي، ولكن ذلك لم يمنعني من ترجمة محتواها سريعًا في ورقة، وناولتها لعرابي الذي قرأها على مهل، وكأنما يعيد كل سطر، ثم وضعها جانبًا وأولانا ظهره. هبط الصمتُ والوجومُ علينا، طال، حتى قطعه عرابي بصوت مشحون النبرات: «هل تعلم مستر هارش رد فعل نواب البرلمان، أو الشعب المصري نفسه، إن ذاع خبر هذه المذكرة المشتركة؟».

قال هارش مُتلطفًا: «ماليت شدد عليَّ أن أؤكد لك ألا تأخذ المذكرة بمعناها الحرفي، وإن من أكبر المزايا التي يجدر الانتباه إليها أن الحكومة الإنجليزية لن تسمح للخديوي بالتعرض للبرلمان، أو عرقلة أعماله. وكذلك لن تسمح للسلطان العثماني بالتدخل في شؤون مصر». قال عرابي بصوت يموجُ بالانفعال: «تنص الوثيقة على تحمل فرنسا مسؤولية البدء بإنزال قواتها العسكرية في مصر، بالاشتراك مع إنجلترا، ويبدأ ذلك بمظاهرة بحرية أمام الإسكندرية، فيما تقومُ فرنسا بإنزال القوات». وارتفعت نبرة صوته: «ثم تقول لي إن التهديدات الواردة بالمذكرة المشتركة غير عدائية! وأنها ليست تهديدًا بالمعنى الحرفي، وكأنها مجرد لغة

دبلوماسية! لا بد من أن السير إدوارد ماليت يظن بحق أننا أطفال لا نفقه معاني الكلمات!»، وصمت لحظة ثم استطرد: «المذكرة كلها لغة تهديد، تهديد جسيم لحرياتنا. إنها تؤكد على أن سياسة فرنسا وإنجلترا صارت واحدةً، فإن احتلت الأولى تونس، فالثانية ستفعل المثل بمصر». وضرب سطح المكتب بيمينه: «دعهم يأتُون. وسيرون منا ما يرهبون. ولكننا لن نبادر بالضربة الأُولى، سنتركها لهم، سنتحملها. لأننا لا نبادر بالعدوان، ولكن بعد ضربتهم سيرون منا العجب العجاب».

لم تُوفَّق ترجمتي الهادئة في تخفيض التوتر الجاثم بالحجرة. انتهى اللقاءُ بجفاء وإعراض مستتر من عرابي لهارش الذي بادر بالاستئذان مُغادرًا. ووجدتُ نفسي أحاول اللحاق به، سايرتُه في هرولته، وسمعته وهو يجمجم، لا أعلمُ يخاطبني أم يخاطب نفسه: «طبعا تفسير ماليت للمذكرة ليس سوى هراء وكلام فارغ. تبًّا! كم جعلني أستشعر الغباء والحماقة أمام عرابي». وسبقني بخطواته حتى ابتعد عني. راقبته لثوانٍ ثم عدت لعرابي. يبدو أن الأيام القادمة ملبدة بغيوم قاتمة.

***

في المساء كنتُ أنتظر آرلين أمام قصر سنجق باشا، طرب قلبي مع نزولها في تمام ميعادها، كم يروقُ لي التزام الأوروبيين بمواعيدهم، لمعت عيناها اللمعة التي أحبها حينما التقت نظراتنا، أطرقتُ للأرض في حياء ساحر وهي تسير جواري. تبادلتُ معها كلمات قليلةً حتى جلسنا جلستنا المفضلة في أكبر حدائق شبرا. ويبدو أنها استشفت ميلي للصمت، فسألت عن ذلك، فأجبتُ باقتضاب: «ثمة تعقيدات في العمل». قالت: «في القصر الخديوي؟».

قُلت: «بل موضوع حضرته مع أحمد عرابي». اتسعت عيناها مبهورةً: «كنت برفقة أحمد عرابي؟!».

ابتسمتُ، وأخبرتها ما جرى عصر اليوم، لم أخفِ عنها شيئًا، هي تتفهمُ القضية المصرية بحكم تتطلع بلدها آيرلندا للاستقلال كذلك عن بريطانيا، ولكني اندهشتُ جدًّا حينما قالت: «والداي في (ليميرك) يصران على إرسال الصحف الإنجليزية بريديًّا إليَّ بانتظام، وأظن أن لدي طرفًا من جوانب هذه المسألة».

قلتُ مندهشًا: «لديك صحف إنجليزية صادرة من لندن، وليست صادرةً من مصر؟». قالت باسمة: «أستفيد منها كذلك في تدريب أحفاد سنجق باشا على القراءة بطلاقة». ثم قالت ضاحكةً: «تخيل أن الشائع عن ملككم توفيق في الصحف الإنجليزية أنه ضعيف، وجبان. وجيشه معادٍ له. وحريم قصره يكرهونه!».

اندهشتُ جدًّا من قولها، طلبتُ منها الاستزادة، فبدا كما لو سرها اهتمامي، فاعتدلت قائلةً: «بخصوص المذكرة التي حملها هارش، أعتقد إن منشأها نجم عن تحريض فرنسي في الأصل». نظرتُ إليها متسائلًا، فاستطردت: «ثمة موضوع يتكرر كل عدة سنوات يهم جدًّا كلًّا من إنجلترا وفرنسا، وهو تجديد الاتفاقية التجارية بينهما. هذا الموضوع من أهميته أنه قد يقيمُ حكومةً، وقد يسقطها».

قلتُ: «وما علاقة هذا بمصر؟». قالت باسمة: «الاقتصاد يا عزيزي، الاقتصاد هو كل شيء في أوروبا، ربما هذا المصطلح مبهم نوعًا ما هنا؛ لكننا في آيرلندا نفطن لمعناه، وإلا ما تركت بلدي وجئت إلى مصر لزيادة دخلي».

لم تزدني كلماتها فهمًا، فقالت: «سأذكر لك ما قرأت أولًا: «بين إنجلترا وفرنسا مصالح مالية وسياسية شتى، والحروب بينهما في الأصل قديمة قدم الدهر، ومؤخرًا بدا كما لو أن الدولتين باتتا تتجنبان كل ما يؤزمُ علاقاتهما ما أمكن، لتتجنبا استنزاف قوتيهما بعضهما على بعض، وتوجهانها ضد بلدان أخرى، طلبًا لمكاسب إضافية. لذا، ثَمَّ وجه سياسي بارز في إنجلترا حاليًّا، هو السير شارلز ديلك، أعتقد أن سنه تسعة وثلاثون عامًا، هذا الرجل يشغل منصب وكيل وزارة الدولة للشؤون الخارجية، وعضو برلمان المملكة المتحدة في دورته الثانية والعشرين، هذا الرجل يقومُ بجهود حثيثة لتمرير الموافقة على تجديد الاتفاقية التجارية في البرلمان البريطاني، وذلك عبر مباحثات رسمية وتنسيق مع جامبيتا شخصيًّا».

تساءلتُ: «ومن جامبيتا هذا؟».

أجابت مندهشةً: «رئيس وزراء فرنسا». ثم استطردت: «قد قرأتُ في آخر جريدة وصلتني أن جامبيتا أصدر بيانًا رسميًّا في باريس، 24 ديسمبر الماضي، بشأن قرار بلاده بالقيام بمظاهرة بحرية مع إنجلترا أمام سواحل الإسكندرية، تعضيدًا للمذكرة المشتركة، ولتقوية مركز الخديوي توفيق، وإحباط مثيري الشغب».

تساءلتُ: «مثيري الشغب؟!».

قالت مترددةً: «يقصدون الوطنيين».

حملقتُ فيها بغير استيعاب، فقالت: «باختصار شديد، جامبيتا يحاول إغراء بريطانيا بتجديد اتفاقيتها التجارية معه، مقابل إغوائها بمصر؟

وذلك بالتعاون مع شارلز ديلك الذي سوف يستفيد من ذلك لأغراض انتخابية».

قلتُ: «ما معنى إغوائها بمصر؟».

قالت كالمترددة: «ألم تفهم بعد؟ المقصود احتلالها».

وسقط عليَّ قولها كطوبة ثقيلة فوق رأسي!

* * *

(11)

قضيتُ أيامًا أُفكر في كلمات آرلين، هل أخبر أفندينا؟ هل أخبر خاير باشا؟ بل هل أُخبر عرابي؟!

لا أظن بي الجرأة لمفاتحة أي منهم في هكذا موضوع.

ولم أؤدِّ أعمالي جيدًا طوال اليوم، كنت شاردًا أغلب ساعاته، فلم أنتبه لمناقشات داوود وفايز الصاخبة حول مناقشة البرلمان لقانون سلطات المجلس المُقدم من رئيس النظار محمد باشا شريف. النقاشُ اليوم 17 يناير، أظنه في سبيله للانتهاء، أو انتهى فعلًا.

لم أكن لأنتبه بالمناسبة أصلًا لولا حديث زميليَّ بالمكتب. ومع انتهاء العمل وخروجي من السراي وجدتُ أحد الجنود جوار حنطور، وقال لي أن الأميرالاي أحمد عرابي ينتظرني في نظارة الجهادية. اندهشتُ، صعدتُ الحنطور واجمًا، ولم أنبس ببنت شفة، فيما جلس المجند جوار الحوذي. حينما وصلنا تقدمني الجندي إلى مكتب عرابي، المجند لا يعلمُ أنني كنتُ هنا قبل أيام. دلفتُ للحجرة فوجدتُ هارش جالسًا إلى طرف الأريكة مهمومًا، لاقاني مُصافحًا وأخبرني أن عرابي في الحجرة المجاورة.

لم تمضِ دقائقُ وقدم علينا ليصافحنا بحرارة، ثم قال لي متوترًا: «أعلمتَ بنتيجة اجتماع البرلمان اليوم؟».

شعرت بالحرج لجهلي، فهززتُ رأسي بخجل، فجلس عرابي إلى رأس مكتبه، وقال: «تعلمُ أننا بعد مباحثات مطولة مع إخواني الضباط،

رأينا الإذعان لصوت العقل، وعدم الإصرار على مراقبة الميزانية، على الأقل في هذه الدورة، لئلا نعطي إنجلترا وفرنسا الحجة التي ينتظرانها لتصعيد الأمور في مصر، وأقررنا هذا بالاتفاق على التنسيق مع رئيس مجلس النواب محمد باشا سلطان، لتمرير الموافقة على قانون شريف، وامتصاص معارضة الأعضاء المتوقعة قدر الإمكان». وصمتَ لحظات، ثم قال مغتاظا: «وصارت الأمور في المجلس كما نريد، الأعضاء كانوا في سبيلهم لإقرار الموافقة؛ لكننا لا نعلمُ من أشاع بغتة -وفي اللحظات الأخيرة- في المجلس خبر المذكرة المشتركة، وتهديدات فرنسا وإنجلترا بالتدخل. وهو ما جعل الأعضاء يستشيطون غضبًا، ويتوقد داخلهم الحس الوطني، ليستبد بهم العناد، فتراجعوا عن الموافقة، بل وقدموا مبادئ أولية لمشروع مضاد لشريف، يوسعون فيه سلطات المجلس بأضعاف السابق، ليزداد بذلك الشقاق والخلاف، ويستفحل».

كان هارش يرمقنا في قلق، ثم قال بالإنجليزية مُخاطبًا عرابي: «لقد جئتُ توًّا من مكتب إدوارد ماليت، الرجل كان ثائرًا جدًّا بعدما علم بتحدي أعضاء البرلمان السافر، وأراني قرارًا موقعًا سيُنشر قريبًا بتعيين مفتشين ماليين على شؤون الخزانة المصرية، أحدهما إنجليزي، والآخر فرنسي».

ترجمتُ ما قال لعرابي، فاكفهر وجهه، وقال: «ستكون وزارة شريف باشا في ورطة كبيرة، سواء رفض أو قبل! أما البرلمان؛ فلسوف يشتعل!».

علق هارش: «ليس ذلك ما يشغلني، ماليت صار يتجنبني، ولا يرحب بوجودي، ذلك ليس له سوى معنى واحد». حملق عرابي في هارش بعدما ترجمت عبارته، فأردف: «إن قرار مجيء الأسطولين الإنجليزي والفرنسي لسواحل الإسكندرية في سبيله للتطبيق الفعلي».

صاح عرابي: «فليفعلوا ذلك، وليروا منا ما يجعلهم يندمون! لن نقاومهم في مصر فقط، بل سيقاومهم المسلمون في شتى الأصقاع، بدءًا من الهند، وحتى مصر».

زاغت نظرات هارش، ثم نهض قائمًا: «أعتقد أن وجودي هنا لن يفيد القضية المصرية بالقدر نفسه لو عدتُ إلى لندن». حملق به عرابي، فأردف: «ما زالت لدي علاقات بوزارة الخارجية، كما لدي معرفة شخصية برئيس الوزراء البريطاني وليام إيوارت جلادستون، سأحاول مقابلته، لأوضح له العواقب الوخيمة للتدخل العسكري في مصر».

وجم عرابي، ثم صافح هارش قائلًا: «لن ننسى أبدًا جهودك الصادقة لأجل الحرية مستر هارش». أومأ هارش برأسه شاردًا، ثم حيانا برأسه، وخرج مُسرعًا. نظرت نحو عرابي، ثم رويتُ له بالتفصيل ما علمته من آرلين بخصوص ما قرأته بالصحف الإنجليزية، فهز رأسه في تعب وقال: «قد أخبرني تيم هارش بكل ذلك». ثم رفع رأسه بغتة تجاهي: «قد أوحيت لي بفكرة! ما رأيك في إنشاء قسم خاص هنا في النظارة، يختص بترجمة كل الأخبار ذات الصلة في كل من فرنسا وإنجلترا؟».

أومأتُ برأسي، ومدحتُ هذه الفكرة. فبادرني: «على أن ترأس أنت قسم الترجمة الإنجليزية». اندهشتُ للتكليف، وقُلت مُتلعثمًا: «هذا شرف كبير؛ لكني... بالكاد أفي بمتطلبات وظيفتي في السراي و...»، قاطعني: «لذلك سيكون عملك معنا غير رسمي. مع ذلك، لا تجزم بقرار الآن، فكِّر، ثم رُد عليَّ».

أومأتُ برأسي. ثم استأذنتُ في الخروج ما لم يُردني في أعمال أخرى، فأشار لي شاكرًا. خرجت، غادرت النظارة، وعقلي من التشوش في غاية.

***

نقدت المكاري أجره بعدما أنزلني أمام دار عرابي، وأنا أفكر في آرلين، كيف أُقرب المسافات؟ كيف أقنعها بالارتباط؟ بل كيف أخبرها أصلًا؟ أخشى ردة فعلها إن عبَّرت عن مشاعري بشكل خاطئ. وبينما أنا غارق في خواطري، إذا بجذبة عنيفة تقتلعني من مكاني. حفظتُ توازني بصعوبة لئلا أسقط على الأرض، رفعتُ وجهي فإذا برجل مُجلبب فارع الطول ضخم المنكبين، ثخين الرقبة، ذي شارب أسود طويل كأنه هلال مبروم. صمدي! هل بلغت كراهيته لي أن شرع في الترصد والتعرض لي؟! وعاجلني مُهاجمي بنظراته الجاحظة، وصوته الأجش: «ألمحك دائمًا تدخل لبيت أمل الأمة». اضطربت، هل يقصد عرابي؟ أنى له العلمُ بميعاد قدومي إليه، ما لم يتعقبني فعلًا!

وتابع صمدي وهو يضع أصابعه الثخينة فوق مؤخرة عنقي: «أدخلني داره، أبغي حضور مؤتمره».

حملقتُ به بغير فهم، أردف وهو يشد صدر جلبابه إليه في اعتزاز: «أريد التباهي بأنني رأيته رأي العين، وحضرت مجلسه».

قُلت: «وفيم احتياجك لي؟ لماذا لا تدخل بنفسك؟!». اتسعت عيناه: «هل بعقلك شيء؟! هل تراهم يسمحون لقروي مُجلبب مثلي بالدخول، وأنا أرى كل الداخلين أفندية يرتدون أزياء الفرنجة؟».

هنا انتظمت أنفاسي، واستعدت روعي، يا لك من رجل ضخم ساذج. وعدلت هندامي، وأنا أفكر كيف أخبره بأن عرابي ذاته قروي ابن قروي، ولا يمنع أحدًا من زيارته، لأن ببساطة كل الطبقات تزوره وتستمع لخطبه.

وبعد أن أخذتُ نفسًا عميقًا، تهيئة لخطاب طويل، وجدتُ نفسي

أسحبه من يده وأنا أقول في تسليم: «لا بأس، سأدخلك هذه المرة. حينما يرونك معي سوف يتاح لك الدخول بعدها وحدك بلا أية مشاكل».

حدجني صمدي بنظرة متوترة متشككة، لم يمنعه ذلك من متابعتي بخطوات لم تخلُ من تردد. دخلنا بسلاسة طبعًا. لا ريب أرجعها صمدي إلى أنني رجل خطير ذو نفوذ! جعلت أرقب ملامح رفيقي الضخم ونظرات الانبهار فوق وجهه. قررتُ التمادي في إبهاره، فسحبته لأجلسه في الصفوف الأولى. لحسن حظه قام أحدهم لشأن ما، فأجلسته بسرعة مكانه. جلس صمدي مبهورًا فاغرًا فاه، يرمقُ المنصة القريبة وقد نسى وجودي تمامًا. ابتعدتُ عنه لأجلس في الجهة العكسية من نفس الصف. كان على المنصة عرابي وعبد الله النديم والبارودي شخصيًّا الذي كان في هذه اللحظة يصدحُ بصوته الرجولي الرصين، بأبيات من أشعاره:

فمُر بالذي تهواه فالسعد قائم بما تشتهي والله بالنصر كافلُ
فقد تصدقُ الآمال والحزمُ رائدٌ وتقترب الغاياتُ والجد عاملُ
يعم الرضا ما قام بالحق صادع وتبقى العلا ما دام للسيف حاملُ
فما كل من راض البديهة عاقلٌ ولا كل من خاض الكريهة باسلُ
ولولا اختلافُ الناس في درجاتهم لعادل قُسا في الفصاحة باقلُ
له بدهات لا تغب وعزمة مُؤيدة تعنو إليها الجحافلُ
وأيقظت ألباب الرجال فسارعوا إلى الجد حتى ليس في الناس خاملُ
فيا أيها الصادي إلى العدل والندى هلُمَّ فذا بحر له البحر ساحلُ
مليك أقر الأمن والخوفُ شامل وأحيا رميم العدل والجور قاتلُ

واستغرقتني الأبياتُ، عادت بي لأيام الكُتَّاب، ومعلمي الشيخ بدير الذي طالما أسمعنا أبياتًا لشعراء من العصر العباسي الذي كان مغرمًا به.

وعدتُ إلى أبيات البارودي وسحرها، وقد حملتني إلى آمال -علمتُ لاحقًا- ما كان يجدر بي التطلع إليها.

***

تغير حال البلاد من الأمل والهدوء إلى الاستنفار والغليان. على مدى أسبوعين تأججت الصحفُ بالعناوين القوية المحفزة، انبرى عبد الله النديم الصحفي الفصيح والخطيب المفوه في كل مكان وبضراوة غير عادية، يفضحُ المناصب العالية التي صارت حكرا على الأجانب، خاصةً الفرنسيين والإنجليز، وبمرتبات أضعاف أضعاف ما يتلقاه المصري صاحب البلد، والأنكى أنها بأرقام لا ينالها الأوروبيون أبدًا في بلادهم ذاتها.

تبارت الجرائد في فضح مدى سيطرة الأجانب -ولا سيما من فرنسا وإنجلترا- على قطاع السكك الحديدية. تم تركيزُ الضوء على انتقال إدارة الأملاك إلى أيدي ممثلي روتشيلد، أحد كبر دائني مصر.

انتشرت بين الناس فضيحة التسعة آلاف جنيه الإنجليزية التي يجري دفعها كل عام لدار الأوبرا الأوروبية في القاهرة التي افتتحها إسماعيل، ومدى الإسراف وغياب الأولويات عند واضعي الميزانية.

لم تكُف صحيفة «الطائف» عن شن حملات صحفية مركزة على بيوت الدعارة والخمارات، ومغنيات المقاهي المبتذلات، وسائر ما غزا القاهرة في ظل وجود الأجانب المُنحلين. باختصار، شعر الجميع -الجالياتُ الأجنبية قبل الوطنيين- بتنامي الشعور العدائي تجاههم. ولم يكن ذلك

جيدًا لماليت وكولڤن اللذين باتت زيارتاهما للخديوي شبه يومية، وأفندينا أمامهما حبيس مُحاصر في الركن.

الأدهى -وغير المفهوم- أن الخديوي أعلن رسميًّا في الثاني من ربيع الآخر 1299هـ، الموافق 2 فبراير 1882م، قبوله المذكرة المشتركة المُرسلة من إنجلترا وفرنسا، رغم ذيوع الأنباء عن استقالة رئيس الوزراء الفرنسي جامبيتا -قبلها بيومين فقط- بعد رفض برلمانه الموافقة على تجديد الاتفاقية التجارية مع بريطانيا!

جُن المثقفون والنخبة الوطنية، وعادت الاجتماعاتُ الجماهيرية بصورة محمومة في بيت عرابي، الجميع يتساءل عن سرعة خضوع الخديوي، وأسباب عدم رفضه للمذكرة، أو احتجاجه أو حتى إبداء التلكؤ والتسويف.

بدا لي الجميع، وفي كل المواقع، في حالة انعدام وزن. كل فصيل يقدمُ مبررات ودعاوى مختلفة، ولا علاقة لها بما تقوله الأطرافُ الأخرى، كأن مصر صارت جزرًا متباعدة، لا علاقة لإحداها بالأخرى!

ولأن نواب البرلمان ليس بوسعهم مساءلة الخديوي، صبوا جام غضبهم على نظارة محمد باشا شريف، مستغربين عدم مراجعته للخديوي أو قيامه بأي تصرف، أمام تهديد المذكرة المشتركة الصريح بالتدخل العسكري، وتهديد السيادة الوطنية المصرية.

ولم يأت صباح الرابع من فبراير إلا وتفاجأت -مثلي مثل سائر المصريين- بتصدر خبر استقالة حكومة شريف عناوين الصحف، بسبب الأوضاع القائمة!

***

ضوضاء صاخبة، أصوات قرقرة نراجيل، ملاعق تصطك بأكواب، سعال يختلط بضحكات، شبورة من دخان معسل تفاح تُدفئُ هواء المقهى، في الخلفية صوت لكوَلة يعزف بها رجل جالس إلى الزاوية لحنًا شجيًّا. كنت سعيدًا بهذه الأجواء في مقهى «ماتاتيا» بميدان العتبة الخضراء، ثمة مناخ عام من البشر يطفو على وجوه الناس. وانتبهت على رجل عجوز مُجلبب يتأبط صندوق مسح أحذية يدنو ناحيتي، أشرتُ له مُتلطفًا بعدم حاجة حذائي للتلميع، ولكنه أخرج صحيفة «الطائف»، وأشار إلى صورة محمود سامي البارودي على إحدى صفحاتها، وقال راجيًا: «أستحلفك بالله يا سيدنا الأفندي، اقرأ لي ما يجاور الصورة». وضعتُ كوب الشاي الذي قارب على النفاد فوق الطاولة، ألقيتُ نظرة سريعة على المكتوب، ثم قرأتُ باسمًا: «وزارة الثورة»، والتفتُّ مُوضحًا للعجوز الذي افترش الأرض جالسًا فوق صندوق الأحذية: «هذا العنوان الرئيسي»، ثم تابعت: «أول رئيس نظارة في التاريخ لا يعيِّنه الخديوي بـ...»، قاطعني العجوزُ مندهشًا: «لا يعيِّنه الخديوي! من عيَّنه إذن؟!». أشرتُ له باسما بأن يصبر فيما أتابع القراءة: «بعد أن جاء الاختيار والتعيين من مجلس النواب».

سمعتُ صوتًا جواري يعلو سائلًا: «من شغل نظارة الداخلية؟». أجاب عني رجل يرتدي حلةً كاملةً جالس عند مدخل المقهى: «محمود باشا البارودي طبعًا»، وبصق في منديله القماشي، ثم طواه بأناقة فيما يردفُ: «هذه العادة منذُ زمن، من يتولى رئاسة النظارة يتولى تلقائيًّا نظارة الداخلية». وقال آخر: «ليس وحده الذي جمع بين منصبين، مصطفى باشا فهمي جمع كذلك بين نظارتي الحقانية والخارجية».

قُلت: «وأحمد باشا عرابي جمع بين نظارتَي الجهادية والبحرية». قال كهل مُندهشًا: «كنت أظنهما نظارةً واحدةً»! فيما علق العجوزُ المتأنقُ: «أحب أحمد عرابي، ولكن ما هي سابق خبرته كي يتولى نظارة البحرية؟!».

فاجأني تساؤل الرجل، وقبل أن أنشغل بالتفكر فيه، قال آخر: «علي باشا مبارك غاب اسمه، هذا الرجل كان نزيلًا دائمًا في النظارات».

«أيًّا كانت الأسماءُ بالوزارة الوطنية، يكفي أنها جاءت بالارتياح والقبول من مختلف الدوائر، المدنية والعسكرية؛ لأنها كانت تحقيقًا لرغبة الأمة، ومعقد الآمال»، قال شاب أزهري جالس خلفي، ثم استطرد: «حسبها أنها كانت عند حسن الظن، فأعلنت الدستور بعد يومين فقط من تسلُّمها المسؤولية، بلا تلكؤ أو تسويف، أو مراعاة مُمضة لحسابات لا تنتهي»!

قال العجوزُ المتأنقُ عند مدخل المقهى: «فعلًا، هكذا لم يجد الخديوي مناصًا من إصدار مرسومه بإعلان الدستور فعلًا في 18 ربيع الأول 1299هـ الموافقُ 7 فبراير 1882م».

قال ماسحُ الأحذية الجالس على الأرض مسرورًا: «ترون أنها تستحق إذن لقب نظارة الثورة؟». تداخلت العبارات في ردودها، إلا أنني ميزت عبارة: «نعم، لأنها حققت رضا الشعب والجيش كليهما».

تساءل ماسحُ الأحذية مُندهشًا: «الشعب والجيشُ! لماذا تتحدثون وكأنهما طرفان؟! أليس جيشنا أصلًا من الشعب؟!». وقال العجوزُ المتأنقُ مُتنهدًا: «كم أتوقُ لليوم الذي يصفو فيه الجيشُ المصري، فلا يبقى فيه إلا المصريون فقط دون الچراكسة، أو الأتراك، أو سائر القادة الأجانب الذين لا أعلمُ من أين يأتون، حتى يصير فعلًا قطعة من نسيج

الشعب المصري، فلا نفصله في القول كما الآن، فنقول الشعب والجيش؛ كلًّا على حدة».

لمست العبارة وترًا وجفت له نبضاتُ قلبي، تُرى من أنا فعلًا؟ مصري أصيل، أم جذوري الچركسية تنفي ذلك؟... واستغرقني التفكير في الإجابة، حتى همتُ مع سحب دخان النراجيل متباينة الروائح.

بيد أن مع عودتي إلى مسكني، ومع ما تلا ذلك من أيام، رأيتُ ما بدَّد تمامًا تلك النبرة التشاؤمية. بعد أن انتشر يقين غامض مفعم بالتفاؤل بين الكل، أن مصر مختلفة تنتظر الجميع، الخديوي الشاب يمثل مستقبل مصر الفتية، والحكومة الوطنية التي تحكم، والتي جاءت أخيرًا على هوى الشعب المصري، تنبضُ بنبض وطني نقي أصيل، لم يعد للأجانب فيه مزيد من نفوذ.

ها قد حكم الثوار، وآلت إليهم مقاليد الأُمُور.

الأنفُس مُتأججة فوارة، والأعناقُ مُشرئبة تتطلع للمستقبل، والسواعد متأهبة، تتوق لإثبات نجاح حُكم أول ثورة مصرية في العصر الحديث.

(12)

سرادق كبير يليقُ بالحُضُور الخديوي، الزينات مزدانة فوق العواميد السامقة، جمع كثيف من الناس يحيق بالموقع الذي يعج بالشخصيات الهامة، قناصل دول، أعيان القوم، وفوق كل هؤلاء الخديوي وأمراء أسرته. المناسبة الاحتفال بتدشين توصيل الخطوط التليفونية بين القاهرة والإسكندرية، وإن كان في الواقع هذا قد تم فعلًا العام الماضي، ألف وثمانمائة وواحد وثمانون، وإنما ما يجري حقًّا هو تحول اسم الشركة من الشركة الأميركية المُساهمة التي أنشأت الخطوط، إلى اسم شركة التليفون الشرقية.

لقد تفقدت هذا الاختراع العظيم بنفسي، جمعنا خاير باشا مع صفوة موظفي السراي، وتسلَّى بعلامات الانبهار على وجوهنا، ونحن نستمع لصوت بشري آخر، على بعد مئات الكيلومترات، يحدثنا ونحدثه، في نفس اللحظة!

كان الطرف الآخر بقصر رأس التين، حيث تم تدشين آلة التليفون فيه منذ عام ألف وثمانمائة وتسعة وسبعين.

القُنصل الأميركي في كلمته أثنى على إدارة أفندينا للبلاد، التي جعلت مصر في مصاف الدول الرائدة على مستوى العالم في استخدم التقنية التي اخترعها جراهام بيل، وقدم براءة اختراعها في الرابع عشر من فبراير لعام ألف وثمانمائة وست وسبعين، لينشئ شركة هواتف باسمه في العام التالي،

وخلال أقل من ست سنوات، يجري تدشين هذا الاختراع العظيم للربط بين القاهرة والإسكندرية، بما يجعل المدينتين في مصاف المدن الأولى المتقدمة عالميًّا المسايرة لكل ما هو علمي وجديد.

صفقت الجماهير، وتوالت الكلمات، حتى انفض الاحتفال، وناداني خاير باشا لأدوِّن بعض الملاحظات يمليها أفندينا بنفسه، وفيما أفعل، قدم علينا إدوارد ماليت، المراقب الإنجليزي، وخاطب الخديوي بحديث خافت، لم ألتقط منه شيئًا ذا بال، حتى ارتفع صوت أفندينا فجأة محتدًّا: «طبعًا ذلك غير مقبول»!

تبادلت مع خاير باشا نظرات واجمة، فيما ارتفعت نبرة ماليت لتصير أكثر وضوحًا: «سموك هذا ما طالما حذرتك منك. وزراء حكومة البارودي يعملون بطريقة مغايرة لكل من سبقوهم، يتواجدون بين الجماهير، يهتمون بالشكاوى ويتابعونها بأنفسهم، يقللون من الضرائب. باختصار يحسنون من نوعية الحياة للمصريين. وهذا خطر داهم على أسرة محمد علي، فالمصريون لن ينسبوا هذه النجاحات لسموك، إنما لحكومة البارودي التي أطلقوا عليها الحكومة الوطنية، من فرط شعورهم أنها منهم، وهم منها».

ثم دنا منه قائلًا: «لا مصلحة لك إن أتى الخير للمصريين من أي طرف سواك».

حملقت به غير شاعر بتعبيراتي، فيما يردف ماليت: «وأؤكد لك، نُظَّارك لا يضمرون لك خيرًا».

استشعرت الحيرة في نظرات أفندينا، وهو يقول: «لكنهم يتعاملون معي بكل احترام وتبجيل».

تصلبت قسمات ماليت: «سموك، إني أحدثك عن صراع وجودي، بين الوطنيين الذي يمثلهم عرابي، وأسرة محمد علي. من دواعي إخلاصي أن أحذرك رسميًّا من مغبة اعتياد المصريين رخاء الحريات، والعدل والأمن، خصوصًا في ظل وجود أمثال عرابي. في علوم الاجتماع، المرء إن ذاق هذه النِّعَم عض عليها بالنواجذ، وتكون دونها حياته».

قال الخديوي توفيق محتارًا: «إذن، ماذا ترى؟». قال ماليت بغموض: «قد حدثتك عن الحلول مسبقًا، ولكن سموك متردد في القبول، رغم أن بريطانيا شرعت فعلًا في إجراءات تنفيذها».

بدا الانصياع على ملامح أفندينا، فسحبه القنصل الإنجليزي بأناقة مبتعدًا عنا، لينفردا بحديث لم أعلم عنه شيئًا.

***

قبعتُ منتظرًا أن يأذن لي السكرتير بالدخول. عمي كارم شقير أرسل برقية لاستدعائي. هذا أمر نادر جدًّا. للأسف لا أرى عمَّيَّ كارم وفاضل إلا في المصائب، المصائب التي أقع فيها أنا طبعًا. أرجو ألا أكون قد فعلت شيئًا موجعًا.

جعلت أتأمل السجادة الفاخرة شاردًا، حتى سمعت السكرتير يناديني. قمت وأنا أحبس أنفاسي. استقبلني عمي بابتسامة هادئة في جلسته وراء مكتبه، لم يقُم لي، ولم أجرؤ على التقدم إليه. أشار لي بالجلوس، هممت بالقعود إلى أحد المقعدين أمام مكتبه؛ لكنه لوَّح رافضًا، ثم أشار للأريكة الطويلة الملاصقة للجدار المواجهة له. جلست إليها، وبادرني عمي ببعض الأسئلة الروتينية. كنت أجيب فيما أترقب متى يفتح موضوع

الأزمة التي لا أعلمها. وانتبهت على عبارة كارم باشا: «آن الأوان أن تتزوج يا مظهر».

قال عبارته وهو يرمقني بالطريقة التي طالما أرهبتني. تلعثمت، فقال: «وضعك الوظيفي تحسن أخيرًا على غير عادتك في كل ما مضى. أخبارك تصلني أولًا بأول. على فكرة، أظنك تلعب على حبال الجميع».

شعرت بحرارة لاهبة تتصاعد من وجهي، فضحك الرجل ضحكة مجلجلة: «لا تتوتر، هذا جيد يا ولد. المهم أن تحسن فعلها».

لم أفهم تمامًا إلام يرمي، ولكني صببت تركيزي على النقطة الأهم، فقلت: «كارم باشا، لم يتحسن دخلي بعد لإنشاء أسرة، و...»، قاطعني بصرامة:

«مظهر! هل تظن وقتي يسمح بهذه الدلع؟! بالمناسبة، آرلين أوجستين لن تتخذها زوجة».

خفق قلبي بشدة، لا أقبل كلامه، ولكن أنَّى لي إبداء ذلك؟ وقبل أن أفكر في وسيلة مناسبة، انفتح الباب بعد دقَّتين سريعتين، دخل السكرتير، وقبل أن يلفظ بكلمة، دخل في أثره ضابط في العقد الخامس، بادي الثورة، يصيح: «لا يمكن أن يستمر هذا الوضع، محال»!

والتفتَ يسارًا فانتبه لوجودي، أطبق فمه واجمًا، فأشار عمي للسكرتير ليخرج ويغلق الباب، ثم قال بأريحية: «هذا چركسي مثلنا، ابن أخي، فلا تقلق».

زفر الرجل وهو يشيح بوجهه عني: «ليس كل الچراكسة چراكسة. عندك محمود البارودي، أو راشد حسني، رغم أنهما چركسيان، ومن كبار ضباط الجيش، إلا أنهما لا يوليان القضية الچركسية أدنى اهتمام».

تأملت رتبة الرجل فوق كتفيه، كانت هلالًا ذهبيًّا ونجمة ذهبية مرصعة بالألماس. هذا الضابط قائمقام. وعاد الرجل لصياحه الانفعالي آنيًّا: «الضابط الفلاح يصر على سياسته في إلغاء الفوارق بيننا وبين الضباط المصريين، بل ومساواتهم بنا».

قال عمي كارم بوداعة: «حتى المساواة بهم باتت حلمًا عسير المنال. ألم تعلم بعد بالقرار الأخير؟».

جحظت عينا القائمقام الثائر: «ماذا جرى؟!».

قال عمي بنفس النبرة الناعمة: «حركة ترقيات كبيرة أُقرت اليوم، جميعها للضباط المصريين».

زمجر الضابط: «والچراكسة؟».

عمي: «جميعهم تم استبعادهم من الترقيات».

ضرب الضابط بقبضة يساره راحة يد يمينه: «كيف ذلك؟ أليس كلنا مصريين؟!».

نظرت إليه في دهشة حقيقية، فيما غمغم عمي وكأن الأمر لا يعنيه: «ما زالت أصداء القرار الأخير بنقل عدد من كبار الضباط إلى العمل في السودان مدوية لم تهدأ بعد».

ضاقت عينا القائمقام: «طبعًا، ما دام اقتصر النقل على الضباط الچراكسة دون غيرهم». وجعل يدور في الحجرة منفعلًا: «يجب عليهم التمسك بمعارضة القرار وعدم السفر، يجب».

وددت لو أشترك في الحوار، ولكن هيبة عمي، وانفعال الضابط، جعلاني أحجم. مالي والتدخل بين اثنين من العسكريين؟!

وخاطب القائمقام الثائر عمي: «أنت تعمل في الإدارة العليا لدائرة الجهادية، ولديك مقادير أملاك الجيش، وتعلم جيدًا ما يخطط عرابي ورفاقه لاسترداده منا رويدًا رويدًا»!

وقال بنبرة عصبية: «لطالما كنا أسيادًا لهذا الشعب، لمئات السنين حميناهم بدمائنا، لا يصح أن تكون عاقبة ذلك اقتلاع مكتسباتنا أو زعزعة هيبتنا». وكوَّر قبضته مجمجمًا: «هذا الوضع لم يعد من الممكن إرجاؤه، أو السكوت عليه».

رنَّت عبارته في أذنيَّ وكأنها تفيض وعيدًا. ثم ضرب سطح مكتب عمي بقوة: «محال! هذا عرقنا وعرق أجيال من قبلنا، هذه دونها الرقاب».

ندت نظرة متنمرة من عينَي عمي، لا أظن من عبارة الضابط بقدر ما أظن من خبطته على المكتب. وبالفعل ارتبك الضابط للحظة وهو ينظر لعمي الذي تلبدت ملامحه، وارتفع صوته قاسيًا: «حضرة الضابط! لا تقل بمكتبي عبارات من هذا النوع».

تراجع القائمقام خطوة للوراء، فيما التفت لي عمي، وقال بحزم: ««سأستدعيك لاحقًا يا مظهر أفندي. بوسعك الانصراف الآن».

قمت مترددًا، كنت مرتاحًا في الواقع، هذا الضابط صرف عني إقرار ما كان يريده عمي. أعلمُ أن الشر آتٍ آتٍ، عمي لا يترك أبدًا ما يقرره. ولكن حتى ذلك الحين، لعل مخرجًا يظهر لي.

وغادرت الغرفة، وقد شغلني القلق على علاقتي بآرلين عن كل ما تفوه به هذا القائمقام الثائر.

***

انتظرتُ طويلًا داخل قلم المحفوظات بنظارة الجهادية، حتى انتهى الموظف من تسجيل كل الأوراق التي سلَّمتها إليه. ما إن أخذت منه أذون الاستلام حتى هرولت خارجًا، بدأت أفكر جديًّا في التملص من هذه المهام، خاصة عند هذا المستخدم البطيء لدرجة تصيب بالفالج.

في الممر لمحت أحمد عرابي ناظر الجهادية خارجًا، أطرقت برأسي مسرعًا من خطواتي، لا أطيق احتمالية أن تلتقي نظراتنا ويتجاهلني، ذلك يحرجني جدًّا. ومررت جواره سريعًا وتخطيته.

«مظهر أفندي».

أوقفتني العبارة والصوت الرخيم، التفت فوجدته يقبل عليَّ مصافحًا: «ابن حلال والله. للتو خرج من عندي من أثار داخلي عاصفة من التساؤلات، وقبل أن أفكر في إجابتها؛ فإذا بي أجدك أمامي».

ابتسمت غير عالم بالضبط إلام يرمي، ولكنه عاجلني: «هلم معي، وسأشرح لك كل شيء». واصطحبني بخلق كريم فأجلسني بجانبه في العربة الحنطور الفخمة التي يجرها جوادان، ونسيم الغروب يهب علينا. بعد أن تحركت العربة بضعة أمتار، بادرني عرابي: «قل لي يا مظهر أفندي».

التفت إليه متهيبًا، تابع: «علمت أنك چركسي».

غمرني بالتوتر، قلت: «نعم، أنا ذو أصل چركسي». قال عرابي بنبرة حميمية، بعثت داخلي الاطمئنان: «هل تسمح لي وتحدثني عن الچراكسة؟ أصلهم، طباعهم، أساطيرهم».

حملقت به مندهشًا، في الأصل أشعر بالتوتر لقربي من رجل بحجم عرابي، يفصل بيننا أقل من نصف متر. استجمعت أنفاسي،

وقلت مستوضحًا: «تقصد بصفة عامة؟ أنا لست متخصصًا في تاريخ الچركس، أو غيرهم».

أومأ برأسه باهتمام، فتنهدت، ثم قلت: «(الآنت) لا يعرف الكلل، ولا الملل».

حملق بي عرابي، ثم ردد: «الآنت»!

قلت: «هذا مثل چركسي قديم، متداول بين الچراكسة»، ثم أوضحت: «قيل لي في صغرى إن (الآنت) هو اسم قبيلة قديمة عظيمة، هي أم القبائل الچركسية، ومنها انسل الچركسيون إلى أنحاء العالم. والمثل يمدح في الچركسي وصفاته».

كان عرابي يصغي إليَّ، فسررت لذلك، وتابعت: «أول من استقدم المماليك الچركس رسميًّا هو السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، لا أتذكر العام تحديدًا؛ لكن ربما كان عام ألفٍ ومئتين وثمانين ميلادية».

غمغم عرابي: «أي منذ ستمائة عام تقريبًا».

تابعت: «قيل إن قلاوون أنزل المماليك الچركس في أبراج قلعة صلاح الدين، فصار اسمهم من يومها المماليك البرجية، كان يقصد بذلك إبعادهم عن المماليك الأتراك الذين كانوا في (الطباق) أو الثكنات العسكرية المخصصة لهم في القلعة. وكانت عناية قلاوون بالمماليك الچراكسة الجدد سببًا في خلق بداية التنافس العنصري بين الچراكسة والترك».

طلب عرابي من السائق أن يتوقف، تهادت بنا العربة إلى أن توقفت بنا جوار النيل مباشرة. نزل عرابي، وأنا في أثره، لفحتني هبة هواء أخرى

باردة، ولكن منعشة، تأملت المراكب الشراعية التي تمخر عباب النيل، وانعكست النجوم فوق صفحة مائه. شملتني راحة جميلة، ثم سمعت صوت عرابي يحثني أن أتابع، فقلت وشعور من الحياء يتسلل إليَّ: «أخبرني عمَّاي كارم وفاضل أن السلطان المملوكي برقوق هو مؤسس دولة المماليك الچراكسة التي حكمت مصر، والتي استمرت حتى قنصوة الغوري وطومان باي، حيث أنهاها العثمانيون». ثم لذت بالصمت، فقال لي عرابي: «هذا كل شيء؟».

تفكرت قليلًا، ثم تذكرت: «نعم، من أشهر مؤرخي مصر الچراكسة جمال الدين يوسف بن تغري بردي، صاحب المصنفات التاريخية الموسوعية الكبيرة».

لمحت شبح ابتسامة مشفقة فوق ثغر الرجل، تبخرت آنيًّا، وهو يقول: «اعذر أسئلتي المتلاحقة يا مظهر أفندي. ولكن كان غرضي معرفة سر تعالي الچراكسة، وانعزالهم عن المصريين، أو فصل أنفسهم عنهم». وقبل أن أعلق، أردف عرابي كالمتردد: «ولا تؤاخذني، ما أكثر من تعاملت معهم من الچراكسة؛ لكنك شكليًّا لا تشبههم البتة».

أربكني تعليقه، في الواقع أنا كذلك لفتت نظري الملاحظة ذاتها، أو بالأحرى آرلين هي من لفتت انتباهي لذلك. واخترت تجاهل تعليقه الأخير وأنا أعقب على ما قاله بشأن عجرفة الچراكسة: «لعل السبب أن طائفة كبيرة منهم اعتادوا على المناصب الكبرى، وحيازة الأراضي والأموال الطائلة». التفت إليَّ باهتمام: «تقصد أنهم يرون فينا نحن المصريين مصدر تهديد لأملاكهم التي لم يولدوا بها، وإنما اكتنزوها من خير مصر والمصريين؟».

نظرت إليه في حيرة، فربت على كتفي، وولَّى وجهه شطر النيل: «لقد وردتني قبل ساعات معلومات خطيرة للغاية».

شحذت عبارته انتباهي، تابع: «قابلني اليوم ميرلواء طلبة عصمت، قائد اللواء الأول، بمكتبي بالنظارة. هذا الرجل أحد قادة الحركة الوطنية البارزين». وصمت برهة، بدا كما لو أنه لا يجد التعبير المناسب، ثم جمجم بغتة: «أخبرني أن ثمة خطة يدبرها الچراكسة لاغتيالي».

ارتفع في هذه اللحظة وقع حوافر جوادين يقتربان. لوهلة ظننت أنني لم أسمع عبارته الأخيرة جيدًا، ولكن عرابي تابع: «ليس أنا فقط، بل مع أسماء أخرى من ضباط الحركة الوطنية، بالإضافة لنظار ثوريين معنا في نظارة البارودي».

خفق قلبي بقوة مباغتة، شعرت بتقلص في أمعائي مع تذكر ما دار من حديث بمكتب عمي كارم شقير. قلت متلعثمًا: «ورغم ذلك تتجول هكذا بلا حراسة؟».

رفع منكبيه: «لا أظن الچراكسة يبلغ بهم الحمق لهذا الحد، خاصة وأن...».

بغتة انطلق صوت مدوٍّ كأنه الانفجار، التفتُّ فوجدت عرابي يدفعني صائحًا: «توارَ»!

واكتشفت أننا نتعرض لإطلاق نار!

***

لولا دفعة عرابي لبقيت جامدًا كتمثال. تكومت حاميًا رأسي بيديَّ.

كل شيء جرى سريعًا، انطلقت رصاصتان أو ثلاث، ثم ركض الجوادان مبتعدين. بقيت على وضعي حتى أعانني عرابي على النهوض، وملامحه مكفهرة: «الجبناء! أفرغوا رصاصاتهم ومضوا سريعًا». بقي لساني معقودًا، فتغيرت ملامحه إلى القلق: «مظهر، هل أصابك شيء؟».

تحسست جسدي، لا أشعر بشيء، هل البرودة عمت المكان فجأة؟ أم ذعري السبب؟

وجاءنا الحوذي لاهثًا: «لقد رأيتهما، لقد رأيتهما».

سأله عرابي بصرامة: «صفهما؟».

أجاب الحوذي فورًا: «كانا ملثمين. وجههما كان مغطى بكوفية». وأشار إلى ما يحيط برقبته: «مثل هذه، ولكنهما استخدماها لتغطية نصف ملامحهما».

سمعت صوت طرقعة قوية، سابت ركبتاي فورًا، علمت لاحقًا أنه مجرد حوذي آخر مار. يا للإحراج! أسرع عرابي وسائقه يسندانني، ثمة شعور وكأن صدغيَّ ينضغطان للداخل، برودة شديدة تكتنفني. وكان آخر ما سمعته قول عرابي: «احمله معي للعربة».

***

طوال أسبوع كامل والصحف ليس لها اهتمام سوى تتبع تحقيقات محاولة اغتيال عرابي، أو ما اصطلح عليه بعد ذلك بالمؤامرة الچركسية. بعد أن تبارت الجرائد في نشر أسماء الضباط الذين يقبض عليهم دوريًّا، وكان جميعهم من الچراكسة!

في الأيام الأولى كنت لا أفوِّت قراءة كل موضوع عن محاولة الاغتيال، عسى أن يُذكر اسمي؛ لكن كل المواضيع لم تنشر سوى اسم عرابي. الوحيدة التي أظهرت تجاهي العطف اللازم كانت العزيزة آرلين. نظرات عينيها، لمسات يدها. يبدو أنها الوحيدة التي ستفتقدني إن غبت عن هذا العالم.

المثير أن رئيس الديوان الخديوي خاير باشا حينما كنت أنتظره ريثما يمهر بعض الأوراق بتوقيعه، كانت ملامحه كدرة مهمومة، سألته إن كان ثمة خطأ بشغلي، فأزاح الأوراق جانبًا، وقال لي: «إن صدقت الأنباء في أن للخديوي السابق إسماعيل يدًا في المؤامرة، فلن يكون ذلك خيرًا قط».

اندهشت وقلت: «الخديوي إسماعيل! ألم تجزم الصحف بأن الجناة ضباط چراكسة في الجيش؟».

بدا كما لو يفكر بصوت عالٍ: «لقد تأكد لنا دخول سكرتيره الخاص راتب باشا البلاد الشهر الماضي. قد يكون الهدف من المؤامرة إعادة الخديوي السابق للعرش».

أمسكت لساني، وفكرت أن أعرف الحقائق من مصدرها...

من أحمد عرابي، أو حتى علي فهمي...

(12)

كنت ألملم أوراقي توطئة للخروج بعد انتهاء أفندينا من إملاء بعض الأوامر السنية، عندما دخل الحاجب ليعلن انتظار سير إدوارد ماليت الإذن بالدخول.

دهش الخديوي توفيق، وخاطب خاير باشا رئيس الديوان: «ليس من عادة القنصل الإنجليزي القدوم بغير ميعاد»!

تجهم وجه المهردار ولم يعقب، أشار أفندينا للحاجب، فدخل ماليت وعلى وجهه سيماء الخطورة، حيا الخديوي بطريقة رسمية، وبادر بالقول: «آثرت القدوم لسموك لتسمع الخبر مني شخصيًّا».

بدا الترقب على وجه أفندينا، فقال ماليت مباشرة: «الأسطولان الإنجليزي والفرنسي على وشك الدخول للمياه الإقليمية المصرية».

قال الخديوي كالمستغرب: «قد أعلمتني سلفًا بتحركهما».

نقر ماليت الأرض الرخامية بعصاه ذات رأس الأسد: «سموك، في غضون يومين ستكون القطع البحرية الحربية قد اتخذت مواقعها أمام ساحل الإسكندرية. بدءًا من هذه اللحظة، ما بعدها لن يكون كما قبلها».

ساد صمت مشوب بالتوتر. قطعه صوت ماليت: «على سموك اتخاذ قرار نهائي في الجهة التي ستركن إليها للأبد».

وجال بنظراته في وجهي الخديوي ورئيس ديوانه، ثم قال: «لا يخفى عليك طموح الخديوي السابق –إسماعيل– الذي لا يفتر للعودة للحكم،

وتدبيره للمؤامرة الچركسية خير دليل. والأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي، يبذل جهودًا لا تفتر، إذ لا يزال يرى أن العرش كان من حقه بعد خلع الخديوي السابق، طبقًا لفرمان 1840. سموك يعلم أن وجهة نظره صحيحة، لولا ما قامت به بريطانيا من أجل تنصيب سموك على عرش مصر».

اضطربت ملامح أفندينا. شعرت بالحنق على هذا الجلف الإنجليزي السمج. الذي تابع: «ووزراء حكومتك هم أخطر من كل ما سبق. فبيدهم مقدرات الدولة، وقد أعلنوا بغضهم لك على الملأ، خاصة في مؤتمر عرابي الجماهيري الأخير. الحديث عن عدم شرعيتك بات علنيًّا، وسموك يعلم أن بوسعهم تمامًا نزعك من الحكم، ما لم...»، وصمت برهة، ثم أردف: «أن تشاء إنجلترا غير ذلك».

ساد صمت ثقيل، خُيل إليَّ أنني أسمع أنفاس الجميع، حتى خرج صوت أفندينا متخاذلًا: «ماذا تريدني أن أفعل؟».

قال ماليت بهدوء: «دع لحكومة المملكة المتحدة اتخاذ القرارات عنك في الفترة المقبلة، ريثما يتهيأ لقواتنا ترسيخ حكمك، وإنهاء كل ما يتهدده».

ردد أفندينا: «اتخاذ القرارات عني؟».

قال ماليت: «مصر يتهددها خطر وجودي، خطر خارجي»، واكفهرت ملامحه: «منابع النيل مهددة بالخطر».

حملق أفندينا في وجه ماليت الذي تابع: «وصلتنا معلومات أن الحبشة تتهيأ لحرب جديدة مع مصر. حرب لا قبل لجيشكم بها. قبل ست سنوات انهزم الجيش المصري أمامهم هزيمة مخزية في معركة جورا».

انبرى رئيس الديوان: «عاتق الهزيمة يتحمله الضباط الأميركان،

خاصة (لورينج) رئيس أركان الجيش المصري حينها، لقد رأى القائد المصري راتب باشا البقاء في حصن جورا، ولكن لورينج أصر على منازلة العدو في الوادي المفتوح، وحينها تحقق ما توقعه راتب باشا، ووقعت الكارثة».

قال ماليت: «الجيش الإنجليزي مختلف. مصر تحتاج للعناية البريطانية، وحكومة المملكة المتحدة لن تسمح بهزيمة أخرى لمصر. لذا؛ أنتم تحتاجون الجيش الإنجليزي. وهذا يستدعي أن تكون القرارات من لندن».

قال الخديوي: «والحكومة؟ حتى مع معاداة بعضهم لي، إلا أن منهم من لا يزال على ولائه للعرش».

هز ماليت رأسه نفيًا: «لم يعودوا وزراءك. وما من أحد منهم يضمر لك ولاء. الصواب إقالة هذه الحكومة. واعلم أن ذلك يجب أن يتم بدهاء، ومساومات. وريثما يتحقق ذلك، يجدر بسموك بدء التفكير في أعضاء الحكومة المقبلة».

امتقع وجه أفندينا، فعاجله القنصل الإنجليزي: «بطبيعة الحال، الأيام المقبلة سيأتون يطلبون لقاء سموك. ارفض. لا يجدر بك أبدًا التواصل معهم بعد الآن».

بدا أن خاير بك سيتدخل في الحوار، ملامحه تنبئ بالاعتراض، ولكن ماليت تابع: «لم يعد على سموك الثقة بهم أكثر من ذلك، وقد رأيت نبرة مخاطبتهم لك وصلت لأي مدى في اجتماعهم الأخير معك. هذا لا يليق أبدًا، إنهم يخاطبون حاكم مصر»!

حتى الإنجليز بارعون في التأجيج. هذا الرجل أظنه نجح بامتياز في إيغار صدر الخديوي ضد نظارة الوطنيين.

وقال ماليت: «أقترح على سموك الانتقال لقصر رأس التين. محور الأحداث سيتحرك من الإسكندرية في الفترة المقبلة. وهناك ستكون أكثر أمنًا، ستتولى قوات المملكة المتحدة حمايتك بنفسها، لئلا تتكرر أحداث محاصرة قصر عابدين سبتمبر الماضي».

وانتهى اللقاء. ولم أعلم بماذا تتربص لنا الأيام.

***

دخل بي الأميرالاي علي فهمي إلى مكتب أحمد عرابي بنظارة الجهادية. كان منكبًّا على ورقة. ما إن لمحني حتى قام وصافحني باحترام رفيع، ثم قال: «ابن حلال. جئت في وقتك يا مظهر أفندي»، وناولني ورقة: «فضلًا اقرأ على مسامعي هذه البرقية، وبتأنٍّ من فضلك».

قال علي فهمي بنبرة قانطة: «لا حاجة لذلك، الترجمة بالفعل على مكتبك».

تناول عرابي ورقة أخرى من فوق مكتبه فيما يشير إلينا بالجلوس. جلست وعيناي تقرأ البرقية، بينما علي فهمي يقول: «لقد جلبت مظهر أفندي ليخبرك بنفسه عما رآه في سراي عابدين، لتتأكد أن محتوى البرقية غير مبالغ فيه».

قال عرابي: «(هارش) ديدنه التهويل. حتمًا ثمة لبس ما. ما معنى أن وزير الخارجية البريطاني اللورد إيرل جرانفيل قال في البرلمان الإنجليزي إن سلطان باشا والنواب قد انضموا إلى جانب الخديوي في مواجهته لنا؟!».

وابتسم في وجوهنا، وبوجه منشرح قال: «الإنجليز دهاة، لعلهم يدعون هذا الادعاء فقط ليوقعوا بيننا وبين رئيس البرلمان».

نظرت لتاريخ البرقية، إنه السادس عشر من مايو. هذا تاريخ الأمس. وسمعت صوت علي فهمي: «نحن العرب قد نبالغ أو نهول؛ لكن ليس الأجانب، وليس شخص منضبط يزن كلماته جيدًا مثل هارش».

قال عرابي: «يا رجل! كيف لرجل ذي ماضٍ وطني عريق مثل محمد باشا سلطان أن يتعاون مع الإنجليز؟! هل تتصور أن يلقي نضاله الوطني السالف في صفيحة القمامة بهذه البساطة».

قال علي فهمي: «الرجل في النهاية بشر. وسلطان يحب السلطة، ويجب أن تعترف أنك نزعت منه الأضواء، ولم يعد كالسابق ملكًا عرفيًّا للصعيد. يا رجل، الناس باتت تتوجه إليك بالشكوى بعد أن كانوا لا يبرحون بيته»!

بدا الضيق على ملامح عرابي ولم يعقب. فواصل علي فهمي: «حسنًا، لا تريد الاعتراف بأنه يحقد عليك، أنت حر! ولكن هل تنكر أنه تغير منذ خلت وزارة شريف من اسمه، ألم يتبرم فأعطيناه رئاسة البرلمان لإسكاته؟ ثم جاءت نظارة البارودي لتواصل عدم إعطائه مكانًا في النظارة، ثم...»، قاطعه عرابي:

«يا علي، هناك الكثير مناسبون لمنصب النظارة؛ لكن قليلين جديرون برئاسة البرلمان. من كان سيرأس البرلمان حال أعطيناه منصبًا وزاريًّا؟!».

هز علي فهمي رأسه: «ليتك واجهته بهذه الأسباب». قال عرابي: «أواجهه بماذا؟! محمد باشا سلطان تكفل بي ورعاني وقتما كنت شابًّا صغيرًا، لم أكن من أصول اجتماعية عالية، الرجل لم يتعالَ عليَّ، بل دفعني دفعًا، هل يجوز بعد ذلك أن أخاطبه وكأنني بموضع اليد العليا؟!».

قال علي فهمي: «لا وجود لهكذا اعتبارات في دنيا السياسة».

تنحنحت، كنت أشعر بالحياء من التدخل في حوارهما، إلا أنني أشرت لفقرة بالبرقية: «مكتوب هنا أن محمد باشا سلطان انضم إلى صف أفندينا. السيد هارش يقترح عليك فقط أن تطلب من محمد باشا سلطان أن يرسل إليه برقية تنفي ذلك».

ارتسم الانزعاج على ملامح عرابي: «وكيف أفعل؟! هذا رجل ذو مقام رفيع، في سن والدي، كيف بهذه البساطة أذهب إليه أطالبه بإرسال برقية لرجل إنجليزي تفيد بعدم خيانته؟!».

ساد جو متوتر، وقال علي فهمي: «يا عرابي، ما ورد بالبرقية خطير خطير! على الأقل اعمل بنصيحته وشكِّل نظارة جديدة يرأسها محمد باشا سلطان. هارش رجل ذكي، فطن لحب سلطان للسلطة، فرأى أن نتألف قلبه بمنحه ما يريد، لنكتسب ولاءه».

اكفهر وجه عرابي: «وماذا نفعل بالبارودي؟! هذا الرجل رفيع الثقافة والخلق. كيف أواجهه بهكذا طلب؟!» ثم لوح بكفه: «لا لا، ليس هكذا تدار الأمور». وصمت برهة، ثم لوح بذراعيه: «قبل أيام، في هذا المكتب، أتى إليَّ رئيس النظار، وأخبرني -على غير العادة- أن رسالة لطيفة أتته من جناب الخديوي، تحمل توصية معززة لتعيين عمر باشا لطفي بمنصب محافظ الإسكندرية. وقد تأثر البارودي بهذه اللفتة، ورأى فيها فرصة طيبة لتلطيف الأجواء مع السراي، وإرضائه ولو لمرة. رغم أنني عارضت صراحة تعيين عمر لطفي، الرجل ماضيه لا يجعله جديرًا أبدًا لمنصب بهذه الخطورة. البارودي أكد لي أن لطفي لا يمكن أن يبيع الحزب الوطني وقضاياه؛ بل وتوسم فيه النشاط والهمة كما هي مقتضيات منصب المحافظ».

تدخلت في الحوار: «بحسب معلوماتي، تعيين المحافظين يخضع لسلطة مدنية وليس عسكرية، وتحديدًا لسلطة ناظر الداخلية الذي يفترض أن يكون مدنيًّا في الأصل، وتعيين المحافظين ليس من سلطة ولا اختيار ولا مسؤولية ناظر الجهادية». لوَّح عرابي بكفه: «على كل حال تم تعيين عمر لطفي، كما أوصى جناب الخديوي».

أشار لي علي فهمي وكأنما يستحثني على الحديث. استجمعت إرادتي وقلت: «بالفترة الماضية تزايدت زيارات قنصلَي فرنسا وإنجلترا، لقد سبق وأعلمتكما بذلك. ولكن هذه البرقية جعلتني أربط بين ما ورد بها، وبين زيارات من رئيس البرلمان إلى الخديوي... في وجود إدوارد ماليت».

قال علي فهمي مُخاطبًا عرابي: «أرأيت؟».

سألني عرابي: «هل حضرت هذه اللقاءات؟». قلت بنبرة خافتة: «على غير العادة، لم يُسمح لي بتسجيل محاضرها».

غزا القلق ملامح عرابي للحظات، ثم هز رأسه وكأنما ينفضه عنه: «هذا لا يثبت شيئًا».

سمعنا طرقات رتيبة على الباب، ثم دخل السكرتير: «حسن باشا شريعي ناظر الأوقاف بالخارج، يطلب الإذن بالدخول».

قام عرابي ليدعوه للدخول بنفسه، صافحنا ناظر الأوقاف باقتضاب، ثم أخرج ورقة وناولها لعرابي: «هذه البرقية وصلت لأبي يوسف، وبطرس باشا، ومحمود باشا الفلكي؛ أبرز أعضاء الحزب الوطني»، وأخرج ورقة أخرى: «وهذه وصلت لعديد من أعضاء مجلس النواب».

جلس عرابي إلى مكتبه، ووضع البرقيتين أمامه، إلا أن حسن باشا شريعي عاجله: «كلتاهما بنفس المحتوى»، وتناول برقية وقرأ:

«هل الحزب الوطني متفق حاليًّا على أحمد عرابي؟ لأن الحكومة الإنجليزية في لندن تدعي العكس».

تبادل عرابي وعلي فهمي النظر، فيما تابع ناظر الأوقاف: «إذا ضيعتم اتحادكم وتفرقتم فإن أوروبا سوف تضمكم إلى أملاكها».

أطرق عرابي: «هارش لا يضيع وقتًا، لقد أنفق ثروة على إرسال كل هذه البرقيات».

وقال حسن باشا: «عديد من أعضاء الحزب الوطني وأعضاء البرلمان جاءوا لمقابلتي بخصوصها، لقد أثارت قلق الجميع». لوح عرابي بكفه: «هارش رجل ذو حماسة مفرطة، قبل قدومك كنت أقول إنه يبالغ على الأغلب».

ومض في ذهني حديث آرلين، وعلى غير العادة انطلق لساني مباشرة: «أعتقد أن السيد هارش يقصد بطلبه من النواب وأعضاء الحزب الوطني إرسال برقيات تفيد تأييدهم لأحمد باشا عرابي، أن يبرز ذلك أمام الإعلام والبرلمان الإنجليزي، ليدحض مزاعم تفيد عكس ذلك على الأرجح».

قام عرابي، ذرع الحجرة مجيئة وذهابًا: «إن صح هذا الافتراض؛ فلا يحق لبريطانيا مناقشة شؤوننا الداخلية على هذا النحو السافر!». قال حسن باشا شريعي: «سلطان القوة يبيح كل شيء يا أحمد باشا». وقال علي فهمي بنبرة قاطعة: «والعمل؟».

وهبط على الحُجرة صمت ثقيل.

* * *

(13)

وقفت فوق سطح قصر رأس التين، الهواء متدفق منعش، البحر يمتد أمامي بلا حدود، المنظر ساحر، لولا خط أفقي من البوارج الحربية مختلفة الأحجام مصطفة على مرمى البصر!

بجواري خاير باشا رئيس الديوان، مكفهر الوجه، عيناه معلَّقتان حيث السفن. قبل لحظات أخبرني أننا سنذهب باكرًا في زورق إلى الأميرال (بوشامپ سيمور)، حاملين رسالة شخصية إلى قائد الأسطول الإنجليزي.

طفقت أتأمل القطع البحرية التي تشغل الأفق، ثم سألته: «هل يفترض لهذه السفن أن تكون بهذا القرب؟».

قال: «المفترض أنها قريبة ظاهرة هكذا بغرض بث الرهبة والتهديد».

قلت: «التهديد لمن؟ لقد سمعت ماليت يقول إنها لدعم عرش الخديوي».

بدا الامتعاض على وجه المهردار، ثم أشاح بوجهه مغمغمًا: «لقد أتى أفندينا إلى هنا على مضض، فقط بسبب إصرار القنصل الإنجليزي».

أدهشني ما سمعت، سألته عن السبب، فشبك يديه وراء ظهره وقال: «أسرة محمد علي باتت تتطير من هذا القصر، خصوصًا في الظروف المتأزمة»، وحدق في وجهي المتفجر دهشة على الأرجح، ثم أسهب: «هذا القصر شهد وفاة مؤسس حكم هذه الأسرة، محمد علي باشا، في 2 أغسطس 1849. كذلك

-لا تنس- قبل ثلاث سنوات فقط، شهد القصر نفسه إجبار الخديوي السابق، إسماعيل، على الرحيل من مصر، حيث استقل يخته وغادر للأبد».

قلت في حذر: «ولكن الأوروبيين راضون عن أفندينا هذه المرة، بل ويحمونه علانية، وبتحدٍّ. ففيم القلق؟».

نفخ خاير باشا بنفاد صبر. هل يعلم شيئًا ويخفيه عني؟ طبعًا ليس من الحصافة الضغط عليه، فهممت بالاستئذان في النزول، ثم خطر لي سؤال طرحه لساني بلا تفكير: «جناب المهردار، لماذا لم تتركوني في القاهرة، لأتابع لكم أخبار عرابي وجماعته؟». رماني بنظرة جانبية، ثم قال: «إنهم هنا يا مظهر أفندي». كررت مندهشًا: «هنا؟!».

قال: «منذ دخول البوارج الحربية الإنجليزية والفرنسية للمياه المصرية في العشرين من مايو الجاري، وذلك الصحفي المشاغب عبد الله النديم، يجوب مقاهي الإسكندرية، يؤلب المصريين على أفندينا، ويدَّعي تهاونه في السيادة المصرية والعثمانية، بسماحه بدخول السفن الإنجليزية والفرنسية لتقف بهذا القرب في مياه الإسكندرية».

وصمت هنيهة ثم قال: «هو ليس وحده، معه كبير تجار القاهرة، الرجل الذي نشك في أنه على علاقة وثيقة بالأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي».

قلت: «من هذا الرجل؟».

قال: «حسن موسى العقاد»، وصمت وهلة ثم أضاف: «ومعه آخرون». ثم واجهني: «مظهر أفندي. بخلاف مهامك الأساسية في قلم

المعية الخديوية، أنت مكلف منذ هذه اللحظة بالوجود في كافة المقاهي التي يحضر بها هؤلاء، لتنقل لنا كل ما يدور فيها».

وجال بنظراته في البحر الممتد أمامنا وقال: «أنت وجه مألوف للجماعة الوطنية، لذا؛ سيكون وجودك غير مثير للشكوك، وسيتحدثون في وجودك بأريحية». وضاقت عيناه وهو يحدثني: «أريد أن أعرف حدود قدراتهم، منتهى تطلعاتهم، حدود إيمانهم بالمدى الذي يستطيعون الوصول إليه».

أومأت برأسي، تقلصت معدتي، ومزيج من التوتر والتشوش يغشيان تفكيري.

***

هواء ليل الإسكندرية دائمًا يسحرني، به درجة برودة تخفف من دفء المقهى المعبأ بدخان النراجيل متباينة الروائح. لا يفصل بيننا وبين رمال شاطئ الشاطبي إلا طريق تكسوه الحجارة. عبد الله النديم انتهى للتو من خطبة تتوقد حماسة، قسمات من حولي توشي بتأثر جارف. أظن خطيب الثورة -كما يطلق عليه- نجح في توحيد القلوب نحو عرابي. هكذا ظننت حتى سمعت كهلًا معممًا يرفع صوته متسائلًا: «كلامك جميل يا سيدنا، ولكن بما أنك مُقرب من رجال الثورة، هلا أخبرتنا عما أعدوه لمواجهة السفن الأجنبية المحتشدة على سواحلنا؟».

عدلت من وضع مقعدي لأرى أثر السؤال على وجه النديم؛ لكن حسن موسى العقاد بادر بالإجابة: «المعركة دبلوماسية بالأساس، نظارة البارودي لا تدخر جهدًا في فضح هذا الانتهاك أمام دول أوروبا المتحضرة، عبر كل وسائل الـ...»، قاطعه رجل مُجلبب قوي الشكيمة،

يسند يديه فوق نبوت ثخين: «يا رجل قل كلامًا نفهمه! أنت جالس في مقهى شعبي، لا صالون من صالوناتكم!».

وسمعت صوتًا متحشرجًا يأتي من آخر المقهى: «يعني أليس عرابي ناظرًا للبحرية؟ هل بنى سفنًا؟ هل حدَّث الترسانة؟ هل استقدم خبراء أجانب لتطويرها؟ هل وضع عوائق بالبحر؟ هل فعل أي شيء يحمي بها بحرنا؟ لماذا لم نرَ سفننا الحربية تقف بمواجهة سفن الإنجليز والفرنسيس؟!».

ران صمت ثقيل، لم يقطعه سوى صوت ملاعق تصطك بأكواب، أو نقرات نرد يتقافز فوق طاولة. عبد الله النديم على وجهه غضب مكبوح، أما حسن العقاد فجامد القسمات، لم أستشف من ملامحه شيئًا.

وعلا صوت رجل عجوز، ذي شارب فضي مدبب الأطراف، قدَّرت عمر الرجل بالسبعين أو يزيد، رغم نحوله بدا لي بادي العنفوان: «أحب هذا الرجل، ولكني لا أعلم ما الذي أهَّله لمنصب ناظر البحرية؟ هل خاض معارك بالبحر سابقًا؟ وهل أنتصر فيها؟ هل انهزم؟».

ثم نهض قائمًا في اعتداد، وقال بنبرة حسرة: «قبل أربعين سنة، عام ألف وثمانمائة وتسعة وثلاثين، كنت أحد الجنود المصريين في معركة (نزيب) البحرية، بين الجيش المصري ونظيره العثماني، كان قائدنا إبراهيم باشا ابن محمد علي، وقائد العثمانيين حافظ باشا عثمان. كانت سفننا كالجبال، ومدافعها هديرها أشد من الزلازل. دحرناهم، لقنَّاهم درسًا قاسيًا، لدرجة أنهم قفزوا في البحر أمامنا فارِّين، تاركين أسلحتهم وذخائرهم».

وتلمظ آخر: «أيام محمد علي، كان جيشنا من القوة أن اتحدت ضدنا

كل أوروبا في معركة واحدة، في نافارين، بجنوب بلاد اليونان».

وتحسر ثالث: «بعد أن كنا ملوك البحر المتوسط؛ صرنا عاجزين عن مجرد حماية شواطئنا!».

هنا انتفض النديم واقفًا: «تتحدثون عن أمجاد قبل أربعين عامًا! لقد تسلَّم عرابي المسؤولية بعد سنوات طوال من الإهمال».

وجال في وجوه الجميع بنظرة نارية، وتابع: «مصر محمد علي انتهت مع الفرمان العثماني، وتكتل دول أوروبا علينا عام ألف وثمانمائة وأربعين! عرابي ورفاقه ورثوا تركة ثقيلة. إنهم يبدؤون من الصفر، بعد ما تسبب فيه فساد أسرة محمد علي، وما جلبته على مصر من ديون وموبقات أوروبية. ألا تصبرون على حكومة البارودي؟ إن الشجرة لا تؤتي ثمارها فور غرسها. أتصبرون على الشجرة، ولا تصبرون على حكومتكم الوطنية؟».

أومأ رواد المقهى برؤوسهم. لم أعلم دلالة الاقتناع أم لمجرد مجاراته. بيد أن الجو المشحون استكان بعدها نسبيًّا. واستفاض النديم، وصال وجال، حتى خيل إليَّ أنه أعاد امتلاك قلوب الجميع.

ألم أؤكد أن هذا الرجل خطيب لا يشق له غبار؟

***

استقبلنا فردريك بوشامپ پاكيت سيمور، كما عرف الأميرال نفسه برسمية ظاهرة، بدا لي معتدًّا بنفسه لدرجة غير مريحة. الرجل متوسط الطول، ممتلئ بعض الشيء، شعره قصير مصفف إلى الجانب، عريض الجبهة، لحيته مشذبة موصولة مع شاربه الطويل المدبب الطرفين، ينظر لمحدثه بطريقه تجعلك تشعر وكأنما يسبر أعماقك. قدرت عمره بستين

عامًا، بزيادة أو نقصان يسير. فيما أتأمله كنت أغالب اندهاشي من مشهد اصطفاف جنود البحرية أثناء مرورنا، حتى وصلنا لمقصورة قائد الأسطول البريطاني المتوسطي. هل هذا استعراض أم بروتوكول؟!

لعل السبب الرسالة الرسمية التي يحملها المهردار.

الأميرال قرأ ما أرسله الخديوي بملامح خالية من التعابير، ثم تناول ورقة، وكتب شيئًا، لم يستمر ذلك أكثر من لحظات، ثم طوى الرسالة وختمها بختمه الخاص. قام أحد الجنود بتسليمها لخاير باشا الذي دسها في جيب سترته الداخلي. لو كنت أعلم المستقبل وقتها لفعلت كل السبل لمعرفة فحوى تلك الرسالة؛ لكني وقتها انشغلت بمطالعة مظاهر الأبهة في مقصورة الأميرال، كنت أشعر بمزيج من الفضول والشجن؛ لأن كل ذلك ينتمي لثقافة حبيبتي الآيرلندية. ذكرني ذلك بما قاله خاير باشا في طريقنا للأميرال، بوشامپ غير متزوج حتى اللحظة.

دعانا الأميرال لتفقد السفينة البريطانية الحربية، بمزيج من الوقار والفخر. وحينما انتهى من جولته، ارتقى عنا درجة أو درجتين، وأشار لمدينة الإسكندرية البعيدة، وقال: «قبل اثنتين وأربعين سنة، كان أسطول هذه الدولة قد وصل لإسطنبول، الآن؛ نحن على سواحلها»!

رعدة مجهولة اعترتني، تأملت ملامح الرجل، أوداجه ممتلئة فخارًا رغم ملامحه الساكنة، نظرت للمهردار، قسماته بادية الضيق. وفيما أحاول الاستيعاب، أشار لي خاير باشا، بعد أن استأذن بلهجة مقتضبة من قائد الأسطول في المغادرة.

وطوال طريق عودتنا، ومع تحديقي في زبد البحر الذي يشقه زورقنا، لم أتمكن من كف نفسي عن التفكر في عبارة بوشامپ الأخيرة.

***

سرت في الردهة الرئيسية بقصر التين عابسًا واجمًا، لم يتعدَّ ما نمته ثلاث ساعات، أيقظوني على خبر احتفال عظيم يقيمه أفندينا صباح اليوم، السابع والعشرين من مايو.

قابلت رئيس الديوان خاير باشا، راجع معي بتركيز جم كافة تفاصيل الحدث الوشيك، قال: «ينوي الخديوي عقد احتفال عظيم، لقد دعا جُل وجهاء البلاد، نوابًا وعلماء وأعيانًا».

وبالفعل بعد ساعتين لا غير، بدأ الجميع يتوافدون على القصر؛ شيخ الإسلام العارف بالله الشيخ محمد عليش، شيخ المشايخ العلامة حسن العدوى، الأستاذ الأعظم الشيخ محمد الإمبابي شيخ الجامع الأزهر، بالإضافة لزمرة من رؤساء الجهادية. أكثر هؤلاء سبقت لي رؤيتهم في اجتماعات عرابي الجماهيرية، أكثرهم ثوريون وطنيون، لا فكرة لدي كيف سيتعاملون مع أفندينا، وكيف سيتعامل هو معهم؟

ولم يطل انتظاري. بعد تمام وصول المدعوين، صعد الخديوي إلى المنصة في أبهة واضحة، الثقة متجلية عليه على غير العادة، جال بنظراته في الحضور، ثم قال بكياسة: «البلاد تواجه ظروفًا غير عادية، والحفاظ على الأمن والاستقرار أولوية تَجُبُّ ما دونها، لذلك، اقتضت السياسة، ومصلحة البلاد والعباد؛ استعفاء الوزارة، وقبول لائحة طلبات الدولتين؛ فرنسا وإنجلترا. وعليه، سأرأس الوزارة مرة أخرى، كما فعلت في بداية حكمي قبل عامين، لأدير المصالح الإدارية. وللظرف الدقيق للبلاد احتفظت لنفسي بنظارة الجهادية، لحين تشكيل النظارة الجديدة».

علت همهمة وضجيج مكتوم، بدا من ملامح الحضور هياج خواطرهم. هل تحدث مواجهة وشيكة؟

وإذا بشيخ الإسلام العارف بالله الشيخ محمد عليش يكون أول الواقفين، شد قامته، على وجهه سكينة واطمئنان، خرج صوته قويًّا واضحًا مواجهًا الخديوي: «جناب الخديوي، الأسطولان الإنجليزي والفرنسي في مياه المتوسط، قبالة قصركم، قبالة الإسكندرية، ما ظننا أنك جمعتنا إلا لهذا»، وصمت برهة، ثم قرأ: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم}.

وقام طلبة باشا عصمت، وقال: «إننا جميعا مطيعون للجناب السلطاني الشاهاني، وللجناب الخديوي، ولكن هذه المذكرة المشتركة الأخيرة لإنجلترا وفرنسا مؤذنة بضياع استقلالنا»، وصمت لحظة، ثم قال بصوت قوي واضح النبرات: «لذلك؛ مستحيل علينا قبولها، وتنفيذها».

عادت الهمهمة بين الحضور، ما بين موافق ومعترض، طرت بنظراتي إلى الخديوي، فرأيت رئيس الديوان منحنيًا على أذنه يهمس بشيء ما، فيما تابع طلبة باشا: «لا حق للدولتين في هذه الطلبات التي تمس السيادة المصرية، وكرامة شعبها. قانونًا ما يطلبونه هي مسائل من اختصاصات الباب العالي، وحده المخول بالنظر فيها. أما عن النظارة، ومع احترامنا العظيم للجناب الخديوي، وتوقيرنا للأسرة العلية، فيستحيل علينا قبول أحد رئيسًا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد باشا عرابي».

وتصاعد هدير الهمهمة، وارتفع صوت الشيخ عليش ليصادق على قوله، وتبعه العلماء جميعًا، وبدأ الأعيان يتشجعون، فأعلنوا تباعًا واحدًا بعد آخر رفضهم اللائحة المذكورة، والمطالبة الصريحة بخروج الأساطيل الحربية الأجنبية من المياه المصرية.

الخديوي ظل صامتًا، جامد الملامح، يرقب الحضور بلا أدنى تعبير. ولما انتهى الحضور من طلباتهم، ساد السكون في القاعة، بدا على الجميع انتظار كلمة الخديوي؛ لكنه ظل على سكونه ينظر للجميع كأنما ينظر للبحر، أو لعرض مسرحي ينتظر أن يستكمل.

وخمن الرافضون لقرار الخديوي سبب صمته، فكان طلبة باشا عصمت محافظ الإسكندرية أول المغادرين للحفل، غادر واجمًا في صمت، وما لبث وتبعه جميع الحاضرين في سكون.

راقبت خروجهم مندهشًا حتى خلت القاعة. «ما أنجحه من احتفال!»، التفتُّ لصاحب العبارة، إنه المهردار خاير باشا، يحمل وجهه توترًا كثيفا. لمحت أحد المستخدمين بمكتبي على باب القاعة يلوح لي، أسرعت إليه. سار معي إلى حجرة مكتبي، أوراق عدة موضوعة بعضها فوق بعض، وسمعته يقول: «التلغرافات تتوالى على القصر يا مظهر أفندي».

فضضت الأوراق، ما إن اطلعت على محتواها حتى هرعت لخاير باشا، استقبلني بنظرات متسائلة، وأفصحت له مباشرة وأنا أناوله الأوراق: «جاء للمعية تلغرافات من ضباط آلايات الإسكندرية»، قرأها خاير باشا سريعًا، اكفهرت ملامحه وهو يشرد بنظراته قائلًا: «إنهم لا يرضون البتة غير عرابي باشا ناظرًا للجهادية. إنهم ينذروننا!»، وقرأ تلغرافًا آخر: «إن مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع إلى منصبه؛ فسنكون غير مسؤولين عما يحدث، مما لا يستحب وقوعه»!

وأسرع المهردار بالتلغرافات إلى جناب الخديوي، لم أعلم هل أعود لمكتبي بدونها، أما أرافقه لأعود بها، ووجدت نفسي أتابعه في خطواته

السريعة، وسلَّم خاير باشا التلغرافات لأفندينا، فيما يقول منفعلًا: «خطورة هذه التلغرافات من الشخصيات التي وقَّعت عليها، انظر جنابك؛ سعد أبو جبل قائمقام شرطة الإسكندرية، علي بك داود قائمقام المستحفظين، الأميرالاي مصطفى بك عبد الرحيم قائد الآلاي الخامس، القائمقام سليمان سامي داود قائد الآلاي السادس، والأميرالاي إسماعيل بك صبري قائد آلاي المدفعية، وهذا محمد باشا كامل وكيل وزارة الحربية. إنهم يمثلون قوات الجيش والشرطة بالإسكندرية. خطر جدًّا أن يجتمع الجيش والشرطة على كلمة واحدة، خاصة إذا كانت ضد...»، ولم يكمل رئيس الديوان عبارته.

قام الخديوي واقفًا، ذرع المكان مجيئة وذهابًا، عاد التوتر لملامحه، تبخرت ثقته، وقال وهو يبرم طرفَي شاربه: «لقد عرضت على محمد باشا شريف رئاسة النظارة، الرجل يتمتع بقبول لا شك فيه، قبوله للمنصب سيقسم جبهة من يطلقون على أنفسهم وطنيين».

لمعت عينا خاير باشا، انفرجت ملامحه وهو يقول: «سيحدث ذلك استقطابًا في صالحنا. لكن، هل قبل؟».

«رفض»، رد الخديوي باقتضاب، ثم تمعر وجهه مُردفًا: «ليس وحده، غيره كثير. فجأة الجميع يرفضون مهمة تأليف النظارة»!

قال المهردار وهو يعيد لي التلغرافات لحفظها في المعية: «جناب الخديوي، هذا وضع غير مألوف، بربط هذا بتلغرافات قيادات الشرطة والجيش؛ يتوجب علينا توقع الأسوأ».

وأشار خاير باشا بنظرة صارمة أن أغادر، ففعلت، وعند الباب سمعت صوت الخديوي يعلو بعصبية: «هراء! معنا أقوى دولتين في

أوربا، الجميع يركع أمام سطوة السلاح، نحن وحدنا من لديه شرعية حيازته واستخدامه، هل تعلم ما أعنيه؟! هذا حقنا، شرعًا، وعرفًا، وقانونًا»!

***

اليوم الثلاثون من يونيو، ثلاثة أيام حافلة مرت، بالكاد أستطيع الآن إيجاد وقت لأتناول قلمي. مع المساء استدعاني المهردار لمكتب البلاط الخديوي، ثمة اجتماع حضره قناصل أغلب الدول الأوروبية، المدهش أن غابت دولتان كانتا الأكثر حضورًا عادة؛ فرنسا وإنجلترا!

ولكن سرعان ما استنتجت السبب، القناصل الأوروبيون مارسوا ضغوطًا على أفندينا. يرون أن مصالح بلادهم مهددة بسبب ضغوط الانتفاضة الشعبية المصرية، خاصة مصالح النمسا وألمانيا؛ ولا سيما الأخيرة التي تمثل أغلب مصالح آل روتشيلد، وهؤلاء يريدون مصر آمنة مستقرة، واجتمع رأي القناصل على أن عرابي هو أقدر من على الساحة للمحافظة على النظام. وأبدوا استغرابهم للخديوي جراء عناده لشعبه لمجرد أنه يريد ذلك.

ولم يطل الاجتماع العاصف، ليرضى الخديوي، ويسلمني قرارًا ممهورًا بتوقيعه لتوزيعه برقيًّا إلى كافة المصالح والهيئات المعنية.

كان القرار بعودة أحمد عرابي لموقعه ناظرًا للجهادية، مع بقاء رئاسة النظارة مؤقتًا للخديوي.

اليوم الذي سبقه، كنت في مهمة خارج السراي لتوصيل بعض الأوراق، حينما عدت لمحت قنصلَي إنجلترا وفرنسا خارجين من مكتب الخديوي، ملامح ماليت كانت عابسة مكفهرة، أما ملامح القنصل

الفرنسي فكانت حيادية جدًّا. علمت بعدها من خاير باشا أن التطورات الأخيرة كانت سبب هذا اللقاء.

كانت إنجلترا في حرج، وزارة البارودي استقالت، ورغم ذلك عاد سبب استقالتها -عرابي- وبسلطات أوسع عن ذي قبل، وتشريف وتوقير أعلى، رغم أن الهدف من وراء ذلك كله كان خروجه كليًّا من مصر، وضغط على كلماته: «كانت فرنسا وإنجلترا أرادتا تحقيق ذلك بالمعنى الحرفي».

واستطرد خاير باشا: «على غير العادة، فترت حماسة قنصل فرنسا، ربما السبب أن رئيس وزرائهم الأخير شارل دو فريسينيه، والذي تولى منصبه منذ يناير الماضي، يميل لتطلعات حزبه الجمهوري، ويغض الطرف نسبيًّا عن الشؤون الخارجية».

كدت أقول إن النفوذ الألماني والإيطالي في ازدياد مطرد، فالضغوط الألمانية الأخيرة كانت سببًا مؤثرا في استجابة الخديوي للضغوط الشعبية، ولكني لزمت الصمت تأدبًا، فيما أردف رئيس الديوان: «ولكن إدوارد ماليت يرى بارقة من الأمل في بعثة درويش باشا التي أرسلها سلطاننا العثماني، عبد الحميد الثاني».

استوقفني الاسم. كدت أجسر على الاستفسار، ولكنه بادرني فيما يشير لي بالانصراف: «استعد لاجتماع مهم باكر، في حضرة الخديوي».

خرجت، وأنا أزدرد تساؤلاتي في أعماقي.

اليوم التالي، ومع بدء الاجتماع الخديوي، وجدته خاليًا من القناصل الأوروبيين على غير ما توقعت، إنما اجتمعت فيه هيئة مستشاري البلاط الخديوي كاملة على غير العادة. لمحت وجه طلعت باشا الرومي بادي

التحفظ، وخيري باشا الچركسي مقطب الجبين عالي التحفز. وبادر الخديوي محدثًا سكرتيره: «باعتباري رئيسًا للنظار، والقائم بأعمال ناظر الداخلية، أُرسل هذه التوجيهات، والليلة قبل باكر، إلى مديرَي الوجهين القبلي والبحري، بوجوب عرض المسائل والموضوعات المهمة المتعين عرضها على البلاط الخديوي».

أسرع السكرتير بتنفيذ أوامر أفندينا، ثم ناولني أوراقًا لأسجلها في سجل المعية، فيما أسمع صوت الخديوي: «الحركة الوطنية والتي يتزعمها اسميًّا الحزب الوطني الدستوري كسبت أراضي على حسابنا، المذكرة المشتركة الصادرة 20 يونيو الجاري، ومطالبها التي يسميها الشعبيون باللائحة، أظنها باتت شيئًا من الماضي، مع انتفاضة الشارع التي تصدت لمطالبها».

ران صمت طويل نسبيًّا، ثم قطعه خيري باشا مستشار الخديوي: «أفندينا، لدينا ورقة ما زال سموكم لم يطرحها بعد فوق الطاولة».

التقت النظرات المتسائلة متوجهة إلى المستشار، الذي تابع بنبرة غامضة: «الدول الأوروبية سبق وضغطت على الباب العالي ضغطًا موجعًا، تحت مسوغ حماية الأقليات، أثمر عن تغيير البيئة السياسية هناك بشكل جذري».

قال الخديوي: «أقليات! تقصد غير المسلمين؟»، وفرك الخديوي طرفَي شاربه شاردًا وكأنما استغرقه التفكير. فيما تمتم رئيس الديوان: «أقليات؟! هذه لفظة غير مستعملة في مصر».

قال خيري باشا: «ليس بعد الآن». قال الخديوي: «المسيحيون واليهود! إنهم مصريون قلبًا وقالبًا». قال خيري باشا الرومي: «صحيح؛

لكن الأوروبيين لا يعلمون هذه التفاصيل». ران الصمت برهة، ثم قال الخديوي: «تقصد إن تأذى اليهود والمسيحيون؛ فسيتدخل الأوروبيون؟».

قال مستشار الخديوي: «إن تأذى اليهود فلن يتأثروا، أوروبا المسيحية تتأثر بالمسيحيين فقط؟»، وصمت لحظة ثم تابع: «يجب أن نقدم لهم مسوغًا مُقنعًا لتدخلهم. ويجب أن تظهر سموك بأنك الوحيد القادر على حماية تلك الأقليات».

لمحت لمعة غير مريحة في عينَي الخديوي، الذي قام وذرع الأرض الرخامية اللامعة في خطوات متمهلة، ثم قال: «فكرتك التقت مع خطة كنت أعمل عليها منذ أسابيع قليلة»، رفع رأسه، وازداد لمعان عينيه فيما يقول: «أحسنت. آن للمصريين الذين يظنون بأنفسهم الارتقاء لمزاحمتنا في اتخاذ القرارات أن يتأدبوا». ثم شد قامته، وخاطب رئيس الديوان: «خاير باشا، اتصل بمحمد باشا سلطان، وعمر باشا لطفي، أبرق إليهم بالمجيء حالًا، ومتى يأتوا، فسيضمنا اجتماعًا مغلقًا، يضم ثلاثتنا فقط».

انتهى الاجتماع. فكرت بالعروج على عرابي قبل عودتي للبيت، ولكني أرجأت ذلك آنيًّا. في هذه الأجواء المشحونة، لا أستبعد قط أن يساء تفسير أي تصرف.

وجعلت أردد لنفسي: «تمهل يا مظهر، تمهل».

***

كنت حاضرًا بأمر رئيس الديوان الخديوي بقصر التين بالإسكندرية، أمرني خاير باشا باستطلاع توجهات المبعوث التركي درويش باشا، ورفيقه الشيخ أسعد أحمد، وردود أفعالهما على ما سيرونه. لم أفهم قصده جيدًا وقتها، ولكن مع تتابع الأحداث علمت فيم يري رئيس الديوان.

وصل المبعوثان التركيان القصر مع عصر يوم قائظ، أول من دخل كان رجل متوسط القامة، تخطى الستين، منتصب الظهر، عيناه ضيقتان، نظراته نظرات صقر، يراودك إحساس بأنه ساخط لسبب ما غير معلوم، أو نافد الصبر، أخاديد وجهه تشير لمجرى خبرات حفرت لنفسها طرقًا على قسماته. ذو شارب تركي تقليدي مدبب الأطراف. في أثره دلف الشيخ أسعد في الزي العربي التقليدي، لم أقدِّر عمره بأكثر من أربعين عامًا، ثم رجل أشيب ذو ملامح يونانية، أعرفه طبعًا؛ إنه ذو الفقار باشا، ممثل الخديوي في استقبال الوفد العثماني، ثم دخل ممثل الحكومة يعقوب باشا سامي، وكيل نظارة الجهادية، تبادل معي نظرة سريعة، لطالما رآني الرجل في اجتماعات عرابي. وكان آخر من دخل القاعة رجل جامد الملامح، دون الخمسين، إنه محافظ الإسكندرية الجديد؛ عمر لطفي.

انشغل موظفو التشريفات بتنظيم الجلوس، أعلم أن كثيرًا من الزوار على وشك الوصول للترحيب بالوفد السلطاني، أو حملة التفتيش كما يسميها علي فهمي.

«المفترض ألا يستغرق الأمر كل هذا الوقت»!

التفتُّ لقائل العبارة، كان يعقوب باشا سامي، تابع بذات النبرة الخافتة: «الجميع منقوع في النشا النقي! انظر إلى الوجوه المتخشبة»!

تصفحت الوجوه، تبسمت، واضح أن يعقوب باشا غير معتاد على الاستقبالات الرسمية، فهذا ديدنها.

وتابع يعقوب باشا: «منذ ما استقبلتهم عند رصيف الميناء، وركب كل من درويش باشا والشيخ أسعد عربة خاصة، كان هناك صياح وابتهاج من الجماهير الراصدة للموكب، على الجانبين اصطف رجال ونساء،

كبار وأطفال، جعلوا يهتفون: «الله ينصر السلطان»، «الإنذار الإنذار»، وتارة أخرى: «اللائحة اللائحة... مرفوضة مرفوضة»، مع هتافات متقطعة: «أبعدوا الأسطول»!

غمغمت: «لعل هذه الهتافات سبب تعابير الامتعاض على وجه المبعوث العثماني».

صمت وكيل نظارة الحربية لحظة، ثم قام وهو يعدل هندامه: «الوفود وصلت». وتركني مُسرع الخطى ليأخذ موقعه وفق بروتوكول المراسم.

دلف للقاعة مدنيان، قنصلا الإسكندرية السيد كوكسن، والسيد م. كليكوسكاي. تبادلا مع درويش باشا حديثًا وعلى الملامح تحفظ ظاهر، بحكم موقعي بحسب التشريفات تعذر التقاط فحوى كلامهم، أثناء ذلك جاء الأدميرال الفرنسي وكذلك الإنجليزي بزيهما العسكري الرسمي. بالطبع أتذكر الأدميرال الإنجليزي، التقيته في البحر قبل أسبوعين تقريبًا. تقدما في أحاديثهما، حتى اقتربا من مكاني، سمعت قنصل إنجلترا في الإسكندرية كوكسن يقول لدرويش باشا مشيرًا للأدميرال سيمور:

«من اللطيف تذكير معاليك، هذا الرجل هو نفسه الذي تولى القيادة في (دولسينو)، إبان معارك الجبل الأسود». لمحت ومضة قاسية في نظرة درويش باشا، توارت آنيًّا مع تبسم رسمي دون تعقيب. لم يطل بقاء الأوروبيين، غادروا سريعًا. التحفظ الغالب على الجميع جعل اللقاء فاترًا مملًّا لأقصى الحدود.

دخل في أثرهم -كأنما كانوا ينتظرون بالخارج- عديد من علماء

وأعيان الأمة، وكذلك بعض المسؤولين. لاحظت أن درويش باشا استقبلهم بفتور لم يبذل جهدًا لإخفائه.

بعد عبارات المجاملة المعتادة، وتأكيد الولاء للخلافة العثمانية، قدم الأعيان التماسًا لدرويش عرضوا فيه مظالم الأمة المصرية، اشتكوا صراحة من وجود الأسطولين الفرنسي والإنجليزي، وقال الغرياني -أحد الأعيان- صراحة: «وقاحة الإنجليز والفرنسيين بتدنيسهما المياه المصرية، جرأة على السلطنة العثمانية، لا نقبل بها». وقال عبد الله النديم شيئًا مثل ذلك، ولكن في أبيات شعرية قوية. درويش باشا لا يتحدث العربية، كان بوسعي التطوع للترجمة، ولكنه أتى من إسطنبول مصطحبًا مترجمًا رسميًّا من الباب العالي. لوح درويش باشا بكفه وكأنما ينهي هذا الموضوع، ونقل مترجمه ما قاله: «أعدكم جميعًا، سينصرف الأسطولان قريبًا».

بدا كما لو انشرح الحضور من اللهجة الواثقة للمبعوث العثماني، ووقف الشيخ الهجرسي، وقال: «بناء على بشراكم الكريمة، نرى أن مسألة حكم المصريين لأنفسهم قد آن أوانها، لا بأس من حكم صوري لأسرة محمد علي، على نمط حكم العائلة المالكة ببريطانيا، ولكن إن حكم المصريون أنفسهم بأنفسهم فسيحفظ ذلك مصر من أطماع الأوروبيين، خاصة وأن ذلك سيكون تحت علم الخلافة العثمانية الرشيدة».

وطال النقاش في هذه المسألة، أظنني بدأت أفهم توجهات درويش باشا، الآن أدركت وجهة ناظر رئيس الديوان الخديوي.

وفي نهاية اللقاء سمعت قول خاير باشا: «البعثة العثمانية مقيمة بقصر النوسة».

❃❃❃

أمضيت اليوم التالي ضمن وفد الخديوي المرافق لدرويش باشا والشيخ أسعد. بدا لي الثعلب العجوز كسائح أكثر منه جهة تقصٍّ وتحقيق كما يفترض به. قائد الجيش العتيد أمضى جل النهار في زيارة المساجد العتيقة والصلاة، بدأها بصلاة الجمعة في الجامع الأزهر، استقر بنا الحال مع صلاة المغرب في مسجد السلطان حسن بن قلاوون، الواقع بين قلعة الجبل وبركة الفيل. بعد الصلاة جلسنا في الباحة المكشوفة، وتوافد علينا العلماء الذين انتهزوا الفرصة للترحيب به، والحفاوة بدور السلطنة العثمانية، ثم بدا كما لو اتخذوا من ذلك منفذًا للتعبير عن مطالبهم. كنت رأيت مثل ذلك حرفيًّا في الإسكندرية من شيوخها. وقتها استمع درويش باشا للجميع باهتمام وصبر. أما الآن، فلست متيقنًا، هل هو متوتر الأعصاب حقًّا، أم ثمة شيء طرأ غيَّر مزاجه؟

فالحضور لم يكن على رأي واحد، كما كان في لقاء الإسكندرية، نعم الأغلبية كانت تناصر القضية الوطنية، وتبدي امتعاضها من أفندينا وانصياعه للأجندات الخارجية، إلا أن شيخين فقط: الشيخ الإبياري، والشيخ البحراوي، ناصرا الخديوي، أيدا مواقفه، ودافعا عنها، وأسبغا عليه صفات أسطورية، لو كان هنا وسمعها بنفسه لسُرَّ أيما سرور. ورغم أن البحراوي والإبياري كانا بارعين في الرد على العلماء المجتمعين، إلا أن درويش باشا أنهى الاجتماع بغتة قائلًا: «مطالب مطالب! إنما جئت هنا لأتكلم، لا ليتكلم الناس إليَّ!».

ولوح بيده ساخطًا، وقام من مقامه، وخرج من بين جموع العلماء دون أن يلتفت لأحد، والشيخ أسعد يهرول وراءه، والعلماء يتبادلون النظر لبعضهم واجمين!

وفيما ألتقط حذائي لألحق بالموكب، سمعت عبارات متداخلة حانقة من الشيوخ:

«كيف يتعامل هكذا مع علماء الأزهر؟!».

«أرأيت كيف استنكف مجرد إنهاء اللقاء بشكل لائق؟».

«هذا رجل لن يأتي بخير»!

«رحم الله أيامًا كان الملوك فيها هم من يأتون حيث علماؤها».

وهرولت لألحق موكب العربات التي تحركت فعلًا، والشيوخ ورائي يتميزون سخطًا!

***

يبدو أن الاجتماعات صارت تعقد في دار محمود باشا البارودي حاليًّا، أنا مرهق كفاية للمرور على بيت عرابي أولًا ثم التوجه لبيت البارودي. نقدت المكاري أجره ونزلت من العربة. أنوار الدار تشي بعظمة ورقي. دلفت للقاعة متهيبًا بعد أن فتح لي الخادم، في كل مرة أدخل شاعرًا أني غريب عما يجري بالداخل، استقبلني صوت عرابي المشحون بالمشاعر: «يا سادة، البلد لم تعد تتوقف عن الغليان، فيما نجلس ها هنا، ثمة اجتماعات محمومة يعقدها علماء الأمة، بسبب ما جرى من درويش باشا معهم قبل ساعات».

قال عبد الله النديم منفعلًا: «وهل ما جرى شيء يمكن ابتلاعه؟! علماؤنا هم درة الأمة وزينتها، هم لن يسكتوا، ثمة مظاهرات احتجاجية ستقام باكرًا على الأرجح، لقد دعوني بالفعل لأخطب غدًا في صحن الأزهر الشريف».

بغتة وجَّه الأميرالاي علي فهمي حديثه إليَّ: «مظهر أفندي، مرحبًا، قل لنا، هل لاحظت حركة غريبة لأغوات الخديوي البارحة؟».

سُددت نظرات الجميع باتجاهي، ارتبكتُ، أنا أجلس في الصفوف الخلفية، كيف انتبه إليَّ علي فهمي.

«الخادم أتى وأخبر محمود باشا بقدومك على مسمع منا»، انتفضت. كان يعقوب باشا جالسًا جواري، عدم تركيزي سيوردني مورد التهلكة، يبدو أنني تلفظت بما يدور في ذهني بصوت مسموع!

وجُلت بنظراتي في الوجوه التي تنتظر إجابتي، السؤال غريب، ولكني أجبت باقتضاب: «لا شيء غير طبيعي، الرتابة مستمرة غير مقطوعة».

وتضاعف ارتباكي، شعرت أن الجميع عيناه على المظروف المنتفخ في جيبي، فأسرعت بالقول: «في الواقع جئت أخبركم نبأ قد يهمكم».

عادت العيون تضيق في اهتمام، أردفت: «قنصلا إنجلترا وفرنسا أتيا للخديوي، أبديا تخوفهما من إشاعات رائجة تمس أمن رعاياهم خصوصًا، والأوروبيين عمومًا».

اكفهر وجه عرابي، تناهى إلى مسامعي عبارة حانقة لعلي فهمي: «كل حين يُخرج لنا هذا الموضوع كالفزاعة»!

وتساءل محمود باشا بهدوء: «وكيف علَّق الخديوي؟».

جمجم النديم: «الخديوي علَّق».

التفتت إليه الأعين، فانبرى يستحثني: «أخبرهم يا مظهر أفندي ما علَّق به أفندينا!». قلت كالمتردد: «أخبرهما أن لا حق لهما في التخوف، ما دامت البلد في ضمانة عرابي». ساد صمت، ثم دمدم النديم: «لم يعد إلا الخونة ليسخروا منا»!

لوَّح عرابي بكفه وكأنما يطرد هذا الموضوع، وخاطبني قائلًا: «نعود لمقالة علي فهمي، لقد سألك لأن ثمة مصادر لنا في مقر إقامة الوفد العثماني بقصر النوسة، أخبرتنا أن أمس الخميس، أرسل الخديوي أحد أغواته، لأجل حصول درويش على مبلغ خمسين ألف جنيه إنجليزي، ومن مصادر أخرى ثلاثين ألف جنيه إنجليزي، وتسعة آلاف جنيه إسترليني إلى الشيخ أسعد أحمد».

اتسعت عيناي انبهارًا بسبب هول المبلغ، فيما دمدم علي فهمي: «ما أكد هذه الأخبار أننا علمنا قبل أسبوع أن الخديوي رهن ممتلكات زوجته، حتمًا كان السبب تدبير هذه المبالغ».

قال يعقوب باشا: «إن صحت هذه الأخبار، فسيكون الخديوي قد ضم درويش باشا لجانبه، من قبل حتى أن يلتقي به».

قال النديم: «لعل الخديوي المأفون صدق أن درويش باشا أتى ولديه تعليمات بعزله، وإحلال عمه -القاطن بإسطنبول- محمد عبد الحليم بن محمد علي مكانه. فأراد وأد الأمر، بغض النظر عن مدى التيقن منه!».

قال محمود باشا: «أميل لتصديق هذه الأنباء، ليس فقط لأن مسلك درويش تغير اليوم مع العلماء عما كان عليه أول أمس فقط في الإسكندرية».

ذكرتني العبارة بمطلب خاير باشا، خفق قلبي بقوة، فيما أردف محمود باشا: «أمس أيضًا، وبتصادف عجيب، جرى شيء مثل ذلك، مع عرابي». اتجهت الأعين كلها لناظر الجهادية، الذي بدا كما لو تضايق من إفشاء الأمر، إذ عبس مطرقًا بنظراته إلى الأرض ولم يعلِّق، فقال علي فهمي: «وما المقابل؟!». أجاب البارودي: «أن يقبل مغادرة مصر للأبد».

ران الصمت على القاعة زمنًا، قبل أن يقطعه النديم مستنكرًا: «حاولوا رشوة عرابي؟!».

وتساءل يعقوب باشا: «ماذا كان عرضهم؟».

أجاب البارودي بهدوء: «بل قل: ماذا كانت عروضهم؟». قال علي فهمي في دهش: «هل كان هناك أكثر من عرض؟!». وقال النديم: «أفصح مرة واحدة فضلًا يا مولانا».

فأشار البارودي لعرابي: «التفاصيل هي حقه الأصيل».

جال عرابي بنظراته في وجوهنا، ثم قال: «أتاني أكثر من عرض، العروض غير الرسمية كانت من آل روتشيلد، فرع باريس. عرضوا أربعة آلاف جنيه إسترليني كمعاش سنوي، حصولي عليها مشروط بمغادرة مصر للأبد».

أطلق النديم صفيرًا طويلًا: «هذا يساوي مائة ألف فرنك فرنسي في السنة»!

تابع عرابي: «أما العرض الفرنسي فكان من فرنسا، الحكومة الفرنسية أرسلت لي مندوبًا رسميًّا عرض خمسمائة جنيه إنجليزي شهريًّا، مقابل ترك مصر».

سمعت همس يعقوب باشا جواري: «هذا أكبر من عرض آل روتشيلد. ما كل هذه المبالغ؟!».

تابع عرابي: «أما العرض الرسمي الثاني، فحمله درويش باشا؛ إذ أرسل لي الشيخ أسعد، عارضًا مائتين وخمسين جنيهًا إنجليزيًّا شهريًّا، مقابل إمضاء بقية حياتي في إسطنبول، مع تكفل الباب العالي بنفقات إقامتي وانتقالاتي».

تحشرج صوت النديم: «وماذا كان ردك؟». أجاب عرابي: «قلت للشيخ أسعد: قل لمرسليك: حتى وإن كان بوسعي ذلك؛ فإن هناك عشرة آلاف رجل سيقفون بيني وبين البحر، ليحولوا دون هذه السفرة».

تنهد النديم: «كنت واثقًا من رفضك».

«مجنون»!

التفتُّ بسرعة يمنة ويسارًا، باحثًا عن قائل الجملة الشديدة الخفوت؛ لكني لم أستطع تبينه من بين الحضور. وقال البارودي: «زبير باشا كان حاضرًا اللقاء، هو من أخبرني. أظن عرابي ما كان ليخبرنا قط من فرط دماثة خلقه».

اندلع الصخب والأحاديث الجانبية بعد عبارة البارودي، الكل شرع يعقب ويحلل ويفند، إلا أنني كنت في وادٍ آخر، لم أعد أحفل بالمظروف المنتفخ في جيبي، شعرت بالتضاؤل عن كل ما حولي.

ما أكثر أموال هذه الأمة، وما أسفه إنفاقها؟!

***

«شجرة الطقسوس لا يمكن زراعتها في مصر».

نظر إليَّ عرابي وعبد العال حلمي بعدم فهم، ثم قال عرابي: «فقط؟!».

قلت بتسليم: «فقط».

ذهب الأميرالاي عبد العال حلمي يتأكد مرة أخرى من إغلاق الباب علينا، فيما دار عرابي في الحجرة: «ترى ما الذي قصده درويش باشا بهذا العبارة للخديوي؟».

قال عبد العال حلمي: «دعك من هذا العجوز وعباراته، لا يجوز ترك الحضور بالخارج أكثر من ذلك، فالكل أتى للاحتفاء بك».

فرك عرابي ذقنه الحليقة، ثم اتجه لعلبة من الخشب العطري، فتحها، وأخرج منها قلادة شدت انتباهي على الفور!

كانت على شكل نجمة سباعية، موشحة بزخارف دقيقة تجمع بين تيجان السلطنة العثمانية وهلالها المميز ذي النجمة، وفي القلب دائرة ذهبية داخلها كتابة بخط الطغراء، ومعلقة بسلسلة قماشية حمراء، يحفهما من الجانبين لون أصفر مائل إلى الخضرة.

قلت مبهورًا: «ما هذا؟».

تطلع إليَّ عرابي، بدا كما لو سُرَّ فعلًا بانبهاري، فرفعها أمامي قائلًا: «إنها هدية من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، سلمها لي درويش باشا».

قلت مأخوذًا: «السلطان العثماني شخصيًّا! متى؟». أعادها عرابي لعلبتها الخشبية، وحملها متجهًا للخارج: «قبيل حضورك للترجمة، في ذلك اللقاء المتوتر».

وعلمت لماذا الجماعة الوطنية مجتمعة، لقد أتوا للاحتفاء بعرابي وتهنئته، بنيل نيشان المجيدية، كما علمت لاحقًا، هذا اسمه، وسام رفيع لا يناله سوى خاصة الخاصة في الدولة العثمانية.

وبعد توزيع الحلوى والمشروبات بأنواعها، قال محمود باشا البارودي ليرد على تساؤلات الحضور: «هذا وسام عسكري عثماني، أنشأه السلطان العثماني عبد المجيد الأول سنة 1851، وبدأ منحه في 29 أغسطس 1852 على ما أظن».

وقال الشيخ الميرغني: «لعل السلطان يتزايد غضبه حينما يعلم برفضك القدوم لإسطنبول، رغم هذا النيشان».

قال النديم كالمتحدي: «وماذا بوسعه أن يفعل؟!».

غمغم علي فهمي: «قد يرسل قوات عثمانية لتحاربنا، ليعودوا بعرابي صاغرًا إليه».

لوَّح عرابي بكفه مستبعدًا: «لا أحد يقطع أنفه بيده».

قال حسن باشا الشريعي وهو يهز رأسه ببطء: «لقد رفضت عرضًا قبله عبد القادر الجزائري، والشيخ الأفغاني».

لاذ عرابي بالصمت، كما لو لم يرُقْ له هذا المنحى للحوار، وقال النديم: «لا أستبعد بعد الآن دس السم في فنجان قهوتك، أو رميك برصاصة غادرة بعدما قلته لدرويش!».

كان فنجان القهوة على شفتي عرابي، فتجمد برهة، ثم وضع فنجانه على الطاولة: «بشرك الله بالخير يا شاعرنا!».

وتواصل الحوار بين الجميع، حوارًا وديًّا فكاهيًّا خلا من السياسة وأوضاع البلاد على غير العادة، حتى انفض الجمع مع بلوغ الساعة الحادية عشرة مساء. في الواقع كنت أود أن ينتهي قبل ذلك، فالمهردار كلفني باستقلال قطار الفجر المتجه إلى الإسكندرية.

سفر آخر، وتعب جديد.

ولكني فوجئت بأحمد باشا عرابي يناديني، عدت إليه حائرًا. كان معه بالحجرة البارودي باشا، وعبد العال حلمي، وعلي فهمي، ويعقوب سامي، ومحمود فهمي، وطلبة عصمت. بدت لي هذه الزمرة معًا،

في وقفتهم الجادة الشامخة، وملامحهم القاطبة المهمومة، كأنها تماثيل قُدَّت من شمع.

وقفت بينهم وهيبتهم تتغشاني، أشار عرابي إلى كومة صحف فوق خوان قريب، وقال: «هل سمعت في القصر شيئًا عن ذلك؟».

كانت صحف مسائية، تصفحتها في عجالة، أغلب العناوين أن درويش باشا نجح في مهامه التي أوفد لأجلها، غمغمت بصوت مسموع على غير قصد: «العناوين مبهمة تحتمل التأويل».

قال البارودي بنبرته الوقور: «لطفًا اقرأ العناوين بصوت مسموع، الصحف لم يطَّلع عليها سواي وعرابي».

الترقب على وجوه الباقين، قرأت: «درويش باشا يعلن نفسه قائدًا عامًّا».

زمجر علي فهمي: «هذا لقب ناظر الجهادية!»، وخاطب عرابي: «هذا يوحي بأنك تركت منصبك، أو تنازلت عنه لدرويش!».

لم أتوقف أمام التعليقات، وتابعت القراءة: «درويش ينجح في استمالة جزء من الجيش». وانتقلت لجريدة أخرى: «درويش يبذل كافة جهوده للحيلولة دون اندلاع حرب أهلية محتملة».

ساد صمت ثقيل الوطأة، وغمغم طلبة عصمت: «ما وصل إليَّ أن درويش باشا لا ينفك عن عقد اجتماعات بمقر استضافته مع كافة الضباط والرتب بمختلف القطاعات، يقدم نفسه على أنه بمنصب القائد العام، والرئيس لكل قوات الجيش. إن لم يكن رسميًّا؛ فبحكم الأقدمية، وكذلك بحكم السن؛ إذ يقدِّم نفسه باعتباره في حكم والدهم. هذه بخلاف ما يسرده من إشاعات يلبسها ثوب الحقائق»!

قال البارودي: «الرجل متعجل بشكل مريب لما طالبنا به»!

ودمدم عبد العال حلمي: ««ما بال كل هذه الإشاعات من قيام حرب أهلية في مصر؟! أم يريدونها فزاعة؟؟!».

قال عرابي وقد امتقع وجهه: «إنهم يريدون تحقيق الهدف ذاته بالشائعات، بعدما أخفقوا في تحقيقه في الواقع»!

قال البارودي بنبرات تقطر همًّا: «ليس الجميع على علم بأنها شائعات. كل من يصدق؛ فسيكون خصمًا من مجموع قوتنا»!

أشرت لما نقلته لي صديقتي الآيرلندية: «الصحف الإنجليزية بالفعل منذ منتصف مايو -ومنها صحيفة (صن مول)- تتحدث عن عنف محتمل الوقوع في ربوع مصر»!

قال محمود فهمي: «الأكلة جاهزة، الكل يسيل لعابه، الكل مقبل على التناول، وإن كان لكل دوافعه»!

أشار يعقوب سامي لناظر الجهادية وقال: «ما لم يقف عرابي الآن وقفة حازمة؛ فسيضيع كل شيء».

قال طلبة عصمت: «يبدو أننا نُجَر جرًّا للحظة فارقة في تاريخ مصر».
قال البارودي: «بل مستقبلنا بالأحرى...».

قال عبد العال حلمي: «تكاتف الحزب الوطني الدستوري معًا كفيل بصد درويش، وإفشال جهوده».

غمغم البارودي: «ليس هذا كافيًا، نحتاج وقوف كافة القوى الوطنية متعاضدين».

صاح علي فهمي: «يا رجال انتبهوا! إنهم يفرقون بيننا، يقولون عرابي يقوم بـ(عربنة) الدولة، أي يضع العرابيين فقط في مناصب الدولة. يقولون إن الوطنيين إقصائيون، يريدون الاستئثار بكل شيء! لقد نجحوا في استقطاب الأب الروحي للحزب الوطني بعيدًا عنا؛ محمد باشا شريف، وهناك شائعات كذلك عن الفلكي، ومحمد باشا سلطان»!

قال عرابي وقد تكدرت ملامحه: «الآن، في هذه اللحظة، أي قرار سيتم اتخاذه، سيكون ثمنه عسيرًا».

قال البارودي: «يا سادة، يجب أن نعي ما نفعله، نحن مقبلون على تحدي السلطة الدينية للسلطان العثماني، وأنتم تعلمون العاطفة الدينية للشعب المصري. وكذلك على تحدي الشرعية السياسية للباب العالي، وعلى تحدي سلطة الخديوي المعترف بها من كل دول العالم، ناهيك عن الوقوف ضد مطامع أقوى قوتين عسكريتين في هذا العصر؛ فرنسا وإنجلترا».

وجال بنظراته في وجوه الحاضرين: «هل تعون فعلًا ما أنتم مقبلون عليه؟». ساد الصمت، فقال بعد هنيهة: ««باختصار؛ ودِّعوا الدعة... ودِّعوا الراحة، للأبد».

وأردف بيقين، وسكينة: «ما يلي هذه اللحظة لن يكون أبدًا كما قبلها».

***

(14)

خرجت من البوابة الشمالية لقصر التين والتساؤلات تغمرني. أتممت مهمتي في وقت مناسب، تأكدت من استعداد القصر لاستقبال الأسرة العلوية كاملة، وكذلك راجعت تمام مخزون القصر من الأغذية والمشروبات لأربعة أشهر قادمة. كان هذا غريبًا، ليس من المألوف انتقال أسرة محمد علي بالكامل معًا، وفي توقيت واحد! هل سيقضي الخديوي الصيف برمته في الإسكندرية؟ هذا غير معتاد!

تحت إبطي مظروف عريض، لم تتبقَّ لدي سوى مهمة واحدة، استوقفت مكاريًّا وأمليت عليه وجهتي، نظر لي بتفرس ورهبة. الرجل معذور، استقبل زبونًا خارجا للتو من قصر الخديوي، ليقصد مبنى القنصلية الإنجليزية بالإسكندرية.

قطعت العربة المسافة سريعًا، نقدت المكاري أجره وصعدت للقنصلية، علمت من السكرتارية أن القنصل يتوقع قدومي. في جلستي بقاعة الانتظار صكت أسماعي لغة عربية غريبة، التفتُّ فوجدت رجلين يتحدثان قرب مدخل القاعة، أحدهما يرتدي الزي المميز لخدم القنصلية، والآخر يرتدي حُلَّة من ذات الطراز الذي أرتديه، ولكن أقدم نسبيًّا. كانا يتحدثان اللغة المالطية، هي لغة أغلبها عربية، والنسبة الباقية تنتمي للغة الإيطالية. حاولت تزكية الوقت بالاستماع لحديثهما، ولكن السكرتير ناداني، آذنًا بالدخول إلى القنصل.

استقبلني السير تشارلز كوكسن جالسًا إلى مكتبه، أشار لي بالانتظار مشيرًا لبعض الأوراق أمامه، انشغل الرجل بالتوقيع. استنتجت من إبقائي واقفًا أن بقائي لن يدوم طويلًا، وسررت لذلك. لم تمضِ دقيقة وأدخل السكرتير الرجل الذي كان يتحدث المالطية مع أحد الخدم بالخارج.

تقدم الرجل إلى القنصل وانحنى له محييًا بشكل مبالغ فيه. قام إليه كوكسن، فقبَّل الرجل يده والقنصل يتمنع. ودار بينهما حديث مقتضب خافت، انتهى بأن أودع القنصل شيئًا في يد المالطي المبسوطة. دونما قصد مني سددت نظراتي بعد أن لمحت انعكاسًا أصفر لامعًا. هل أعطاه جنيهًا ذهبيًّا حقًّا؟!

غادر المالطي بخطوات سريعة، ليتجه القنصل بنظراته ناحيتي، سلمت إليه المظروف باحترام وأنا أقول: «رسالة لمعاليك من طلعت باشا مدير سكرتارية الخديوي».

تناول سير كوكسن المظروف ووضعه على المكتب، ثم أشار لي بالخروج.

سعدت بإتمام آخر مهامي، خرجت للشارع المشمس، وأخرجت الساعة النحاسية من جيب سترتي، الساعة تجاوزت الثانية عشرة بدقائق. جميل، لدي وقت كثير، هل أتنزه قليلًا في الإسكندرية؟ أم أستقل القطار وأعود مباشرة؟

أخرجني من تفكيري أصوات متضاربة عند ناصية الشارع، ثمة رجل ثلاثيني العمر، أوروبي الملامح، ذو أنف أقرب للسمت الإيطالي أو اليوناني، يتناقش مع مارة مجلببين يبدو عليهم نفاد الصبر.

اقتربت بدافع الفضول. كان الرجل يقول بالإيطالية: «كيف بلد كبلدكم مليئة بالأوروبيين ولا تفهمون كلمة واحدة؟!». صرفت الناس عنه وخاطبته بلغته: «أي خدمة سنيور؟». اتسعت عينا الرجل بابتهاج، أمسك كتفيَّ بحرارة: «أخيرًا» وطفق يتكلم بسرعة: «عشر دقائق أحاول إفهامهم أمرًا بسيطًا. أريد مرافقتهم في عملهم أو إلى بيتهم».

«بيتهم؟!»، حملقت به في استغراب، هل ترجمت كلماته جيدًا؟

أجابني الرجل مشيرًا لحقيبة قماشية يحملها على كتفه، انتبهت إليها لأول مرة: «وصلت مصر فقط بالأمس، أنا رحالة ورسام، أجوب البلدان لأنقل حضارة الشرق وسحره». قلت متفهمًا: «ولذلك تريد أن ترافق الناس إلى بيوتهم؟». قال: «ميو كارو! أريد رؤية مصر الحقيقية».

قلت: «انظر، دعك من فكرة زيارة البيوت، زُر مناطق شعبية، مقاهي». ارتفع حاجباه: «بالضبط، هذا ما أريده»، وأمرني متلهفًا: «استوقف أحدًا وأخبره بذلك».

وجدت صحبته مسلية، فقلت: «قد تعاني صعوبة في التفاهم مع الناس. ما زال أمامي ساعتان أو ثلاث. سأذهب معك».

ضم الرجل باطن كفيه شابكًا أصابع يديه أسفل ذقنه، وقال بامتنان: «أوه ميو ديو، سي كوزي بيلا!».

ابتسمت لعبارته، وأشرت لأول عربة بحصان في حال جيدة. ركبنا، وأمرت الحوذي: «تجول بنا في قلب الإسكندرية».

ارتاب الحوذي: «والأجرة؟!».

قلت: «يا أخي لن نختلف، ستكون بقدر سَيرك بنا».

ومضت بنا العربة، والإيطالي يتقلب حماسة، وخطر لي أنني لم أعرف اسمه بعد، سألته، فأجاب وهو يصافحني: «إمبيرتو فاليريو». كانت مصافحته قوية وحارة، استعدت يدي متمتمًا: «مظهر شقير».

وتنقل بنا المكاري بين شوارع الإسكندرية. لست خبيرًا بها، فلم أعرف أين تتنقل بنا العربة، إلا أن بعد مُضي نحو ثلاثين دقيقة بدأ الإيطالي في التذمر: «ما بال البلدة خالية هكذا؟!».

شرحت له: «اليوم الأحد، هنا الإجازة الأسبوعية في المحافظة و...»، قاطعني الإيطالي: «إجازة! كنت أظنها الجمعة، كبلد مسلم».

قلت: «الإسكندرية دون سائر بلدان مصر، مدينة أوروبية إلى حد بعيد، إلى جانب بورسعيد. يسكن هنا المستوطنون اليونانيون، والإيطاليون، والمالطيون. يسكنون جنبًا إلى جنب مع السكان المصريين منذ عصر سعيد؛ الخديوي السابق».

تساءل إمبيرتو: «حقًّا! وماذا يشتغلون؟». أجبت والعربة تتهادى بنا: «أغلبهم يعملون بالتجارة. وأكثرهم مرابون، خاصة اليونانيين الذين ينتشرون في القرى بالأخص».

وأشرت للشارع: «ولأن اليوم إجازة، ففيه يتجمع الأجانب العاملون والمقيمون فيها فيخرجون للنزهة، ولذلك ترى إنجليزًا ومالطيين ويونانيين وإيطاليين».

وتوقفت بنا العربة، أخرجت رأسي فرأيت كونستبلًا يتحدث مع الحوذي، قلت لرفيقي: «أتينا على سيرة الطليان فظهر لنا واحد».

دهش إمبيرتو: «هنا! أين؟».

أشرت للكونستبل، كان الحوذي يحاول التفاهم معه، وتساءل

إمبيرتو: «هل الإيطاليون يعملون هنا في الشرطة؟». قلت: «يووه! ما أكثر الأوروبيين القادمين لمصر للبحث عن عمل».

ويبدو أن الكونستبل سمع عبارة إمبيرتو الإيطالية، فترك الحوذي وخاطبه: «هل أنت إيطالي؟».

أومأ إمبيرتو برأسه، فخلع الكونستبل قبعته: «يجدر بك إذن الذهاب من هنا. ويفضَّل أن تغادر الإسكندرية».

اندهشت لعبارته، فيما احتج إمبيرتو: «ماذا تقول؟ لقد جئت للتو!». رفع الكونستبل منكبيه ثم أرخاهما: «كما تريد، فقط تذكَّر أنني حذرتك». قال إمبيرتو: «ولماذا كل ذلك؟».

قال الكونستبل الإيطالي: «لي زميل بالعمل -إيطالي مثلي- أخبرني بالأمس بوجوب مغادرتي الإسكندرية؛ لأن أعمالًا سيئة وشيكة الحدوث. قال إنه لاحظ بدوًا مريبي السحنة يتوافدون تدريجيًّا منذ أسبوع، في منطقة قريبة من الحي الأوروبي».

وتلفت حوله ثم قال بنبرة مهمومة: «فيجو -زميلي- أخبرني أنه جرى لفت نظر مدير الإسكندرية -لطفي- أكثر من مرة، إلى التجمع غير العادي لهؤلاء البدو الذين تبدو سيماء الشر على مظهرهم؛ لكن دون جدوى، المحافظ لم يقم بأدنى فعل».

ثم نظر لي كما لو انتبه لوجودي لأول مرة: «هذا الذي معك، هل يتحدث لغتنا؟».

لذت بالصمت، فيما تجاهل إمبيرتو سؤاله، وقال: «ورغم ذلك واضح أنك لم تعمل بنصيحة زميلك». قال الكونستبل: «لا أنكر تشككي، ولكني منذ الصباح أجد ما يريب، البلد باتت تعج

بوجوه صحراوية من بدو الصحراء الغربية. أعمل هنا منذ سنوات، من غير المعتاد انتشارهم بهذا الشكل، بالإضافة لتجمعات من النوبيين غير مألوفة».

ونظر لي الكونستبل مرة أخرى، ثم أولانا ظهره: «على كل حال، لقد صدق زميلي. سأغادر الآن كما غادر». وابتعدَ عنا، فقال إمبيرتو: «هكذا الطليان، يريدون أن يستأثروا بالخير وحدهم، ولا يشاركونه حتى مع بني جلدتهم».

وسألت الحوذي عن موقعنا، فقال: «نحن دخلنا حي اللبان».، ونظر حوله وأردف: «في شارع السبع بنات».

أمسك إمبيرتو بذارعي مشيرًا إلى اليمين: «هل هذا كافيه بوبولاري؟».

قلت: «نعم، هذا مقهى شعبي».

قال: «كفانا تجولًا إذن. فلننزل ونسترح به قليلًا». وربت على منكب الحوذي مرددًا: «فيرماتي كويي».

ويبدو أن السائق فهم العبارة أو الإشارة، فشد لجام حصانه فتوقف.

تأملت المقهى البائس، قلت: «فلنذهب لآخر أرقى قليلًا». قال بنبرة حاسمة: «بل هذا هو المراد، أريد رؤية مصر الشعبية». مططت شفتي السفلى، ونزلت منصاعًا. أعطى إمبيرتو الحوذي أجره، فقال محتجًّا: «خمسة قروش!». قلت للحوذي: «لا تتحاذق عليه لأنه أجنبي. تعلم أن هذا مناسب جدًّا». نفخ الحوذي وابتعد بعربته، كان بوسعي أن أسمع سبابه الفاحش رغم ذلك.

سبقني إمبيرتو بحماسته إلى داخل المقهى، رفعت رأسي لأعلى أتأمل لافتته: «مقهى القزاز».

نظرت لرواده المجلببين، ثم دلفت في إثره.

***

بدا إمبيرتو مستمتعا جدًّا بأجواء المقهى الشعبي الفقير، الناس متباينو المظهر، مصريون، نوبيون، يونانيون، بدو، صعايدة، فلاحون، الضحكات، قرقرة النراجيل. كان يرى في كل ذلك أجواء جديرة بالتسجيل، أما أنا فكنت أتبسم لانبهاره. ذاق إمبيرتو شراب السحلب، واليانسون، والشاي باللبن، والحلبة، استغربت أن معدته تحتمل كل ذلك. كان يخاطبني بحرارة: «سأكون ممتنًّا جدًّا سنيور مظهر، إن تسنَّى لي لقاؤك بالقاهرة، سأزورها بعد أسبوع، لن أجد خيرًا منك لـ...»، وقطع حديثه جلبة مفاجئة وقعت عند طاولة تحضير الطلبات!

كان الصياح مرتفعًا كفاية لأسمع الصوت الخشن الثائر: «ساعتان كاملتان أدور بهذا الملعون على كافة خمارات الحي الأوروبي، يدخل لدقائق ليخرج سكران أكثر مما دخل، ثم يطلب الذهاب لخمارة أخرى، وهكذا حتى وصلنا إلى هنا. لا يمكن أن أعمل أكثر من ذلك دون الحصول على أجرتي!».

لمحت رجلًا يرتدي حلة قريبة الطراز من خاصتي، يقول بلسان ثقيل: «ابقَ... ابقَ معي، ما زلت أحتاجك».

وسمعت عجوزًا مُجلببًا جواري يقول فيما يلعب الطاولة: «سيد العجان هذا؛ الشجار في دمه».

بدت لي لكنة الرجل السكير مألوفة، وكذلك ملامحه. فيما بدا أغلب

رواد المقهى غير مكترثين وكأنما معتادون على هذا النوع من الجدال، كان إمبيرتو يدور بكرسيه ليشاهد ما يجري مشغوفًا.

وتعالى صياح المكاري: «لن أنتظرك أكثر، ولن أتزحزح من مكاني أيها المالطي حتى تعطيني أجري».

المالطي! نعم، أنه الرجل الذي رأيته صباح اليوم بمكتب سير كوكسن!

كان المكاري قد بلغ ذروة الغضب، فألقى إليه المالطي السكران شيئًا في الهواء بازدراء. التقطه المكاري، ثم أطلق صوتًا خيشوميًّا طويلًا، وصاح: «قرش؟! أكثر من ساعتين أنهكتني وأنهكت الحصان بعشرة مليمات؟!».

جاوبه المالطي ببرود: «هيا، ابتعد بنباحك عني يا بربري!».

فكان جواب المكاري أن انقض على المالطي يريد عراكه. توترت في جلستي، ولكن العجيب أن رواد المقهى جالسون في هدوء من اعتاد كل ذلك. رغم ذلك لم أستطع تحويل نظراتي عنهما، وما أدري إلا والمالطي يستل سكينًا مربوطة بحبل طويل إلى طاولة إعداد الطلبات، ليطعن بها المكاري في بطنه، الذي تكوم فورًا على الأرض وقد تداعت قوته.

هنا انقض شاب مجلبب على المالطي، ولكنه تفادى انقضاضته، وقطع بالسكين ظهره!

تقدم رجل آخر يزود عن المطعون، فإذا بشاب ذي ملامح يونانية يترك مقعده ليهوي على رأس الرجل بزجاجة خمر.

وتكهرب الموقف في الحال!

تفاديت كرسيًّا قُذف ناحيتي في اللحظة الأخيرة، ثمة جنون أصاب الجميع فتقاذفوا كل ما طالته أيديهم.

نزلت تحت الطاولة فإذا إمبيرتو قابع بالأسفل جاحظ العينين!

كان الجميع يتضارب في عنف مروع، من موقعي شاهدت بقع الدماء التي تتناثر على الأرضية المكسوة بنشارة الخشب. أمسكت يد إمبيرتو وقلت: «يجب أن نخرج من هنا حالًا». أومأ إليَّ برأسه مذعورًا.

تحينت لحظة مناسبة ثم ركضت خارجًا من المقهى، والإيطالي في أثري.

ولكن ما إن غادرنا، حتى كان ما رأيناه بالخارج يفوق الخيال!

***

الدكاكين بامتداد الشارع تتحطم، زحام شديد لم يكن موجودًا حينما دلفنا للمقهى، متى أتى كل هؤلاء؟!

الجميع مشتبكون، في ناحية أولاد البلاد يركضون وراء أوروبيين مذعورين، وفي ناحية أخرى أجانب يُعملون سكاكينهم في مصريين محشورين في زاوية.

«ما هذه المقتلة؟!»، قال إمبيرتو من ورائي مذهولًا. أمسكت بيده، وسحبته مهرولًا: «هلم إلى هناك».

«إلى أين؟».

«هذا الزقاق ينتهي إلى منطقة يسكنها الأوروبيون، يمكنك الاختباء في أي من بيوتهم ريثما تنتهي هذه الفوضى».

وشققت طريقي بين المتشاجرين بصعوبة، كنت من الاضطراب في غاية؛

كيف سرى نبأ مشاجرة المقهى بهذه السرعة؟! ودلفنا إلى الشارع المراد، كان يعج بأولاد البلد على غير العادة، هل يمكن أنهم أتوا إلى هنا كذلك ليحتموا بمنطقة الأجانب؟

قلت للرسام الإيطالي لاهثًا: «تخير أي هذه البيوت تريد واقبع بها ريثما...»، وقبل أن أتم عبارتي، لمحت النوافذ تتفتح، ليطل منها ما بدا كأفواه البنادق، هل يمكن أن...

وفتحت البنادق نيرانها على كل من في الشارع، بمن فيهم نحن!

خارت ركبتاي، تمددت على الأرض حاميًا رأسي بذراعي ملتاعًا، هل غربل جسدي الرصاص بعد؟

آهات الألم من الجميع تتعالى في كونشيرتو حزين، الرجال يتساقطون والدماء تتفجر منهم. التفتُّ أبحث عن إمبيرتو، وجدته وراء إحدى الجثث المخضبة بالدماء، التقت نظراتنا، على ملامحه الهول.

ذعرت مع قبض يد على عنقي، أزحتها في عنف، كانت يد شاب يحتضر على الأرجح، جلبابه الكتاني مخضب باللون القرمزي، في عينيه نظرات متوسلة.

لمحت إمبيرتو ينهض ويركض مترنحًا، ماذا يفعل هذا المأفون؟ الرصاصات ما زلت تنهمر!

قررت القبوع مكاني وتركه لمصيره، ولكني وجدت نفسي أنهض وراءه مُطلقًا سبة ساخطة. انعطفت يسارًا، فوجدت إمبيرتو مُنهمكًا في حديث مع رجل شرطة خمسيني، يدور بينهما حديث عصبي، اقتربت، اكتشفت أن حديثهما يدور بالإيطالية، كان إمبيرتو يقول بانفعال: «كيف تكون رئيس الشرطة بحي اللبان ولا تفعل شيئًا؟!».

اندهشت لمعرفة أن رئيس الشرطة هنا إيطالي!

وقال رئيس الشرطة بعصبية: «مساعدي المُترجم مُتغيب اليوم، كيف أتفاهم مع الأهالي لأوقفهم؟ إنني حتى لا أعلم سبب هذه الفوضى؟». أشار إمبيرتو تجاهي: «هذا يجيد الإيطالية، اتخذه مترجمًا وقم بعملك!». صحت في إمبيرتو منفعلًا: «من يبقى هنا الآن يُقتل! لا وقت لدي، ابقَ أنت هنا إن شئت». وتركتهما وهرولت مبتعدًا.

لحق بي إمبيرتو، خرجنا للشوارع الرئيسية، كان نطاق المشاجرة قد اتسع، البدو يحملون سكاكين ونبابيت وهراوات، ورعايا الدول الأجنبية يحملون مسدسات وبنادق. جنون مطبق!

لم أدرِ إلى أين أذهب؟ سمعت الفارين يرددون أن الإسكندرية اشتعلت بالكامل، سمعت بامتداد الهياج إلى شوارع: الهماميل، والإبراهيمية، والمحمودية، والمنشية، وشارع الضبطية، بل ومنطقة الجمرك. إن صدقت هذه الأقاويل، فمن الجلي تركزها في الشوارع التي يقطنها الأوروبيون.

اقتربت من مدرسة الرهبان، ثم تواريت فورًا، كانت جماعة مسلحة بالمسدسات والبنادق يصيحون باليونانية، فيما يفتحون نيرانهم على المارين بلا تمييز!

هربنا، رأيت صعايدة مقبلين يحملون الهراوات والنبابيت وعلى ملامحهم الوعيد، ثمة مقتلة أخرى على وشك الوقوع!

انتقلت من شارع لشارع، غير مستوعب للسرعة غير المنطقية اللي تلتهب بها الأحداث وتتعاظم. وصلنا للميدان، رأيت تجمعات لبلطجية،

يؤازرهم البدو والنوبيون، انعطفت لأول زقاق صادفني، كانت الدكاكين تُسرق وتُنهب جهرًا، عدنا أدراجنا، لم أدرِ كم ركضنا حتى وصلنا لمنطقة هادئة، لم أعلم أين أنا، رأيت قوة من قوات المستحفظين واقفة عند ناصية منزل رفيع الطراز، هرولت إليهم، ولكن الإيطالي سبقني، هاتفًا بهم: «النجدة، الناس يقتل بعضهم بعضًا».

بدا الاهتمام على ملامحهم، وقال أحدهم: «تحدث بالعربية كي نفهمك...»، ترجمت ما قال إمبيرتو، وأضفت من عندي مزيدًا من التوضيح، إلا أن من بدا أنه قائدهم تساءل: «هل أصيب جسده بأي سوء؟». هززت رأسي نفيًا، فقال فرد الأمن بلا اكتراث: «إذن تابع طريقك ولا تشغل بالك».

استفزتني عبارته، لم أترجمها، بل صحت به: «هل تسمع أذناك ما تقول؟! نخبرك أن ثمة مقتلة تجري في الشوارع، ولا تتحرك؟! حتى اسمكم مشتق من حفظ الأمن!».

تبادل المستحفظون النظر، وقال قائدهم بلا مبالاة: «كما ترى منطقتنا هادئة، ونطاق تحركنا في نطاق مناطقنا. نحن لا نحرك قدمًا ما لم تصلنا أوامر من رؤسائنا».

شعرت بحرارة لاهبة تنبعث مني، كلام مستفز جدًّا، فكرت في رد يحرق دماءه، ولكن إمبيرتو سحبني برفق مشيرًا إلى الضفة الأخرى للطريق: «دعنا نذهب إلى (سوماريفا) هذا محل حلوى جيد جربته بالأمس، أشعر أنني بحاجة ماسة لبعض السكريات».

نظرت إليه بغير استيعاب، فقال يستحثني: «هيا قبل أن تصل الاضطرابات إلى هنا، ويخربونه كذلك».

وسبقني مهرولًا إليه. جاريته مضطربًا، دخل إمبيرتو للمحل، حانت مني التفاتة لقوة المستحفظين، فوجدتهم يتابعوننا باستخفاف. كنت مشوشًا، لا شيء مما يجري طبيعي. فكرت في الذهاب لأقرب مكتب برقيات، هذه أمور لا تنتظر.

انتبهت على صخب وصياح يتعالى، وعبر مجال بصري عربة فاخرة يجرها حصانان، العربة تنهال عليها المقذوفات، حصى، طوب، أحجار، وحتى شباشب!

جذب الأمر اهتمامي، اقتربت بحذر، ولكن العربة أوقفتها جماعة كبيرة من النوبيين المسلحين بالنبابيت، أزاحوا السائق، ثم انتزعوا راكبها من داخل العربة. تملكني الفضول لمعرفة من هذا الذي أثار غضب كل هؤلاء، فإذا بالجموع تفك العربة عن الحصانين، ثم تقلبها!

وسمعت عبارات تنقع غِلًّا من الناس المتجمعين: «هذا الرجل هو من سلح الأوروبيين بالأسلحة».

«نعم، لقد رأينا عربات تتجه من ميناء الإسكندرية إلى مبنى القنصلية».

«الشائعات صحيحة إذن»!

«ليست شائعات، رئيس الجالية اليونانية أمبرواز سينادينو، ونظيره المالطي، شوهدا يترددان على قنصلية هذا الرجل».

سألت أحدهم محتارًا: «من هذا الرجل؟».

قال صبي بحماسة: «كوكسن، إنجليزي وجهه أحمر مثل عجيزته!».
رددت مبهوتًا: «هذا الذي قلبتم عربته؛ كوكسن؟!».

وسمعت وقع حوافر جياد تقترب، إنها قوات شرطة. لا ريب أتت لنزع القنصل البريطاني من أيدي المواطنين. وسمعت أحد الجنود يصيح بقوة: «افسح الطريق لليوزباشي على صالح»!

أخذني الفكر، تدخلوا لأجل القنصل البريطاني، وأعرضوا عن أبناء البلد!

ولم يبالِ أحد لصيحة الجندي، فشرعت القوات تشق طريقها بنفسها إليه بالقوة، بالفعل أفلحوا، حاولت الاقتراب أكثر، ولكني سمعت صيحة أخرى: «أمسكوا هذين النوبيين! إياكم أن يهربا!».

وجرى تدافع محموم، وما لبثت ووجدت الجنود يحملون كوكسن وقد خارت قواه كما لو فقد الوعي. سألت أحد الصبية الذين كانوا يصفقون فرحين: «ماذا جرى يا شاطر؟».

أجاب الصبي مغتبطًا: «كوكسن تلقى ضربتَي نبوت لم يأخذهما ثور في مجزر، الأولى على مؤخرته، والأخرى على رأسه».

وقال شاب آخر غاضبًا: «يستحق أكثر، ولكن ذلك اليوزباشي أنقذه من بين أيدينا»!

ابتعد بسرعة موكب ضباط الشرطة حاملين القنصل، فيما ابتعدت الجموع الغاضبة وصيحات تنبعث منها: «أنقذوا إخوانكم، الأجانب على أرضنا ويقتلوننا؟!».

أقبل إمبيرتو يلوك شيء ما، بيده طبق ورقي به قطعة واحدة من الجاتوه، لم يعزم عليَّ، ما قلة الذوق هذه؟! حتى لو كان هذا سلوكًا اعتياديًّا في بلده، فهذا غير لائق!

«هذه السكريات جاءت بوقتها»، قال إمبيرتو فيما يلوك قطعة أخرى. أشحت بوجهي بعيدًا: «سأذهب لأقرب مكتب برقيات».

قال بلا تردد: «سأذهب معك».

سبقته بخطواتي بلا تعقيب.

البلد الجميلة أضحت في فوضى كاملة، الناس إما يتشاجرون أو يهرولون بما استطاعوا نهبه من المحال المحطمة. منظر الجميع الراكضين في كل اتجاه يثير الرهبة والجزع، يشعرك أنه يتعين عليك أن تجري أنت أيضًا، حتى ولو لم تعلم إلى أين؟!

وغمغم إمبيرتو: «قدماي تورمت من كثرة المشي، لن أستطيع المواصلة».

قلت واجمًا: «توقف إن شئت»، وتابعت مسيري، فلحق بي مندهشًا: «سنيور مظهر، لماذا تغيرت تجاهي؟».

ماذا أُخبره؟ دمدمت: «كما ترى لا جياد ولا حمير لنستقلها». نظر إليَّ مندهشًا ثم تابع المسير صامتًا.

«مظهر؟!».

التفتُّ للصيحة، كان رجل ذهبي الشعر رغم أعوامه التي تخطت الأربعين، أقبل عليَّ مكفهر الوجه: «جميل أنك هنا، لقد انتبه القصر للأمر أخيرًا إذن!».

كان محدثي «آري أدلر»، كبير الجالية الألمانية في الإسكندرية، رغم ضآلة الجالية بالمقارنة ببقية الجاليات، إلا أن الرجل واسع النفوذ. ربما بسبب السلطة المتنامية لألمانيا الجديدة في ظل بسمارك، وربما لأنه من كبار رجال المصارف كذلك.

كان الرجل يتحدث بعربية جيدة نسبيًّا، فقلت: «أنا هنا منذ الفجر، وفوجئت مثل الجميع بهذه الأحداث».

اتسعت عينا الرجل: «إذن لم يعلم الخديوي بعد؟!». قلت: «لا أعلم»، وأشرت للطريق: «كنت في سبيلي لأرسل برقيات للمحروسة بما يجري».

نفخ آري أدلر واجمًا: «غير ممكن، أنا عائد من هناك، الموظفون ممتنعون لسبب ما!».

وقبل أن أبدي اندهاشي، فوجئت بأدلر ينتفض، ويهرول بعيدًا عني! نظرت حيث يتجه، فإذا عمر لطفي -محافظ الإسكندرية- يسير وسط عدد يسير من قوة المستحفظين. لحقت بأدلر وإمبيرتو ورائي، لأرى أدلر يقف أمام عمر لطفي، ويسأله محتدًّا: «أخيرًا ظهرتم؟! بحكم منصبك؛ كيف لم تفعل شيئًا من أجل وقف الاضطرابات والقتال؟!».

أكيد عمر باشا لطفي يعرفه، فما أكثر ما تلاقيا في قصر الخديوي، لذا؛ أجاب بعينين خاملتين: «أنا عائد للتو من عند كوكسن، القنصل الإنجليزي، الرجل ضُرب إن كنت تعلم». قال آري أدلر: «لماذا لم تأتِ ومعك خمسون شرطيًّا راكبًا على الأقل لتوقف هذه الفوضى؟!». رفع عمر باشا لطفي كتفيه: «السيد قنديل قائد الشرطة، مختفٍ تمامًا، لم أستطع العثور عليه». قال أدلر بانزعاج: «والجنود؟! لماذا لم يتدخلوا لوقف الاضطرابات؟!».

اكفهر وجه محافظ الإسكندرية: «هم لا يستطيعون التحرك دون أوامر. قلت إن قائدهم مختفٍ!».

أدلر: «وأين من ينوب عنه؟! ثم لماذا لم تبرق بعد للمسؤولين بالعاصمة للتعامل مع الأمر؟».

هنا نهره عمر باشا وقد تمعر وجهه: «كونك رئيس الجالية الألمانية لا يعطيك أي سبب لمساءلتي!». وتخطاه ورجاله في أثره، لأرى أدلر وقد امتقع وجهه بشدة، وطفق يردد: «ما هذه البلادة؟ هكذا سلوك يستوجب أقصى مساءلة في بلدي!».

قلت: «يتعين أن أذهب لمكتب التلغراف، ربما أتمكن من إرسال ما أريد. خطورة ما يجري تستلزم أن أحاول. على الأقل أكون قد اتخذت موقفًا إيجابيًّا».

وافقني آري أدلر بإيماء من رأسه: «لا تتفاءل، ولكن حاول، وأنا سأذهب لشؤوني».

ومضى كل منا في اتجاه.

«(جاي) يا مسلمين... (جاي)... يقتلون إخواننا، المسيحيون يقتلون المسلمين!».

مسيحيون ومسلمون! ما هذا النداء؟! تتبعت قائله، وجدته يختفي في أحد الحواري، تعبت، لم أستطع متابعة المطاردة.

ذهبت إلى مكتب التلغراف، عند عتبة الباب رأيت رجالًا في زي مدني، حالوا بيني وبين الدخول.

«عذرًا يا أفندي».

«أريد إرسال تلغراف!».

«ممنوع».

«بأي حق؟!».

«بأمر مدير الإسكندرية، عمر باشا لطفي».

«يا أفندي لن أرسل أي برقية، إنها للقصر الخديوي!».

تبادل من على الباب النظر، وقال أحدهم وهو يبعدني بخشونة: «ألا تعرف العربية؟ قلنا ممنوع».

قلت لاهثًا: «ولماذا؟».

قال الذي دفعني: «عمر باشا لطفي حجز المكتب لإرسال برقيات على درجة عالية من الأهمية. تعال غدًا وأرسل ما تريد».

نزلت الدرج مضطربًا، وقررت الذهاب حالًا للمحطة، لأستقل القطار إلى القاهرة، وأبلغهم ما يجري بنفسي.

في الطريق لمحتُ وجهًا مكفهرًّا ينزل من عربة يجرها حصانان، بدا لي الوجه مألوفًا، إنه يعقوب باشا سامي، وكيل نظارة الجهادية، فرحت جدًّا لمرآه، أخيرًا علمت القاهرة؟!

وهرولت إليه مصافحًا، تلقاني الرجل بملامح مكدودة، وسرعان ما أحبطني: «لم أعلم بالأحداث سوى الآن، إنما أتيت من القاهرة بناء على مأمورية أمَّرنيها أحمد باشا عرابي، أن أتحرى عن أسلحة نزلت من السفن الإنجليزية الرابضة أمام الإسكندرية، إلى بيت القنصل كوكسن، مع ورود مؤشرات لأعمال عنف قد تعود إليها».

جمجمت: «للأسف، إما أن المعلومة تأخرت، أو إرسالك تأخر!».

ثبَّت نظراته عليَّ: «عفوًا، ماذا تقول؟».

تنحنحت مفتعلًا سعالًا زائفًا، هل أخبره كل ما خبرته بنفسي من

بداية اليوم؟ لكني مُرهق، ولا طاقة لي الآن. وحسم الأمر مرور طابور عسكري يضرب أقدامه بقوة تثير الرهبة أثناء خطواته.

«أخيرًا»، تمتمت وأنا أرى نزول جنود الجيش وانتشارهم الكثيف في الشوارع، فيما زوى وكيل النظارة ما بين حاجبيه وكأنما فوجئ برؤية فرقة الجيش. وسمعته يقول: «سليمان بك سامي!». وهرول باتجاه قائد الجند، أسرعت وراءه.

«هل جاءك الأمر من القاهرة؟»، سأل مُتوترًا.

«بل بناء على رسالة شفاهية، غير مكتوبة، نقلها لي اللورد الإنجليزي دفرين عن المحافظ عمر باشا لطفي، الذي اقترح عليَّ النزول بالقوات دون سلاح».

تطلعت لجنده المدججين بالسلاح، فيما يردف: «طبعا هذا تهريج، اقتراحه هذا إما ليظهرنا كالمغفلين، أو ليورطنا!».

قال يعقوب باشا: «لعله خشي أن تظهروا أمام الأجانب بغير مظهر المحايد».

قال بنبرة صلبة: «الحياد لا مكان له في هكذا موقف! قطعًا نحن منحازون، للحق طبعًا».

وأشار للقوات: «لقد استغرق الأمر ساعة كاملة لآتي بالقوات النظامية في كامل تسليحها -خرقًا للأوامر- على مسؤوليتي الخاصة».

وابتعد عنا ووراءه طوابير جنده، ورفع صوته: «سأستكمل توزيع جنودي بنفسي في أماكن الاضطرابات».

رقبت ابتعاده مُغمغمًا: «هذه الإجراءات كانت كفيلة بوقف الفتنة في ربع ساعة إن كانت من بادئ الأمر، لو أن المسؤولين أرادوا ذلك».

لم يعقب يعقوب باشا، وتركني ماضيًا لحال سبيله. لم أشعر بالحنق، من أنا ليهتم بي وكيل نظارة الجهادية؟

لمحت مكاريًّا بحمار، أوقفته طالبًا أن يوصلني لمحطة القطار. لم أكن بعيدًا جدًّا؛ لكني مرهق حقًّا.

جلست أخيرًا بعربة القطار المتجه للقاهرة، الشمس أوشكت على الغروب، أمامي شاب نحيف ذو ملامح أوروبية شرقية منهمك في الكتابة بكل حماسة، دققت النظر فيما يكتب، لم أفقه حرفًا! ويبدو أنه لاحظ تطفلي، فترك القلم ومد يده مصافحًا: «ميلان ديمتري، مراسل صحفي روسي». كان حديثه بالإنجليزية. سألته عن الصحيفة التابع لها، ذكر اسمًا معقدًا تبخر من ذهني لحظيًّا.

أشحت بوجهي تجاه نافذة القطار أرقب الأراضي الزراعية المتوالية، فإذا به يقوم من مقعده ويجلس جواري، ويقول بحماسة: «وجهك يبدو مألوفًا، إما لمحتك في القصر أو في مؤتمرات الوطنيين».

يا له من لماح، لا يعلم أنني في كلا الموقعين، ولم ينتظر تعقيبي، بل قال بحماسة: «كم كان صعبًا عليَّ ترك الأحداث المشتعلة والعودة للقاهرة، ولكنها أوامر رئيسي».

وأشار للأوراق بيده: «قد كتبتُ كل شيء، لقد ذهبت والعراك مستمر بالقرب من ميناء إسكندرية، تخيل أن كل من كانوا على ظهر المراكب الهاربة من الفوضى جرى ضربهم وقتلهم؟! قُتل ما يربو على مائتي

شخص أوروبي. منهم صف ضابط من البارجة البريطانية (سبريت) التابعة لصاحبة الجلالة».

توترتُ، إن صح كلامه فهناك أزمة جديدة تلوح في الأفق! وكأن ذلك ما ينقصنا.

واحد من اثنين سيتحمل هذه المسؤولية، إما الخديوي أو عرابي!

تابع ميلان: «ذلك القائد الچركسي، إسماعيل باشا كامل، قائد قوات الدرك في الإسكندرية، كنت شاهدًا على تقاعسه المذهل عن التدخل بأي شكل لحفظ الأمن. عندما غادرت الميناء بعد نحو أربع ساعات من بدء الفوضى، لمحت المحافظ عمر لطفي في موكبه، يتنقل من نقطة إلى أخرى. تخيل؟ لقد رأيت بنفسي رجلًا شديدًا يرتدي زي الصحراويين، بيده بندقية، كلم المحافظ كلامًا لم أفهمه، فيما يشير لأوروبي واقف بنافذة سكنية، المحافظ أومأ له، فإذا بالصحراوي يردي الأوروبي قتيلًا بطلقة واحدة، فيما مضى محافظكم في طريقه وسط رجاله بلا اكتراث!».

شعرت بخدر بأعلى رأسي، تمالكت نفسي، وقلت له: «هل أنت مستعد بقول شهادتك هذه في نظارة الجهادية».

أشار لأوراقه بثقة: «كل شيء مدون هنا». وبحث في الأوراق بين السطور، ثم قرب إحداها لعيني: «انظر، لقد سرتُ وراء موكبه، هذه العبارة كررها كثيرًا لجنوده، في عقبها كانوا يتراجعون عن التدخل. لم أفهمها لأني لا أعرف العربية، ولكن من كثرة تكرارها كتبتها بأحرف روسية».

حملقت في السطر الذي يضع أصبعه عليه، هل يتوقع إجادتي للروسية؟!

ويبدو أنه فطن لما أفكر فيه، فضحكت ضحكة مرتبكة، ونقل السطر على الهامش بأحرف إنجليزية:

«Daoo wela del kalb yemotu».

لم أفهم، حملقت في العبارة، ثم ومض المعنى بذهني: «دعوا ولاد الكلب يموتوا!».

رددت العبارة بصوت خافت، فاتسعت عينا المراسل الروسي انفعالًا: «بالضبط، هذه هي العبارة التي كان لا يفتأ يرددها»، ومال ناحيتي سائلًا باهتمام: «ما معناها؟».

أخبرته، فاضطربت ملامحه، وقال: «ما معنى هذا؟!».

رجعت بظهري إلى الوراء، عدت للشرود للمناظر التي تتوارى سريعًا وراء نافذة القطار، وأنا أردد واجمًا: «فعلًا... ما معنى هذا؟».

***

تخيرت أكثر الأماكن انزواء بالمقهى الشعبي، وسحبت مقعدًا، ثم جلست منتظرًا، المقهى مزدحم بالأفندية والمجلببين، أحاديثهم الجانبية متداخلة كطنين النحل، رائحة النراجيل المختلفة مختلطة بروائح اليانسون والشاي المغلي. سحبت جريدة «الأهرام» من تحت إبطي. العناوين هي نفسها طوال الخمسة عشر يومًا الماضية، جميعها تدور حول التطورات التي آلت إليها تحقيقات اللجنة التي شكلها الخديوي بخصوص أحداث الإسكندرية، كلها تتكلم عن عدد ونوعية الممتلكات والمقتنيات التي جرى سلبها ونهبها أثناء الاضطرابات، ولا تتعدى ذلك.

طويت الصحيفة ساخطًا، هذا كل ما استوقفهم بخصوص المجزرة! المسروقات؟! ما هذا التهريج؟!

ووجدت أذنيَّ تلتقطان جانبًا من أحاديث الناس حولي، يبدو أن ثمة جدالًا جماعيًّا اندلع.

«يا جماعة ما جرى لأهلنا في الإسكندرية لا يمكن السكوت عليه!».

«إنهم يظنون أنهم أدبوهم هكذا، لقاء إجماعهم على تأييد الثورة!».

«لعل هذه المقتلة كان يفترض أن تجري لنا نحن، هنا بالقاهرة».

«لِمَ لا؟! لعل كثافة الإشاعات التي راجت هنا منذ أسابيع، هي ما نقلتها للإسكندرية، وكأنما عميت عيوننا عنها هكذا!».

«ولكن، تُرى، من الفاعل؟!».

تبادل الجالسون النظر لبعضهم.

«بالفعل، من هذا الطرف الآثم المجهول؟ هل هو الجيش؟ هل هو السراي؟ أم الإنجليز؟!».

جاءني صبي المقهى في هذه اللحظة يسألني عن طلبي، طلبت شايًا باللبن وأنا أحاول صرفه بسرعة لأتابع الحوار.

«الجيش معه شرعية الثورة سلفًا، فلا أظن هذه الاضطرابات بمصلحته».

«الإنجليز رابضون على شواطئنا بالفعل، مدججون بقوتهم الغاشمة، فما حاجتهم لهذا اللف والدوران؟!».

«لم يتبقَّ إذن سوى طرف واحد...».

وقطع انتباهي دخول رجل يرتدي ملابس الأفندية مجال بصري، رفعت نظري لوجهه، إنه عبد الله النديم، أتى أخيرًا.

سحب الشاعر المفوه مقعدًا وجلس بالطرف المقابل لطاولتي، أرخى طربوشه جانبًا وقال: «تأخرت عليك؟».

هززت رأسي نافيًا، رغم أني أردت قول نعم.

رأيت عينيه تجوبان العنوان البارز بالجريدة المطوية، وقال: «دعك من هذا الكلام الفارغ. لقد أتيت توًّا من عند أحمد باشا عرابي، كل ما ينشر بالصحف محض تهريج للإلهاء، وصرف الانتباه». ومال ناحيتي قائلًا: «لقد شكل عرابي -بشكل غير رسمي- لجنة تحقيق بعيدة عن لجنة الخديوي، بعدما تجاهلت لجنة أفندينا حثه المستمر لها في تركيز تحقيقاتهم على الجناة، لا المسروقات!».

وضاقت عيناه: «الشاهد؛ قد توصلت لجنة التحقيق السرية التي شكلها -وبعد صعوبات بالغة- إلى معلومات محيرة».

وتجرع جرعة من كوب ماء فوق المنضدة، وتابع: «تبين أن جانبًا من الجثث كانت لمواطنين يرتدون ملابس ذات سمت إسلامي، ولكن بالنظر لباطن معاصمهم، وُجدت صلبان منقوشة على جلودهم!».

وتلفت حوله ثم قال: «علاوة على ذلك؛ أشكال الجروح في أجساد معظم الضحايا، كانت لحراب لا يستخدمها سوى قوات المستحفظين وحدهم!». ونفخ: «لعل هذا كان من أسباب إيقاف التحقيق».

اتسعت عيناي: «أوَ تم إيقافه؟!».

قال: «غير مستبعد. لقد وصل القرار لعرابي وأنا معه في النظارة، قبل أقل من ساعة».

قلت بوجوم: «لجنة الخديوي كانت تستهدف بالأساس إدانة عرابي،

حتمًا وصلها ذات ما وصلكم، فلما تأكد لها ذلك، لعلها لم تُبدِ حماسة بالحفر أكثر من ذلك. فلم تكترث بالمتابعة ما دامت لن تنجح في إلصاق الأمر به في آخر الأمر».

أتى صبي المقهى حاملًا كوب الشاي خاصتي، لم يطلب النديم شيئًا. عندما ابتعد النادل الصغير، تمتم النديم: «عرابي يشكو مُر الشكوى، رغم أنه الوحيد الذي احتفظ بموقعه في وزارة إسماعيل راغب الجديدة، إلا أنه شبه معزول. يبدو كما لو أنه بلا صلاحيات، لا أحد يتعاون معه، أو يزوده بالمعلومات أو يستجيب لأوامره، كما لو أن الكل يتآمر عليه، أو يريد إفشاله».

قلت: «حتمًا تعلم بأمر اللجنة التي شكلها السير إدوارد ماليت». رمقني النديم بانتباه وقال: «لجنة (جروسجين)؟».

أومأت برأسي: «السير إدوارد ماليت، وبتعليمات من اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطاني قام بتعيين (جروسجين) لجمع الدلائل والشهادات عن اضطرابات الإسكندرية. بعدما لقي صدودا من لجنة التحقيق الرسمية التي شكلها الخديوي، بدعواهم أن ممثلي الدول الأجنبية غير مرخص لهم التحقيق في أي شيء سوى ما تمت سرقته من مقتنيات رعاياهم».

مِلت ناحيته، وقلت بخفوت: «يبدو أنهم انتهوا من تحقيقاتهم، وبشكل ما، يبدو أن عيون رئيس الديوان الخديوي قد سرقت التقرير من داخل مكتب القنصل شخصيًّا».

رفع النديم حاجبيه كالمندهش، فوضعت يدي داخل الجيب الجانبي لبنطالي، أخرجت أوراقًا مطوية، ودسستها داخل جريدة «الأهرام»،

وناولتها بحرص إليه: «هذا التقرير نسخته كاملًا خلسة من مكتب المهردار، يجب أن توصله لأحمد باشا عرابي على وجه السرعة».

اتسعت عينا النديم، انفرج فاه كما لو سيتفوه بشيء ما، فندت عني نظرة منذرة، فتوقف، مد يده كما لو سيسحب التقرير، فوضعت يدي فوق يده: «حقًّا ستقرؤه هنا؟!».

ارتبكت نظراته للحظة، فقلت: «قد اطلعت عليه. بإيجاز شديد، تقرير جروسجين يحوي ملاحظات عشرة من الأطباء الأوروبيين المحترفين، نوهوا بأنهم بناء على ما استطاعوا بالكاد فحصه من جثث الموتى بالمستشفيات قبل دفنها، أثبتوا أن أكثر جروح القتلى والمصابين كانت إما بفعل النبابيت أو المدى أو السكاكين، أو الحراب، وتوصلوا إلى ذات ما توصلت إليه لجنة عرابي، من أن تلك السكاكين والحراب هي من تسليح الشرطة والمستحفظين. لجنة جروسجين ربطت ذلك بما توصلوا إليه من أن يوم الأحد 11 يونيو بالذات اقتصر فيه تسليح المستحفظين على الحراب والمدى، وليس الأسلحة النارية على غير العادة. ووفقًا لشهود عيان كانت الأولوية لديهم انتقاء المسيحيين في الطعن، واستنتجوا أن السبب ربما كان لإلصاق هذا الجرم بالمسلمين. كما سجلوا في تقريرهم شهادات بأن كل من التجأ من الفارين سواء كانوا مصريين أو أجانب إلى مخافر الضبطية؛ كانت القوات بالداخل تنفرد بهم وتعمل بهم القتل طعنًا بالحراب!».

رأيت تعابير الصدمة على وجه النديم، إلا أني تابعت بصوت أكثر خفوتًا: «كما سجلوا شهادات بأن رجالًا زيهم أزرق اللون -وهو زي

رجال الدرك كما تعلم- شوهدوا يخبئون نصيبهم من الغنائم خلف البراميل، وتحت أغطية الصرف الصحي، بعدما اكتفت جيوبهم!».

واعتدلت في جلستي، وإن احتفظت بنبرتي الخافتة: «من شهود التقرير الإنجليزي: صراف الباخرة (إنفيسيبل) الرابضة أمام الإسكندرية، وكذلك مهندس صيانة بحرية إنجليزي»، وصمت لحظات لأتذكر: «وكذلك مبشر أميركي مقيم بالإسكندرية».

وأشرت للتقرير المطوي داخل ثنايا الجريدة: «وآخرون لا أتذكرهم، كافة أسمائهم وبياناتهم مذكورة بالتقرير المنسوخ. جميعهم كانوا موجودين في قلب أحداث اليوم الدامي».

وختمت بقولي: «انتهى تقرير جروسجين بملاحظته أن الجناة الواضحين ها هنا، لم يُتخذ تجاههم أي إجراء، أو تحقيق جدي. أما شهود العيان الأوروبيون، فلم يجمعوا على شيء بقدر اتفاقهم على أنهم مدينون بحياتهم لقوات الجيش المصري، التي لولا تدخلها؛ لكانت مذبحة مروعة تضاعفت فيها أعداد القتلى والمصابين».

أخذ النديم الجريدة، ووضعها تحت إبطه، فيما يقول: «طبيعي هذا التقرير يُدفن ولا يرى النور أبدًا». وومضت الحماسة بنظراته: «إن نشر هذا التقرير بالصحف سيُحدث دويًّا مُزلزلًا»، قاطعته راجيًا: «إياك!».

تصلبت نظراته تجاهي، أردفت جاحظ العينين: «سيلفت هذا الأنظار إليَّ، الوحيد الذي يتردد على مكتب المهردار، وفي ذات الوقت يتقابل معكم بأريحية؛ هو أنا. قد أورد مورد التهلكة حال توجه الشكوك إليَّ».
أومأ النديم برأسه كما لو فتر حماسه، فيما أقول: «يكفي أن يعلم به عرابي والجماعة الوطنية، لتتضح الصورة».

زفر النديم، وهمَّ بالقيام، فمددت يدي أوقفه: «ليس الآن، سأسبق أنا عائدًا للقصر، أما أنت فأرجو ألا تنهض من مكانك قبل خمس دقائق على الأقل».

استكان النديم في جلسته، وضعت ورقة نقدية تحت كوب الشاي، ثم غادرت المقهى مُهرولًا، فيما تساؤل مُلح يراودني...

«ما الذي تفعله يا مظهر؟!».

***

قبعت أنتظر أمام قصر مخدومِي حبيبتي آرلين، تعلقت عيناي بالباب الخشبي العتيق، خفق قلبي مع فرجة بسيطة انسلت منها، وهي تقبل عليَّ مبتسمة، بدت لي سليمة الجسم ممشوقة القوام، العنفوان بادٍ عليها ما شاء الله. للحظة ارتبكت، شعرت أنني أدنى منها صحة وكمالًا، مدت يدها تصافحني، وبنبرة مسرورة: «أهلا مظهر، ما كل هذا الغياب؟».

شعرت بالجمال بغتة يغلف العالم، تبدد ارتباكي، وانزاحت الهموم عن قلبي، انطلق لساني بالرد فيما روحي هائمة في جلال حضورها، تأبطت ذراعي وسرنا إلى كافيه قريب.

«وددت لو تنزهنا على النيل، ولكن أهل القصر لم يسمحوا لي سوى بوقت قليل». هكذا عللتْ كالمعتذرة.

جلسنا إلى أقرب مائدة، أشفقت أن يتسرب منا الوقت إن ذهبنا لطاولة أبعد. غرقت في دفء نبرتها، طفقت تحكي وتحكي، وأنا أنظر إليها كالحالم.

«هيييه، ستظل صامتًا هكذا؟ أخشى أن تتهمني بالثرثرة». قالت آرلين في حياء.

«آرلين، لا ريب سمعت هذا كثيرًا، ولكن صوتك أحسن من ألف أنشودة، ألم تفكري في الغناء؟».

قالت في خفوت: «لم أسمع هكذا إطراء من أحد سواك».

وساد الصمت بيننا. لماذا أشعر بالبلاهة في وجودها؟ هل حقًّا هذا هو الحب؟!

«كم الساعة الآن؟».

شعرت بالحسرة لتذكيري، أخرجت الساعة من جيب سترتي، كشفت غطاءها وانقبض قلبي، أخبرتها بالتوقيت، فبدا عليها الإحباط. ثم كما لو تذكرت أمرًا ما، ففتحت حقيبة يدها، وأخرجت جريدة أو جريدتين، وقالت مسرعة: «هذه جريدة (بول مول) وصلتني من لندن، صادرة قبل شهر تقريبًا، اسمع هذا الخبر». وقرأت: «القاهرة- اجتمع ظهر يوم 27 مايو عمر باشا لطفي مدير الإسكندرية، ومحمد باشا شريف، وراغب باشا، ومحمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب، في قصر الإسماعيلية، مع الخديوي توفيق حاكم مصر. وكان مما تسرب عن اجتماعهم الاتفاق على أن تكون رئاسة مجلس النواب في دورته المقبلة لمحمد شريف باشا، على أن يكون عمر باشا لطفي وزيرًا للحربية، و...»، قاطعتها: «آرلين! قلتِ ما تاريخ صدور هذه الجريدة؟».

أجابت: «الثامن والعشرون من مايو الماضي». وأكملت القراءة، ولكن ذهني غاب في خطورة هذا الخبر إن صدق، وأخرجني من خواطري صبي دون العاشرة يحمل باقات صغيرة من الورد الأحمر، بدا أقرب لمتسول، أخرجت آرلين بعض الفكة وصرفته بعدما دستها في يده،

وقالت: «وهذه جريدة (الديلي تلجراف)، بها معلومات مثيرة للانتباه، هل وصلت إليكم؟».

نظرت إليها كالمحتار، فردت الصحيفة وتابعت: «اسمع هذه القصة، على لسان مراسل الجريدة بالإسكندرية»، وطفقت تقرأ: «منتصف ليل الحادي عشر من يونيو 1882، أرسل السير ماليت في استدعائي، بصفتي المراسل الجديد لـ(الديلي تلجراف). ذهبت مسرعًا، في مكتبه أخبرني بلا مقدمات أن كوكسن القنصل البريطاني بالإسكندرية أصيب إصابة خطيرة، وسوف توافيه المنية قبل طلوع شمس يوم الاثنين. وطلب مني إرسال هذا الخبر بالبرق إلى بريطانيا على وجه السرعة. استمعت إليه هادئًا، لعله ظن أن المراسل الجديد ليس لديه اطلاع سالف عن الوضع في مصر، أو ربما ظنني غرًّا ساذجًا لصغر سني. ببساطة شككت في انتهازية ماليت. واكتفيت بشكره على المعلومات، والتأكيد له أنني سأفعل اللازم. وغادرت مكتبه وقد قررت التريث ريثما أتأكد من الخبر بطرق أخرى. وبالفعل علمت أن ماليت كان يبالغ ليحقق مكاسب سياسية على حساب مصر؛ إذ تبين لي أن كوكسن بمنزله لا يعاني سوى من مجرد إصابة طفيفة. وقنصل المملكة المتحدة في مصر، عامدًا متعمدًا؛ أراد تلبيس الحقيقة على شعب صاحبة الجلالة».

قلت مشدوهًا: «ما هذه الجرأة؟ إنها فضيحة».

طوت الجريدة: «مظهر، النية التحريضية لماليت لا تعكس سوى نواياه الدموية تجاهكم. أنا أعلم كيف يفكر الإنجليز!».

ونهضت. سارعت بالقيام لأسحب المقعد لها، وبينما نعود لقصرها قالت: «مظهر، ربما لم تقرأ عن القمع البريطاني لبلدي الحبيب آيرلندا،

ولا كيف يقمعون ثوراتنا، سواء بالقوة الغاشمة، أو بالدس والوقيعة، وشراء الذمم».

اندهشت للنبرة الجادة والتأثر في صوتها، وددت لو أحيطها بذراعيَّ لأدسها في صدري. ترى متى تسترنا أربعة جدران؟

وقبل أن تصعد الدرج لباب القصر العتيق، أمسكت راحتي بكلتا يديها، وقالت بنبرة قوية: «ثمة تشابه بين كفاحنا وكفاحكم. كفاحنا للاستقلال مستمر ولن ينقطع، وأرجو أن تكونوا كذلك».

اندهشت من مدى الجدية في صوتها، حملقت بوجهها الجميل، للمرة الأولى ألحظ هذا الجانب في شخصيتها.

وبعدما توادعنا، وأثناء عودتي فيما نباح كلاب ضالة يتردد في سكون الليل، راحت عبارتها الأخيرة تتردد في ذهني.

***

لم أشعر بالارتياح وأنا جالس إلى الزاوية في قاعة الاجتماعات الكبيرة الملحقة بحجرة ناظر الجهادية أحمد باشا عرابي.

عرابي يعقد اجتماعًا في مقر النظارة، مع كل رموز الحركة الوطنية، الذين من بينهم من يجاهر صراحة بمعاداة أفندينا!

مجيئي للنظارة كان في مهمة روتينية من خاير باشا، رئيس الديوان، لتسليم قرار الخديوي الكتابي لعرابي بتجميد عمل لجنة التحقيق في أحداث 11 يونيو. عرابي لم يمهلني لاستلام القرار، فقط سمح لي بالدخول وأشار إليَّ بالجلوس جانبًا ريثما ينتهي الاجتماع.

ثمة أخبار مزعجة تورث الاكتئاب تتداول هنا. لا أعلم لماذا لم يرسل المهردار موظفًا غيري لإرسال القرار؟ أم...!

حقًّا؟! هل قصد الداهية العجوز إرسالي بالذات لنقل أخبار ما دار بالاجتماع؟!

وأخرجني من خواطري صوت البارودي الهادئ: «كان قرارًا موفقًا من أحمد باشا عرابي الاستماع لصوت الجماعة، وتهدئة الأمور مع الخديوي، وعدم المحاسبة على ما سبق».

وافقه عبد العال باشا حلمي بإيماءة من رأسه: «المحافظة على الهدوء والنظام هدف يستحق، خاصة وأن الجيش كله في قبضة الوطنيين».

قال عرابي: «هذه مجرد هدنة. والغريب أن الكل يعلم مدى هشاشتها». وصمت لحظة ثم قال: «لقد تأكدنا من وجود أوامر من السراي لضباط وأفراد الشرطة، بالتكاسل والتقاعس عن ضبط الأمن العام، في الفترة المقبلة، كي لا يقال إن الأمن مستتب في ظل الحكومة التي يرضى عنها الشعب».

كنت أشعر بوهج الجو المشحون رغم الصمت الذي تلا العبارة، حتى قال يعقوب باشا سامي، وكيل نظارة الجهادية: «يا إخواني، تفكروا في تبعات هذا التأكيد الذي وردنا عصر البارحة، لقد ترك الإسكندرية حتى مغرب أمس نحو عشرة آلاف أوروبي، نزوح جماعي، صفُّوا أعمالهم على عجل وغادروا المدينة على متن القوارب، إلى مراكب تنتظرهم جوار البوارج الحربية البريطانية!».

قال البارودي: «هذا مريب طبعًا». غمغم عرابي متأففًا: «لا مريب ولا شيء».

قال عبد العال باشا حلمي: «هل يجب أن نربط ذلك بوصول إشعار من الأميرال جيمس دبليو نيكلسون قائد السفينة الحربية الأميركية (يو إس إس لانكستر)، بتحركه من أميركا إلى الإسكندرية، في تجريدة تضم ثلاث سفن حربية؟!».

قال عرابي عابسًا: «أظنهم سيصلون اليوم، أو غدًا على أقصى تقدير». غمغم حسن باشا الشريعي: «ولماذا تكبدوا عناء الوصول من هذه القارة البعيدة؟!». جمجم عرابي: «عللوا قدومهم بدعوى حماية الرعايا الأميركيين بالإسكندرية!». تساءل الشيخ محمد عبده: «يعقوب باشا، هل احتوى تاريخ إشعار الأميرال الأميركي، تاريخ تحرك التجريدة؟». نظر يعقوب باشا في ورقة أمامه، ثم قال: «نعم، بتاريخ 5 يونيو». هتف عبد الله النديم: «لحظة! هذا قبل مجزرة المالطي بستة أيام! كيف توقعوا الاضطرابات؟!».

تبادل الجميع نظرات عصبية، ثم قال البارودي باشا: «أعتقد إرسال تلك الدولة الصاعدة بقوة -أميركا- ثلاثًا من بوارجها الحربية، إنما بهدف مراقبة صراع محتمل، أو القيام بعملية إبرار إذا اقتضى الأمر!».

تساءل عرابي: «إبرار؟ هل يفكرون هم كذلك في احتلالنا؟!».

خيم الصمت على الجميع. ثم قال عرابي: «على كل حال، لقد تسلَّمنا مصر ومعها تركة ثقيلة من الإهمال المخزي في تحديث قواتها الحربية، ولذلك أرسلنا فعلًا في طلب شراء قطع مدفعية صغيرة من ألمانيا».

قال البارودي: «ولكن ما أعلمه -حتى تاريخ مغادرتي للنظارة- أن ألمانيا اشترطت دفع الثمن مقدمًا لإبرام الصفقة».

قال عرابي: «لطالما تعمد الخديوي والإنجليز ترك ميزانية النظارة صفرًا.

ولكن الجديد، أن بطريقة ما، علم الخديوي السابق إسماعيل بالأمر، وأرسل إلينا عبر (ماكس لافيسون) وكيله الروسي، عرضًا بتحمله تسديد كامل قيمة الصفقة، والبالغة ثلاثين ألف جنيه إسترليني».

قال حسن باشا الشريعي مندهشًا: «أفندينا السابق سخاؤه المادي بلا حدود». تابع عرابي واجمًا: «عرض الخديوي السابق، مشروط بإعلان الجماعة الوطنية أنها تعمل تحت قيادته!».

شعرت بدهشة عظيمة، ترى هل يعلم الخديوي توفيق بتحركات أبيه؟!

وسمعت علي باشا فهمي يقول: «بالمناسبة، ذو الفقار باشا، مسؤول التشريفات والاحتفالات الخديوية السابق، والذي تم تصعيده لمنصب رئيس لجنة التحقيق في أحداث الإسكندرية، لم يتقدم –كسلفه– قيد أنملة في أي مما يخص التحقيقات».

قال حسن موسى العقاد: «لقد تأكدت من سبب ترك عمر لطفي رئاسة اللجنة، واستقالته من منصب المحافظ، لقد طلب من الخديوي السماح له بإجازة للسفر للخارج طلبًا للعلاج الطبي. وقد وافق له الخديوي فورًا».

قال عرابي: «من الناحية الرسمية، هذا الرجل لم يغادر البلاد بعد». غمغم البارودي: «لعله جعل ذلك للطوارئ حال ساءت الأمور، أو لم تجرِ كما يتوقع».

بدا الضيق على عرابي: «لا فكرة لديك كم أستغرب تشاؤمك معالي الباشا!».

صمت البارودي، ولم يعقب.

فقال يعقوب باشا: «بالمناسبة، أوراق التحقيق كانت في حوزة محافظة الإسكندرية، حاولنا الحصول عليها بعد استقالة عمر لطفي؛ لكنها اختفت، وكأنها لم تكن!».

قال عرابي منفعلًا: «ما هذا التهريج؟! سنسخِّر كل الجهود لأجل...».

لم أدرِ كيف واتتني الشجاعة، أو الإشفاق، لمقاطعة عرابي شخصيًّا؛ إذ رفعت صوتي: «معالي الوزير، لم تعد حاجة إلى ذلك».

التفتت الأعين كلها تجاهي، تحمل قدرًا عظيمًا من الدهشة، أفقت من نوبة الشجاعة شاعرًا بالحرج، لذلك سارعت بالقول ملوحًا بالورقة الرسمية: «هذا قرار خديوي من الذات العلية، بإغلاق التحقيقات، وقيدها ضد مجهول».

هنا رأيت تعابير الذهول تتفجر في الوجوه!

واحتدم نقاش ساخط حول الخديوي، لم يتوقف إلا حينما أتيت على ذكر مؤتمر الآستانة المقام منذ خمسة أيام في العاصمة العثمانية. وبعدما قصصت ملخص جلستيه، قال محمود باشا البارودي: «هكذا فرنسا دائمًا! يتسبب جزعها في لفت الأنظار إلى ما تطمع فيه، فيسبقها إليه غيرها!».

نظر إليه عرابي كالمتسائل، فأردف: «أظن أن فرنسا فطنت لطمع إنجلترا في احتلال مصر، فأرادت بالدعوة لهذا المؤتمر منعها من الانفراد بذلك».

كانت هذه الكلمات تعبر عن مخاوفي فعلًا، وتابعت قوله مستطردًا: «أما الثعلب البريطاني، فأظنه يتخذ من هذا المؤتمر أداة في يده، ليحوله لتمهيد نيراني دبلوماسي، ضدنا!».

***

(15)

الإسكندرية في 7 يوليو سنة 1882م

من اليوم الذي انقطعت فيه الأعمال حسب أمر جلالة السلطان لم نقم بأي عمل إلى الآن. وقد أُذيعت إشاعة مضمونها أن الحكومة تنوي سد مدخل ميناء الإسكندرية، وأنها تتخذ غير ذلك من التدابير الحربية. وقد توجه قنصلا إنجلترا وفرنسا إلى راغب باشا للوقوف على الحالة منه، فأكد لهما أن هذه إشاعات ليس لها أدنى نصيب من الصحة، وأن فكرة هذه التدابير كانت مجرد فكرة أعلنها عرابي للجماهير فقط للاستهلاك الإعلامي. أما تطبيقها فعلًا فلم يخطر لأحد على بال. وبما أن ميناء الإسكندرية مزدحم بالبوارج الحربية، فهذه الحالة تخول لكل بارجة من هذه البوارج حجز كل سفينة تحمل مدافع. وقد أخطر رئيس النظار ناظر البحرية بذلك، فخرج القنصلان راضيين من هذا البيان. وفي الوقت نفسه كتب الأميرال إلى قائد الجنود بالإسكندرية خطابًا صرح فيه بأنه ما دامت النية معقودة على سد الميناء فيلزمه هو أيضًا أن يتخذ احتياطات لوقاية نفسه. فأجابه القائد بأن هذا الخبر ليس له صحة. وذهب بعد ذلك ناظر البحرية وأكد للأميرال الإنجليزي هذه التأكيدات، فشكره ووعد أن يخبر بذلك حكومته.

الإمضاء

محمد توفيق

كان هذا نص البرقية التي أرسلها الخديوي توفيق إلى الباب العالي صباح اليوم، لم أدرِ لماذا نسختها وأخفيتها في طيات ملابسي، ثم سلمتها خلسة للأميرالاي علي باشا فهمي، قبل أن أسرع إلى استراحة كشك الشاي بالسراي التي لم أستشعر بهجتها هذه المرة، نذر الشؤم تخيم على الجميع، حتى درويش باشا، فقط أفندينا الذي يبدو منطلقًا مسترخيًا، من ذلك قوله لدرويش باشا: «أريت ما قام به عرابي العاق تجاه دولتنا العثمانية البهية؟ أنى له الجرأة للجهر برفض التعاون معكم؟!».

ناولني درويش باشا ملفًّا، فيما يقول: «أعتقد الأحداث المقبلة ستفرض عليَّ الرحيل على كل حال».

وفوجئت بالخديوي يقول: «لقد أرسل لي مستر كارترايت، النائب المكلف بأعمال قنصل إنجلترا في مصر، عارضًا استضافتي وأسرتي على إحدى البوارج الحربية البريطانية في الأيام المقبلة؛ لكني رفضت».

لم يبدُ على درويش باشا المفاجأة مما سمع، فيما تابع أفندينا: «واضح جدًّا أن عرضهم ليس إلا لغرض سياسي، أن وجود حاكم هذا البلد في إحدى سفنهم يجعل لما ينوونه صبغة شرعية».

وقبل أن أشرع في التفكير فيما سمعت، أشار إليَّ درويش باشا ببدء الترجمة، وكأننا لم نسمع شيئًا خطيرًا!

نظرت للخديوي فأطبق شفتيه وأومأ لي آذنًا. فتحت الملف، وشرعت في القراءة: «6 يوليو عام 1882- الجلسة السابعة. انتهى مؤتمر الآستانة من وضع قواعد التدخل التركي في مصر، وفق التالي:

أن يحترم الجيش الذي ترسله تركيا مركز مصر وامتيازاتها التي نالتها بموجب الفرمانات السابقة والمعاهدات. وأن يخمد الثورة العسكرية

ويعيد إلى الخديوي سلطته، ثم يشرع في إصلاح النظم العسكرية في مصر، وأن تكون مدة إقامته في مصر ثلاثة شهور؛ إلا إذا طلب الخديوي مدها إلى المدة التي تتفق عليها الحكومة المصرية مع تركيا والدول الأوروبية العظمى. ويعين قواد هذا الجيش بالاتفاق مع الخديوي، وتكون نفقاته على حساب مصر، ويعين مقدارها، بالاتفاق مع مصر وتركيا والدول الست العظمى الأوروبية، المدينة لمصر».

كان الخديوي يستمع باهتمام عاقدًا أصابع كفيه فوق بطنه، فيما درويش باشا يصغي مكفهر الملامح. تابعت: «أقرت الدول الأوروبية المجتمعة هذه القرارات، ووافقت على تقديمها إلى الحكومة التركية. لكن السلطة العثمانية تماطل. في تقديري الشخصي أنها تحدس ما هو معد لها. أظنها لن تقرَّها. الجميع هنا تصله أنباء الموقف الاضطراري الذي خلقته بريطانيا في مصر. دولفرين دخل معنا فعلًا في حوارات جانبية، يبرر للجميع مدى الخطر الذي فيه السفن الإنجليزية الراسية في ميناء الإسكندرية جراء تسليح عرابي للقلاع الساحلية، وأن من الحق الأصيل لبريطانيا المبادرة لحماية أبنائها». انتهت رسالة نائب سفير إيطاليا. أعدت الملف للمبعوث العثماني، الذي قال عابسًا: «الأوغاد يتكالبون علينا من كل جانب».

رمقه أفندينا بنظرة غامضة، فيما استطرد درويش: «طبيعي أن تجرؤ حكومة جلادستون على ذلك، الرأي العام البريطاني تم توجيهه لذلك بإتقان، تقريبًا جريدة (بول مول) الوحيدة هناك التي تكشف عداء وزارة الخارجية الإنجليزية مع الوطنيين المصريين، وتصميمها على استئصالهم من السلطة».

فرك الخديوي ذقنه سائلًا درويش: «في ظنكم -دولة الباشا- كيف سيكون شكل الأيام المقبلة؟».

رمقه المبعوث العثماني بنظرة جانبية، وجمجم: «المفترض -بحكم موقعكم- أنكم من يحدد شكل المستقبل هنا، جناب الخديوي».

اندهشت من رد فعل أفندينا، الذي استرخى في جلسته، ووجهه ينبض بالطمأنينة.

***

الخامس والعشرون من شعبان عام 1299 الموافق الحادي عشر من يوليو لعام 1882

الإرهاق يكاد يقتلني، لم أكد أعود لبيتي بعد لقاء عرابي، إلا ووجدت أحد خدم القصر ينتظرني! ما السبب؟ أجاب الخادم: «هناك أمر باصطحاب جنابك إلى القصر حالًا، ومعك... إحم؛ حقيبة ملابسك».

لم أستوعب الأمر، فعدت معه دونما اكتراث بحقيبة الملابس هذه، وهناك رأيت قاطني سراي عابدين كما لم أرهم من قبل!

هرولة، اضطراب، عبوس، حقائب كثيرة وكبيرة يحملها الخدم، الكل متعجل كما لو أن القصر يتم إخلاؤه! وقبل أن أستوعب ما يجري، كنت على متن القطار مع بقية الحاشية، إلى الإسكندرية، حيث قصر الرمل!

وصلنا فجرًا، سرنا من جهة باب محرم بك في دخولنا للمدينة، الخديوي يتقدم موكبنا في عربة مكشوفة يشاركه درويش باشا في مجلسه. مرافقو موكب الخديوي وحدهم نحو سبعين من الحرس بسيوف تعلو رؤوسها أعلام بيضاء.

ووصلنا أخيرًا سراي الرمل، كنت من الإرهاق في غاية، لم أدرِ أين سأنام، ولم يكترث أحد لإخباري. لمحت رئيس الديوان خاير باشا مقبلًا باتجاهي وكأنما يقصدني، كانت لدي أسئلة لا حد لها؛ لكنني أرجأتها كلها، يكفي أن أعلم منه مكان مبيتي، بيد أنه بادرني بآخر ما قد يخطر ببالي: «نظرًا للظروف الدقيقة الحالية، لدينا نقص في عدد المستخدمين»، وتمعن في وجهي قليلًا وقال: «تنتظرك عربة أمام السراي، ستقلك مع ضابطين من الحرس الخديوي».

قلت مبهوتًا: «إلى أين؟!». قال باقتضاب: «إلى سراي قصر التين».

«وماذا سأفعل هناك؟!».

«ثمة احتمالية كبيرة أن ينتقل أفندينا إلى هناك. والأقرب ستعقد هناك اجتماعات على درجة خطيرة من الأهمية، لذا؛ عليك إعداد وترتيب ما يلزم بهذا الخصوص، بحكم وظيفتك».

دارات عيناي في وجهي إرهاقًا، أنتقل الآن؟! نحن لم نكد ندخل قصر الرمل! وودت الاعتراض؛ لكن المهردار أولاني ظهره مبتعدًا بنفس الخطوات السريعة التي أتى بها، لأراقب ابتعاده بنظرات تفيض عجزًا، ومرارة.

***

موظفو قصر رأس التين عددهم أقل مما توقعت، ولكنهم لا ريب سيتوافدون تباعًا، خاصة وأن الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا. نعم، لا زال الوقت مبكرًا، سأسأل عن غرفة تأويني أقضي بها ساعات قليلة من النوم، قبل أن أعي...

بووووووم!

انتفضتُ على الصوت العنيف المباغت. تلفتُّ حولي مذعورًا، من أين يأتي الصوت؟ قبل أن أستوعب تكرر الصوت الرهيب. رغم الدوي المكتوم، بدا لي كقصف متتابع، أشبه بدوي مدفع الإفطار في رمضان!

تلفت حولي، تحريت الدرج حيث السطح لأستطلع الأمر. وهناك، بالأعلى، فوق سطح السراي، رأيت ما بخَّر النوم من عيني، وأورثني هولًا على هول!

دانات المدافع تشق السماء في تتابع مدروس، وهدير مهول، كلها تتجه صوب وجهة واحدة. أدرت وجهي لأرى أين تتجه، فوجدتها تنصب في قلعة قريبة على الساحل، ترفع العلم المصري!

«إنها حصن آضا».

التفت لصاحب الصوت الأجش، كان رجلًا أشيب تجاوز الستين، يرتدي زي الياوران، ويرفع أمام وجهه منظارًا مقربًا ينظر من خلاله.

«الضرب بدأ من هذه السفينة المدرعة؛ إسكندر، تبعتها بقية السفن الحربية الإنجليزية في تتابع واتساق».

قال وهو يشير لسفينة في عرض البحر: «انظر، إنها أول سفينة من الشمال، وراء البارجتين المدرعتين سلطان وسوبرب. أسماؤهم مكتوبة بالإنجليزية على جانب السفن. حتمًا تراها».

حتمًا بوسعي قراءتها إن كان فوق عيني منظار كمنظاره!

التفت الرجل إليَّ وقال بهدوء مستفز فيما يصافحني: «ذو الفقار عزيز، ياوران هذه السراي».

احتوى يدي في كفه الخشنة. عرفته بنفسي رافعًا صوتي لأغطي على صوت القصف المتواصل.

«كما ترى، السفن الإنجليزية تتبع تكتيكًا ممتازًا -ذكرني بأيام المجد الخوالي- إنها تصطف في خطين متوازيين، وفي نفس الوقت متباعدين بشكل آمن تحسبًا لما يستجد».

«لكني لا أرى سوى خط واحد مكون من ثلاث سفن».

أشار للغرب: «هناك سفينتان في الوسط، وإلى أقصى الغرب ثلاث سفن. إجمالي الثلاث مجموعات ثماني سفن. جميعها من المدرعات».

«تعني أن هذه الطلقات كلها من السفن الثماني؟!».

قال: «بل من السفن الثلاث، ألكسندرا، وسلطان، وسوبرب»، بقية السفن أعتقد أنه منوط بها مهمات أخرى». قلت: «ولكن لماذا التركيز على حصن الجزيرة، أقصد آضا؟ ولماذا يضربوننا؟!».

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة: «تجيد التركية إذن؟ على كل حال، أعتقد من التشكيل الهجومي أنهم يركزون ضرباتهم على المنطقة الثانية».

تساءلت مرددًا: «المنطقة الثانية؟!».

قال: «نعم، حيث طوابي آضا، والاسبتالية، ورأس التين، والفنار».

اعتدلت في وقفتي: «لحظة، هل قلت رأس التين؟!». لوح بيده بهدوء: «لا تفزع يا فتى، لن يضربوا السراي، ولكن هذه الطابية إلى الشرق».

فغر فمي وأنا أنظر حيث يشير، قبل أن يوجف قلبي، فالقلعة المزمع ضربها الوشيك من الأسطول الإنجليزي، لا تبعد عن السراي بأكثر من بضع مئات من الأمتار!

وقلت وأنا أتابع ما يجري: «لماذا كل الضربات في اتجاه واحد؟ ألن نرد قط؟!».

لمحت ابتسامة استهانة على ثغر ذو الفقار، ثم قال: «الأميرال سيمور لا يخشى من الأصل ضررًا كبيرًا من مدافعنا المنصوبة في هذه الطوابي، وإلا ما دنا منها هذا الدنو الكبير».

قلت له: «لا أفهم».

قال: «الأميرال البريطاني يعلم جيدًا بقصر مرمى مدفعيتنا، وضعف تأثير مقذوفاتها».

هنا بدأت الطوابي المصرية على طول الساحل تهدر مدافعها، قد بدأت أخيرًا بالرد، رغم الصوت المخيف للطلقات، ساورني سرور خفي، لم يستمر ذلك طويلًا، إذ سمعت ذو الفقار يقول بنبرة حانقة: «ليتنا ننفِّذ ذات خطتهم في الضرب!».

التفت إليه متسائلًا، أردف: «أرى قذائف الطوابي تتوزع على السفن الإنجليزية، هذه سفن مدرعة، محمية بصفائح من الحديد والفولاذ، وليست سفنًا خشبية كما الماضي القريب. تدميرها يستلزم تركيز قذائف كل الطوابي على سفينة واحدة، وبعد إغراقها يتم التوجه للسفينة التي تليها».

قلت: «ينضح من حديثك خبرتك بالبحار، هل سبق لك العمل بالأسطول؟». ارتسمت ابتسامة رثاء على وجهه: «الأسطول؟... وأين هذا الأسطول الآن؟!».

احترت مما ارتسم على ملامحه، وقبل أن أسأل سؤالًا آخر، دوى في الأفق صوت انفجار مهول متتابع الصدى، كان من ناحية طابية آضا،

وصاح ذو الفقار بصوت لاهث ووجه ممتقع: «لعنهم الله، لقد انفجر مستودع البارود!».

***

قضيت ليلة عصيبة في هذا القصر، درت في أرجائه كالمحموم، تُقت للخروج لولا الأوامر الخديوية بالتزام السراي.

الضرب لم يتوقف سوى في الخامسة بعد العصر، جاءت الأنباء بشراسة المعارك بين قلاعنا البحرية والسفن الإنجليزية. الأقرب أن طوابينا خرجت من الخدمة تباعًا. للأسف لم تصلني أية معلومات عن وصول قوات للإسكندرية لصد الهجوم، سواء برية أو بحرية.

قرب العاشرة مساء، أصابت قذائف البوارج الإنجليزية سراي الحريم بقصر رأس التين، سرت الفوضى وتدافع الجميع لمحاولة السيطرة على النيران الملتهبة، تم حصر الحريق بأعجوبة.

آخر الليل، ورغم وجود الفراش الوثير، وجدت نفسي أنام على الأرض منزويًا ضامًّا ساقيَّ، شاعرًا بخزي، وضياع كبير بانتظارنا.

الصباح التالي استمر الضرب، كانت الإسكندرية قد عاد إليها النهب والمرج وانتشرت بها الحرائق. يا حسرتي على هذه البلد الجميلة!

لم أفق بعد من الأحداث الشنيعة التي جرت هنا قبل شهر. لأول مرة، انقبض قلبي من الإسكندرية، لعلي سأفكر كثيرًا في القدوم إليها مرة أخرى، إن كان القرار بيدي.

وجاءت السراي قوة بحرية إنجليزية في زيهم الأزرق، بدا كما لو أنهم يتسلمون القصر، تعاملوا مع الجميع بأدب، وإن بحزم واضح.

لم تمر ساعات قليلة إلا ووصل سمو الخديوي توفيق إلى السراي، تقريبًا في الساعة الخامسة إلا الربع بعد العصر، اندهشت لعدد الجنود الذين سمعت أنهم سبعمائة بحار انتشروا في شبه جزيرة رأس التين، ليس لغرض سوى حماية جناب الخديوي.

***

وصل معه المهردار، وكلفني بعدة مهام مقتضبة، أديتها كلها بذهن شارد ساهم، قد علمت من حاشية الخديوي أن عديدًا من القلاع تم تسليمها للإنجليز بعد استسلامها وتسليم بطاريات مدافعها إليهم.

فكرت في الخروج خلسة من السراي، والتواصل برقيًّا مع عرابي عبر أقرب مكتب تلغراف؛ لكن حارس البوابة تعرف عليَّ في مروري، ناداني: «مظهر أفندي، إلى أين؟!».

ساورني الاضطراب من سؤاله، دنوت منه وأنا أجيب: «في تعجلي للمجيء لم أجلب حقيبتي الشخصية، سأخرج لشراء منامة أو منامتين».

نظر لي باستغراب: «تخرج في هذه الأجواء؟!». رمقته محتارًا، فقال: «البدو يعملون النهب والنار في الشوارع». رددت: «البدو؟!».

قال: «أنت لم ترَ ما رأيناه بالشوارع في قدومنا من سراي الرمل إلى هنا. بدو الصحراء الغربية منتشرون في كل مكان، لقد رأيتهم بعينيَّ هاتين في شارع باب رشيد منصرفين إلى سلب الناس الفارين من الإسكندرية، ولولة النساء تمزق القلوب وهن يصحن ويولولن والبدو قد أحاطوا بهن وينزعون الحلي من صدورهن وآذانهن قسرًا، حتى أسالوا منهن الدماء، وما زلنا نسير بين هذه المناظر المؤلمة، وسط لهب الحرائق التي كانت مشتعلة في الأحياء المهمة. كانت فظيعة ولا سيما في شارع شريف باشا،

وميدان محمد علي الذي بدا لنا كأنه أتون من نار. وما كنا نتصور أننا سنجتاز هذا الميدان دون أن نصبح طعامًا للنيران، كان الجو مزيجًا من دخان ولهيب يلفح وجوهنا ويكاد يشوي جلودنا، كأننا في جهنم».

«فيم تتحدثان؟!».

انتفض الحارس مع العبارة الصارمة، التفت لصاحب العبارة، كان طلعت باشا سكرتير الخديوي، قلت بتلقائية ما كان بيننا من حوار، فرأيت الاضطراب على وجه الحارس، وكأنني أذعت سرًّا، أما سكرتير الخديوي فاعتدل ليخبرني مزهوًّا: «كل هذا بسبيله للانتهاء قبل شروق شمس الغد».

أطلت من عيني نظرة متسائلة، فيما يردف السكرتير بخيلاء: «ثمة فرقة من البحرية الإنجليزية في سبيلها للنزول للبر، ومعها مدفع من طراز جاتلنج Gatling، لتعيد الأمن والنظام لشوارعنا».

سمعت ما سمعت منزعجًا. ابتعدت عنه عائدًا للسراي فيما أفكر مضطربًا؛ هل تسلَّموا المدينة؟... هل سقطت الإسكندرية بذلك رسميًّا؟!

أين الحكومة؟

أين أنت يا عرابي؟!

***

«في الإسكندرية، منذ اليوم الأول للضرب».

تفجرت الدهشة برأسي وأنا أستمع لعبد الله النديم، الذي تابع: «بل وقابل الخديوي في سراي الرمل قبيل العصر، تباحث معه ما جرى من اعتداء على السيادة المصرية».

«عرابي كان في الإسكندرية وقت الضرب؟!».

«كان يتابع العدوان هنا بمبنى وزارة البحرية، القريب من رأس التين، لم يكن وحده، كان معه محمود باشا البارودي، ومحمود فهمي. عرابي بعد انتهاء القصف مر سريعًا على الطوابير القريبة، ثم عرج على سراي الرمل ليبلغ الخديوي بالأوضاع، ولكن توفيقًا أنهى اللقاء متشاجرًا معه».

«بسبب أوضاعنا السيئة في الحرب؟».

«بل بسبب أن ناظر الجهادية أتى له بأخبار شفهية، وليس بتقرير مكتوب».

لا ريب أن نظراتي كانت بلهاء، والنديم يتابع: «أخبرني عرابي أن رغم نبرة الخديوي الغاضبة، كان يبدو كما لو يكافح لكبح السرور داخله».

استوقفنا في هذه اللحظة زمرة من الجنود الإنجليز، سارعت بإظهار شارة السراي الخديوية، فتابعوا طريقهم تاركين رفيقي دون سؤال. شيعهم النديم بنظرات الكراهية، فقلت فيما نتابع سيرنا بشارع الجمرك: «مهما أقل لك، لن تصدق كيف فرحت بوجودك على باب مكتب التلغراف».

جمجم النديم: «كان مغلقًا! كل مكاتب التلغراف أغلقت أبوابها،

سيتعين عليَّ العودة للقاهرة بنفسي، لأسلم المواد التحريرية لجريدة (الطائف)».

أطلت النظر للسخام الجاثم على المباني الخاوية المحترقة: «الإسكندرية احترقت، صارت حطامًا».

قال النديم: «مؤسف لنا، ومؤسف للإنجليز، كي لا يفرحوا بالمدينة».

«هذا رأي عرابي؟».

«عرابي ليس هنا، غادر الإسكندرية فجر الثاني عشر من يوليو. يستعد للمعركة المقبلة».

«أهناك معركة مقبلة؟».

سطع الوعيد من نظرات النديم: «بل معارك».

***

بعد أيام كنت أسجل محاضر لقاء الخديوي مع عدد من رجال الدين، أو بالأحرى الأديان؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، واستوقفتني عبارة خاير باشا لمطران الأرثوذكس: «أعمال العنف الدائرة الآن لا تخص المسيحيين بمصر، إنما المصريون يُخرجون نقمتهم على الإنجليز، لا على الدين المسيحي».

زاغت نظرات المطران ميخائيل حنا كأنما غير مطمئن، فقال الشيخ الإسلامي تقي جمعة: «المشاعر الوطنية تضاعفت الآن لتخرج سخطها في كل من هو غير مسلم، ظنًّا منهم أن البريطانيين إنما يشنون حربًا على الإسلام».

قال الحاخام شمعون سيسارو تيتاني: «نيافة المطران مُحق في قلقه، آخر ما نريده حربًا أهلية يتقاتل فيها المصريون، فأنباء أعمال العنف الشديدة في دمنهور وطنطا تشيِّب شعر السامعين».

تدخل الخديوي لأول مرة في الحوار، كان ضجرًا كأنما يستثقل هذه الجلسة كلها، قال: «قلنا لكم لم يعد لخوفكم داعٍ، عرابي أرسل فعلا ثلاث سرايا إلى طنطا ودمنهور لتأمين قاطنيها».

قال خاير باشا مُدعمًا كلام أفندينا: «كم في مصر من أمثال أحمد باشا المنشاوي، أحد أغنياء مصر، أو المُحسن الكبير كما يطلق عليه في الغربية، وقد سمع الجميع بجهوده في إيواء أكثر من ألف أجنبي في قصره بالقرشية، يحميهم من غضب الأهالي الدامي».

جمجم الحاخام شمعون سيسارو: «بل وحمل قتلاهم ودفن موتاهم بنفسه، ثم أعلن أنه سيتكفل بالنفقات الكاملة لسفر الأجانب في طنطا إلى بلادهم على حسابه».

عبس الخديوي كما تضايق من قطع استرساله، وقال: «أؤكد لكم أن عرابي أمر بترحيل الأوروبيين وتأمينهم بنقلهم إلى بورسعيد والإسماعيلية، آمرًا بحمايتهم من قبل السلطات المدنية والعسكرية».

وبدا أن رجال الدين استشعروا ضجر الخديوي، تبادلوا النظر ثم قاموا مستأذنين، وهم لا يكفون عن الدعاء والشكر لأفندينا.

غادرت وراءهم مباشرة، ثلاثة أيام منذ بدء الغزو الإنجليزي، بدت لي كثلاثة أشهر، ترى ماذا عن القادم؟

***

الرابع عشر من يوليو، أكاد أجن من فرط صبابتي لآرلين؛ لكن كيف السبيل إليها وأنا عالق هنا في قصر التين، وهي في المحروسة.

فكرت في مكالمتها عبر هذا الاختراع العجيب، التليفون، أعلم أن لديها واحدًا في قصر مخدومها، وبوسعي الاتصال خلسة، ثمة آلة تليفون هنا في القصر. ولكن ماذا إن أمسك بي أحدهم؟! سيكون منظري سيئًا جدًّا! خاصة في هذه الأجواء المشحونة.

وجاءني أحد الخدم، رئيس الديوان يطلب حضوري، لململمت الملفات الروتينية اليومية من فوق مكتبي، وهرعت إليه.

دلفت لحجرة خاير باشا، كان منشغلًا بحديث مع طلعت باشا سكرتير الخديوي، الأخير كان يناوله ورقة ما ويقول: «هذه الرسالة يطلب أفندينا إرسالها إلى عرابي حالًا، حيث ينصب معسكره في كفر الدوار».

انتبهت حواسي فورًا، تمنيت لو طالعتها مع خاير باشا، الذي جال بين سطورها سريعًا، ثم تمتم: «صياغة كولفن للرسالة جافة مفضوحة، صياغتي التي اقترحتها على الخديوي كانت أكثر حبكة وإحكامًا!».

فكرت في الاقتراح على المهردار الذهاب بها لمكتب التلغراف لإرسالها؛ لكن دخل جندي إنجليزي في هذه اللحظة، دس خاير باشا الرسالة في مظروف، ختمه بالشمع، ثم سلمها إليه.

خاب أملي. واضح أن كل شيء مرتب بإحكام سلفًا.

تقدمت ووضعت أوراقي أمام رئيس الديوان، فيما أسمع طلعت باشا يقول بتؤدة: «أتفق معك يا خاير باشا، لا أظن عرابي سيقتنع بما في

البرقية، من أن قصف الإسكندرية لم يكن سوى لرفض نظارة راغب باشا تفكيك القلاع ونزع سلاحها، وتسليمه للإنجليز».

فرك المهردار ذقنه وقال: «لم أكن أحبذ أن يُذكر في البرقية أن الأميرال سيمور يرغب في تجديد العلاقات الودية مع مصر، وكبادرة حسن نية منه يعرض استعداده لإعادة الإسكندرية للجيش المصري».

تنهد طلعت باشا: «كان تسرعًا أن تتضمن نفس البرقية طلب قدوم ناظر الجهادية على وجه السرعة إلى رأس التين».

خاير باشا: «ولأي سبب؟ بدعوى التشاور مع راغب باشا رئيس مجلس النظار وبقية رفاقه لوضع إجراءات إعادة الإسكندرية للجيش المصري! أي طفل سيأمن لهكذا سبب؟!».

قال طلعت باشا بأسف: «كم وددت لو اقترحت على الخديوي حذف أمره لعرابي بتعليق كافة العمليات الحربية، لأن سببها انتفى بعد عرض الأميرال سيمور. ولكن موقعي كسكرتير لا يبيح لي هكذا تدخلًا».

قام خاير باشا من مقعده في عظمة، ودار في الحجرة شابكًا أصابعه وراء ظهره، قال: «الخديوي اطمئن لتأكيدات كولفن، بأن عرابي مُنتهٍ على كل حال، فإن لم يُقبض عليه حال حضوره هنا، فلسوف يقع تحت طائلة عصيان الأوامر الخديوية، برفضه أمر أفندينا بالحضور. وفي هذه الحالة سيصدر آنيًّا قرار إقالته من منصبه، وإعلان تمرده».

يعتقلون عرابي! شعرت بالدماء الساخنة تتجمع في أذنيَّ، لم تكن البرقية سوى فخ إذن؟!

وشردت جزعًا برهة في هذا الخاطر، يبدو أن خاير باشا مهر سريعًا الأوراق بتوقيعه خلالها، إذ ناولني الأوراق وأشار لي بالانصراف.

خرجت مضطربًا، لا يزالون يتكلمون، أريد سماع المزيد، والأهم؛ تحذير عرابي من الحضور ذو أولوية قصوى الآن، ولكن كيف السبيل للخروج؟!

ودونما تفكير وجدت قدميَّ تتجهان بي إلى الخروج من السراي، عند البوابة الحديدية الخارجية استوقفني ضابط بريطاني، هاتفًا بالإنجليزية: «هييه، إلى أين؟».

كبحت ارتباكي، وأشرت لملف الأوراق تحت إبطي: «أنا موظف بالقصر، ومكلف بتوصيل هذه الأوراق».

قال بنبرة محايدة: «هل معك تصريح خروج؟».

جفلت أمام عبارته، فأولاني ظهره بغير اكتراث مُردفًا: «اعذرني، هذه هي الأوامر، لا خروج من القصر إلا بتصريح».

وقفلت راجعًا يائسًا مشوش الذهن، كيف عساي أبلغ عرابي الآن؟

***

(16)

غُرة رمضان 1299 الموافق للسابع عشر من يوليو 1882

الشهر البهيج الذي انتظره من العام للعام، يبدأ هذا العام ومصر منكوبة، إسكندرية محتلة، وأنا عالق في القصر مع الخديوي، في قبضة الجيش البريطاني!

شهر يوليو عجيب جدًّا، مرة بعد مرة يتأكد لي هذا الخاطر، ما أكثر الأحداث السيئة المصيرية التي يتصادف وقوعها في يوليو؟!

بعد تناول إفطار ممض بالقصر، فوجئت بقدوم الأميرالاي علي فهمي، ابتهجت برؤيته، بدا لي واثقًا أكثر من اللازم حينما أتى إلى حجرة مكتبي، وأغلق الباب وراءه، ثم جلس بكل أريحية. حينها نهضت مفزوعًا: «سيظنون بي الظنون!».

استوقفني بإشارة من يده، بألا أفتح الباب، وقال بحزم: «على العكس، سيتوقون لمعرفة ما قلته لك». وقفت مكاني مشدوهًا، فقال بنبرة رسمية وإن كانت ذات عتاب: «رمضان كريم».

تقدمت نحوه خطوتين مترددًا، وقلت: «الله أكرم». ثم جلست بالمقعد المقابل له، بينما أردف موضحًا بنبرة متراخية: «القصر سيحاول الاستفادة من صداقتنا، في معرفة فيم يفكر عرابي».

وصمت لحظة، ثم تمتم في ضيق: «الذي عزلوه!».

هدوؤه أورثني شيئًا من الثقة، فقلت: «بالفعل قد أرسل أفندينا في

حضوري رسالة إلى عرابي، يتهمه صراحة بالتمرد، وعصيان أوامره، بعدما تجاهل تلبية أمره بالقدوم، وعليه قرر خلعه وعزله من منصبه».

ثم ملت تجاهه هامسًا: «كيف دخلت إلى هنا؟». هز رأسه بلا اكتراث: «عرابي المعزول لا أنا».

نظرت إليه بغير فهم، فأردف: «جئت إلى الخديوي لأعلم منه كيفية التصرف، بعدما رفض الجميع قراره».

رددت مندهشًا: «الجميع!».

تابع علي: «في نفس يوم الخامس عشر من الشهر الجاري، كان ثمة مجلس ينعقد في القاهرة، حضره أكثر من ستمائة من أعيان البلاد، أتوا من شتى بقاع مصر وانتهى اجتماعهم بأن الخديوي ليس من سلطاته اتهام عرابي بالعصيان، وأن هذا الأمر من سلطة السلطان العثماني وحده. وبالتالي لا قيمة لقرار الخديوي، وأن المسؤولية التاريخية تحتم على عرابي الاستمرار على ما انتهى إليه الاجتماع مع توفيق ودرويش في الإسكندرية، في اليوم الأول للعدوان، وهو الاستمرار في الدفاع عن الوطن، وترك كل ما دون ذلك».

سرحت بخيالي: «كم وددت لو كنت حاضرًا ذلك المجلس»، حدجني علي بنظرة ثاقبة، فأردفت منبهرًا: «حتمًا كان ليكون تجمعًا وطنيًّا مهيبًا».

لم يعلق، فقط شرد لحظات ثم قال: «لقد أنهيت لقائي مع الخديوي على كل حال».

انتبهت قائلًا: «منذ متى وأنت هنا».

قال: «كان لقاءً سريعًا، واضح أن كلًّا منا لا يطيق الآخر». وصمت برهة ثم أردف: «تظاهرت بإبلاغ الخديوي أن الجنود في حيرة من أمرهم، أما الضباط فمنحازون لعرابي».

سألته: «ألم يسألك عن موقفك أنت؟!».

قال: «أجبته بأني مُشوش مثل الآخرين، ولكن ما أنا متأكد منه أنني مع مصر».

نظرت إليه مترقبًا، تابع: «وانتهى اللقاء بأوامر الخديوي أن أستقطب ما استطعت من ضباط لصفي، تمهيدًا للخطوة التالية التي سيبعث لي بها».

قلت: «يراك إذن في صفه؟».

قال بابتسامة: «لأنه يصدق نفسه، بعدما قال لي إنه من يمثل مصر. وشدد ألا نسمع كلام أي أحد سواه».

ونهض قائمًا، فاستوقفته: «سريعًا هكذا؟».

شد قامته مكتفيًا بابتسامة، فقلت دونما تفكير: «لماذا أتيت إليَّ إذن؟!».

ندمت بعدها فورًا، طبيعي أن يأتي، ألسنا أصدقاء؟! حزنت من نفسي، تخوفي من مساءلة القصر لي جعلني أبدو بهذا الحمق، إلا أن عليًّا قال بابتسامة غاضبة: «ستعلم إجابة سؤالك بعد قليل».

وصافحني وغادر، ليتركني في تساؤلات لا حد لها.

***

مساء ذلك اليوم تم استدعائي لمكتب الخديوي، هناك كان كولڤن موجودًا، قمت بوظيفتي في تدوين ما يدور في اجتماعهما، كان أغلبه عن عصيان عرابي، وفقًا لتعبير كولڤن، ونصيحته للخديوي بالإصرار على ممارسة كامل سلطاته كحاكم لمصر على الأرض.

الخديوي مُتململ، أعرف أنه لا يقوم بالأمور إلا إذا دُفع لها دفعًا، هذا فيما يكره طبعًا. وُجد الخديوي في ظرف زمني عصيب حقًّا، مرة سمعته يقولها بشجن للمهردار، متمنيًا لو تولى الحكم في سنوات كسنوات عمه، الحاكم الأسبق عباس.

وانتبهت على عبارة كولڤن: «موقف عرابي غامض للغاية، التعتيم الحاصل على الاستعدادات الجارية على قدم وساق بكفر الدوار، لا يجدر أن تكون كذلك على حاكم البلاد».

اكفهر وجه توفيق، وقال: «عرابي أرسل أحد ضباطه اليوم، علي فهمي. واضح جدًّا أنه جاء ليستكشف نواياي». ولمعت عيناه: «ولكني سأوقعه فيما نصبه لي».

تجلى الاهتمام في نظرات كولڤن، وأنا كذلك، والخديوي يردف: «سأرسل لهم مظهر». تجمدت أصابعي، أمسكت عن الكتابة، بينما كولڤن كان يهز رأسه على مضض: «تستغل صداقة كاتبك بالضباط. هذا يستحق المحاولة».

شعرت بألم ممض، كتمت الإهانة داخلي، ما أكثر ما يسطر الآخرون أقداري دون الحفل بي، كأني قطعة شطرنج يحركونها كيفما شاؤوا.

وسمعنا طرقًا على الباب، دلف جندي إنجليزي وناول ورقة مطوية لكولڤن، ثم غادر. فض القنصل الرسالة، ثم احتقن وجهه للحظة

توارت سريعًا. بدا الترقب على الخديوي، وقال كولڤن: «أحد كبار أركان حكمك انشق عن جلالتك، شخصية عسكرية داهية، انتصاراته العسكرية معروفة جدًّا في بريطانيا».

تساءل الخديوي بقلق: «أركان حكمي! من جَرؤ؟».

غمغم كولڤن بشيء من السخرية: «تفقد سر ياورك».

بدا مزيج من نفاد الصبر والغضب على محيا الخديوي، فصمت كولڤن لحظات، ثم قال: «راشد حسني، القائد العسكري المحنك ذائع الصيت، انضم لعرابي في كفر الدوار».

لم يبدُ لي الاسم مألوفًا، ولكن وجه جناب الخديوي الذي أظلم، أعلمني الكثير عن مدى خطورة هذا الخبر.

***

(17)

أجواء معسكر كفر الدوار، كانت على النقيض من كل ما تخيلته.

لم يكن معسكرًا بالمعنى الحرفي، فالمصريون من كافة الطوائف في غدوٍّ ورواح على المعسكر، يأتون مُحملين ويغادرون مسرعين ليأتوا بإمدادات أخرى: سمن، لحوم، طيور، غلال، أموال، خضراوات، فاكهة، حتى خيول وماشية، كل بحسب طاقته. أغلب من رأيت من المتبرعين كانوا من طبقات دنيا، يأتون بتبرعات بسيطة، ولكن على سيماهم فخر وسعادة لا توصف، إنهم يشاركون في الجهاد ضد المستعمر الذي استباح أراضينا. الأغنياء كذلك لا تنقطع أرجلهم عن المعسكر، يجودون بكل عزيز، حتى أمراء من الأسر الخديوية، رأيت منهم أميرات وأمراء يفِدون للمعسكر متبرعين، ومشددين على وجوب الصمود والمقاومة.

أجواء رمضان هنا مغايرة تمامًا عما في القصر، هنا رمضان حقيقي، زينات ورقية، مسحراتية، عصائر رمضانية من عرقسوس وسوبيا وكركديه، تمور وماء معطر بماء الورد، كل ذلك في كل مكان. الصلوات وحلقات الذكر -والتي يشارك فيها عرابي- تفعم النفس بعبق روحاني جميل تأنس له الروح وتسكن إليه.

ولكن على الصعيد العسكري، كان الأمر مغايرًا جدًّا.

دخولي الأول على عرابي ورفاقه بمعسكر كفر الدوار، كان بالأساس مربكًا بشكل خرافي!

عندما وطأت أقدامي المعسكر للمرة الأولى، لاحظت تقاطر الجميع ناحية خيمة كبيرة، كان طبيعيًّا أن أتوقع أن عرابي هناك على المنصة يخطب، دخلت ولم تفلح الأجواء الحميمية بالمعسكر في تبديد ارتباكي؛ كيف سأبرر لعرابي وجودي؟ لا أشعر بالاحترام لنفسي بالأساس لأنني قادم إلى هذه البقعة الوطنية المباركة، لأتجسس على رجالها!

في مجيئي فكرت في الهرب، وترك وظيفتي بالقصر، ولكن، من يجرؤ على الاختباء في كامل القطر المصري من الخديوي؟!

قبل ذلك كنت فاتحت آرلين في العودة معها إلى بلدها آيرلندا؛ لكنها رمقتني باستغراب، وجزمت بأنها لن تترك مصر أبدًا، على الأقل في الوقت الحالي. وقالت لي بلطف إنها ترى مصر أنسب من آيرلندا. أنا أعلم أن مصر أفضل ما في الدنيا، ولكني أردت مغادرتها مضطرًّا للهرب من كل هذه المشاكل التي تفوق إدراكي. أنا أبسط من كل ذلك التعقيد الذي أتورط فيه توريطًا!

وهكذا سرت مع الجميع إلى داخل الخيمة، اخترت بقعة منزوية في الوراء، سمعت منها صوت عرابي الجهوري بالكاد، وطفقت أفكر ماذا عساي أقول لهم، حتى وجدت يدًا تخبط على منكبي الأيسر بقوة: «مظهر!».

ولم أكن بحاجة لألتفت، هذه النبرة المسرحية لا يمكن إغفالها، إنه عبد الله النديم!

***

ما إن انتهى المؤتمر حتى ساقني النديم سوقًا إلى عرابي، شاعر الثورة توسم أنه سيسعد بي أيما سعادة، وهكذا دخلت عليه وأنا من اضطرابي في غاية، لمحت الدهشة على وجهه، وبادرني عبد العال حلمي الذي لم يقِل عنه دهشة: «مظهر؟! كيف استطعت الخروج من القصر والحرس الإنجليزي، إنهم يحتجزون الجميع؟!».

أطرقت للأرض أغالب ارتباكي، ثم قلت زافرًا كل انفعالاتي: «لقد أتيت بمعرفة القصر، الخديوي شخصيًّا».

وجُلت بنظراتي في وجوههم، ثم قلت: «لأتجسس عليكم!».

***

على ضوء الحطب المشتعل، حيث جلسة السمر وسط نسيم الليل، دوت ضحكة مجلجلة من علي فهمي، ربت على كتفي بقوة، فيما يقول: «ألم أقل لك؟».

لم أفهم، كررت عبارته متسائلًا: «قلت لي؟!».

أطلق ضحكة أخرى وقال: «حينما سألتني لماذا أتيت؟ أجبتك بأنك ستعلم لاحقًا قريبًا». حملقت بوجهه، هو أنهى عبارته ظانًّا أنني فهمت هكذا.

تدخل عرابي في الحوار مبتسما ابتسامته الطيبة: «كلنا توقعنا أن الخديوي حتمًا يريد معرفة نوايانا، ولأننا نعرفك ونثق بوطنيتك، فضلنا أن تكون أنت العميل الذي يرسله، لأننا نعرفك، وذلك قطعًا أفضل من أن يرسل شخصًا آخر لا نعرفه، ينقل له أخبارنا، ولا نستطيع تمييزه».

هززت رأسي ببطء: «إذن علي تعمد زيارتي في مكتبي ليوحي للخديوي بمدى متانة صداقتنا».

كانت الإجابة ابتسامة واسعة على وجوه الجميع.

مرة أخرى يحركني الآخرون كبيدق لا إرادة له. لكن، رغم ذلك، شعرت بسعادة. على الأقل هنا أنا على الجانب الصحيح.

وقضينا أمسية من أجمل ما يكون، حفرت ذكراها في ذاكرتي.

***

اليوم التالي، جُلت جولة حرة في المعسكر، الجميع يشارك في التحصينات، جند ومدنيون، بناء وحفر وتفريغ ونقل. عدت قرب الظهيرة حيث الخيمة الكبيرة الرئيسية، ما لفت انتباهي أن ثمة مجندين شُبانًا يسوقون المارة نحو مدخل الخيمة، يشيرون بأيديهم للدخول. كان هذا غير معتاد.

دخلت مع الداخلين، الوجود بالداخل كثيفًا على غير المعتاد في هذا التوقيت. كان المتحدث فوق المنصة رجُلًا أشيب ذا شارب فضي، يشوب الاصفرار طرفيه المبرومين. يجاوره على المنصة عرابي وعلي فهمي وغيرهما.

سمعت رجلًا يهمس بجواري لرفيقه: «هذا الرجل يحمل كثيرًا على عرابي!». قفز التساؤل تلقائيًّا إلى لساني: «من هذا الرجل؟». أتاني الجواب من خلفي باقتضاب: «السر ياوران راشد حسني».

اتسعت عيناي، هذا إذن سبب مجيئي إلى هنا! أهذا هو الرجل الذي انزعج الإنجليز بسبب انضمامه إلى عرابي؟!

وأصغيت بكل انتباه لصوت الرجل ذي النبرة الهادئة.

«لا أستوعب انصياع ناظر الجهادية لأوامر الخديوي بعدم إطلاق الطابيات لطلقة واحدة إلا إذا بدأ الأسطول الإنجليزي بالقصف».

رغم طبقة الصوت الهادئة إلا أن الحنق كان فياضًا!

«في الاستراتيجيات العسكرية، دومًا انتظار تلقي الضربة الأولى يفضي إلى هزيمة مُذلة!».

اندهشت مما أسمع، خاصة حينما استطرد: «ولا أفهم، كيف لناظر حربية لا يكون موجودًا مع قواته وهي تحت القصف؟!».

«لقد كان في الإسكندرية يوم الثاني عشر من يوليو!»، ميزت نبرة علي فهمي في عبارته الاعتراضية الحانقة.

قال راشد حسني: «نعم، بعد ساعات طوال من بدء القصف».

ثم انبرى قائلا: «الأنكى، كم أحب لو كان ناظر الحربية قد زار الطابيات الدفاعية على طول ساحل الإسكندرية قبل القصف، ليتفقد حالتها مثلًا، ويقوي منها ما يحتاج للتدعيم».

ووقف السر ياوران فاردًا خريطة كبيرة أمامه على الطاولة المستطيلة، وأشار لنقاط فيها فيما يقول: «حينما تُراجع التكتيكات المستخدمة في هذه الحرب، تصاب بذهول مغيظ، وغليظ. تُثار بذهنك تساؤلات عديدة تكاد تصيبك بالفالج، لماذا مثلًا الضرب العشوائي لمدافع القلاع تجاه السفن الإنجليزية المهاجمة؟ لماذا لم تتفق القلاع على هدف واحد، تنتقل بعده لهدف آخر بعد إسقاطه؟!».

تبادلت مع الحاضرين نظرات عشوائية، فيما يستطرد راشد حسني: «على ما رأيناه جميعًا من نية الإنجليز المبيتة لضرب الإسكندرية، لا أفهم لماذا لم يتم استغلال فرصة وجود الأساطيل الإنجليزية داخل الميناء في العاشر من يوليو الجاري، وإغراقها بنيران قلاعنا المنتشرة على طول الساحل، قبل أن تخرج منه إلى عرض البحر -حيث تبتعد عن المدى

المؤثر لمدافعنا- ونحن نعلم يقينًا أنها فعلت ذلك لتأخذ تشكيلًا هجوميًّا عدائيًّا لقصف المدينة!».

وضرب بقبضته على الطاولة: «المدافع المصرية البائسة قديمة ومعطوبة، غير مصونة، خالية من مصادر التوجيه. كانت النتيجة أن تسقط أغلب قذائفها في البحر قبل أن تصل لأهدافها!».

ساد صمت ثقيل في الخيمة الشاسعة، قطعه صوت راشد حسني: «مع العلم، كل عدد المدافع البحرية المصرية السليمة أربعة مدافع، بينما عدد السفن الحربية الملكية الإنجليزية خمس عشرة سفينة!».

لمحت من موقعي توتر علي فهمي في جلسته، فيما يردف حسني: «ألف وخمسمائة جندي مصري استُشهدوا في طوابيهم، ومعهم كثير جدًّا من المصريين أبناء البلد الجسورين الذي أتوا إلى الشط بالآلاف، في بسالة لدعم جيشهم في الذود عن أرضهم».

شعرت باضطراب من حولي، حتى سمعت نحنحة من عرابي، أعقبها رده: «سر ياوران راشد حسني قائد عسكري مخضرم، ذو تاريخ مشرف نعتز به جميعًا، لقد قاد اللواء السابع المصري في الحملة المصرية على كريت لمساعدة الدولة العثمانية عام 1865 حيث انتصر على الثوار، ونال رتبة اللواء عام 1867، كما قاد في 1876 الحملة المصرية لمساعدة الدولة العثمانية في حرب البلقان، حيث أحرزت بالقوات المصرية هناك انتصارات باهرة». وصمت لحظة ثم قال: «وأنا رجل عسكري؛ لكن كل خبراتي إدارية، لا خبرات ميدانية سابقة لي في الحروب». وصمت مرة أخرى، ثم قال: «لذلك سعدنا جميعًا بانضمام رجل عسكري بثقل سر

ياوران راشد حسني. ولأن العمل الجماعي عبارة عن تكامل؛ فأنا سعيد جدًّا بتكامل خبرات الجميع هنا».

وهدأت حدة الحوار كثيرًا بعد كلام عرابي، نعم استمر راشد حسني في بيان الأخطاء العسكرية في المواجهة مع الإنجليز، إلا أنه أشاد أيضًا بأداء الضابط مهندس محمود فهمي، ووصفه بالبارع، ووصفه شخصيًّا بالنابغة، في أعماله السريعة والناجعة في عمل التحصينات والإنشاءات العسكرية. لينتقل الكلام بعدها إلى مناقشة خطط عسكرية مقترحة لمقاومة الإنجليز.

وانتهى الاجتماع، ولم أفوِّت في خروجي تعليق عوام الناس الهامس، على كل ما ناله عرابي من تقريع!

***

«هل من الطبيعي انعقاد اجتماع يناقش خطط حرب في خيمة عامة يحضرها الجميع؟!».

استقبل النديم عبارتي بفتور، وهو يصب الشاي الساخن الثقيل من الإبريق، في جلستنا الليلية فوق الحصير بأرض المعسكر في الهواء الطلق.

كانت حولنا حلقات من الناس، يتسامرون ويتمتعون بنسيم الليل العليل. وعقب الشيخ محمد عبده: «شخصيًّا لم أشعر بالارتياح لحضور اجتماع بين القادة يتناقشون فيه بحميمية لا يجدر أن يحضرها العامة».

قال النديم عابسًا: «قد أخبرني علي فهمي أنه لم يكن من المفترض أن تُفتح الخيمة للعوام في هذا الاجتماع. كان يفترض بالجند غلق الخيمة».

انبريت قائلًا: «ما جرى هو العكس! لقد رأيتهم يشيرون للناس ويوجهونهم للدخول».

قال الشيخ: «ترى هل الأمر مجرد سوء فهم، أم الأمر يستحق تحقيقًا؟».

قلت للنديم: «بمناسبة التحقيق، أثناء وجودي في القصر كنت أقرأ تحقيقاتك في جريدة (الطائف)، وأندهش جدًّا، هل كل التدليس بالصحيفة مقصود حقًّا؟!».

«تدليس!»، كرر النديم وقد تمعر وجهه. قلت: «ماذا تسمي تعديد انتصارات الجيش المصري على القوات الإنجليزية، فيما أنك تعلم أن العكس هو الصحيح؟».

قال النديم: «أسميه الحفاظ على الروح المعنوية للشعب، أسميه عدم كسر القلوب، أسميه تجييش المشاعر استعدادًا للمعركة الكبرى».

لمست تقلقل الشيخ محمد عبده في جلسته، هل يشاركني اعتراضي على منطق النديم؟

قلت: «لست سياسيًّا، ولا واعيًا بقدركم، ولكن آرلين تكرر عليَّ دومًا أن الشعوب من حقها معرفة كل شيء».

كان كلاهما يعلمان علاقتي بالمربية الآيرلندية، ولحظت عبوس النديم وشرود الشيخ، فقلت: «ألم يكن ممكنًا على الأقل تناول نزول القوات الأميركية للإسكندرية مع غروب يوم الثاني عشر من يوليو؟».

قال النديم: «لم تنزل سوى لإجلاء رعاياها، وتركت الإسكندرية فور تحقيق مهمتها».

قال الشيخ محمد عبده: «لقد سمعت أنها بذلت جهودًا حثيثة في إخماد الحرائق بالإسكندرية».

قلت: «هذا صحيح. إنما ما أستغرب له، ما مصدر القوة لهذه الدولة الجديدة، لتنزل وتخرج من أرضنا هكذا، دونما أدنى اكتراث للإنجليز؟!».

قطب النديم حاجبيه: «علي أخبرني أن آخر قوات التجريدة الأميركية غادرت في الرابع والعشرين من يوليو الجاري»، وأخرج ورقة مطوية من جيب بنطاله، فردها: «لقد دونت اسمها لوضع الخبر في جريدة (الطائف)»، وقرأ: «آخر من غادر قوة صغيرة من الحرَّاقة[18] (يو إس إس كوينبوك) بقيادة الملازم فرانك إل دني».

غمغم الشيخ محمد عبده: «مع احترامي لهذا النقاش السياسي المحتدم، إلا أن اليوم هو التاسع من رمضان، وأخشى أن تجرفنا هذه الهموم عن التمتع بنفحات هذا الشهر الفضيل».

وتغير مسار الجلسة بعد عبارته، لتأخذ مسارًا دينيًّا أشاع الطمأنينة في نفسي، حتى اختتمت جلستنا بتناول السحور.

***

اليوم التالي أتت أنباء الجمعية الوطنية التي انعقدت بالقاهرة ردًّا على قرار الخديوي بعزل عرابي. أتت الأخبار بما ضمه المجلس من شتى مكونات الشعب المصري، من شيخ الإسلام شمس الدين الإمبابي شيخ الأزهر، وبطريرك المسيحيين كيرلس الخامس، والحبر الأكبر لليهود سيسارو تيتاني، بالإضافة لكبار النواب، ومحافظي الأقاليم، بل وأربعة أمراء من أسرة محمد علي، وهو ما أضفى أهمية بالغة لهذا المجلس الذي

18) الحرَّاقة أو الفرقيطة، بالإنجليزية (كورفت Corvette): سفينة حربية تمتاز بالسرعة والمناورة وتكون أصغر من الفرقاطة وأكبر حجمًا من الزوارق الدورية الساحلية. [المُترجِم].

ضم نحو أربعمائة عضو على الأقل، أجمعوا على استمرار الاستعدادات الحربية ما دامت بوارج الإنجليز في السواحل، وجنودها يحتلون الإسكندرية ليقرر بالإجماع أن الخديوي الذي بات في أيدي البريطانيين، بات في وضع قانوني لا يسمح له بإصدار مراسيم أو قرارات، وبالتالي صار في وضع لا يسمح له بإدارة البلاد، ما دفع مشايخ بقدر الشيخ العدوي والشيخ عليش وآخرين إلى الإفتاء بضرورة خلع توفيق ذاته من حكم مصر، خاصة بعد موقفه المُرحب بالتدخل الأجنبي وتسويقه له. فبدلًا من أن يقاوم الخديوي المحتلين، استقبل في قصر الرمل الأميرال بوشامپ سيمور قائد الأسطول البريطاني، لينحاز إلى الإنجليز، ويجعل نفسه وسلطته الحكومية رهن تصرفهم، حتى قبل أن يتموا سيطرتهم على الإسكندرية. بل وقبل إرسال الإنجليز لثلة من جنودهم من ذوي الجاكتات الزرقاء لحمايته أثناء انتقاله من قصر الرمل إلى قصر رأس التين.

وعليه جرى تشكيل مجلس عمومي لتدارس الأمور وتقرير ما ينبغي عمله. وابتدأ المجلس قراراته بتثبيت عرابي في موقعه، مع تعيين مجلس دائم باسم لجنة الدفاع، ليعاون عرابي في أداء مهام صد العدوان الإنجليزي. وباتت أولى أولوياتهم جمع الرجال والأسلحة والخيول من قرى وعزب وكفور البلاد، لتكوين جيش مقاومة شعبية يدعم الجيش المصري.

وكان أول رد فعل من النديم أن تركنا وقفل مُسرعًا للقاهرة ليواكب نشر هذه الأحداث المتلاحقة.

شخصيًّا كنت مندهشًا لوصول كثير من التفاصيل التي عايشتها بنفسي إلى القاهرة. تضاربت مشاعري بين الأسف والارتياح أن وصلت

الأمور لهذه المرحلة. مع ذلك، بقي داخلي هاجس أن كل ذلك لا يمكن أن يتحقق بهذه السهولة على أرض الواقع. لقد تعاملت ورأيت يقينًا كيف يتعامل الإنجليز. هم آخر من تصدر عنهم القرارات الانفعالية، بينما للأسف كل ما يصدر من جانبنا ليس سوى كذلك.

وصارحت عرابي بمخاوفي مع أول لحظة استطعت التنحي به جانبًا؛ لكنه ربت على كتفي مبتسمًا ابتسامة مشجعة، قائلًا باقتضاب: «ليس هذه المرة».

«أتعشم ذلك».

***

بعد صلاة التراويح، سلمني علي فهمي مظروفًا، قال إن المعلومات المضللة فيه هي ما يجب إرسالها للخديوي عن طريقي. تسلمت المظروف صامتًا، ثم سألته عن عرابي، فقال: «ليس في أحسن حالاته، وعندما استعلمت عن السبب قال: «وصل إليه ما يدور في البلاد بين الناس من أنه جبان، متخاذل، متردد، مرتعش اليد».

رمقته بتساؤل مكررًا: «متخاذل؟!». قال قانطًا: «لأنه انسحب من الإسكندرية تاركًا إياها للإنجليز دون أي اشتباك معهم». قلت: «بحكم موقعي أعلم أن الخديوي فوجئ بمغادرة عرابي للإسكندرية قبل غروب شمس اليوم الأول للعدوان، الخديوي كان ينوي القبض عليه. وذلك سبب الاستدعاء الثاني له، وهو ما نفذ منه عرابي، برفضه الذهاب للخديوي -الذي في حماية الإنجليز- بالإسكندرية».

قال النديم: «لقد نشرت شيئًا من ذلك في (الطائف)؛ لكن ذلك ليس كل شيء»، وأخذ نفسًا عميقًا وقال: «تتحدث المقاهي مثلًا بأن عرابي لو

كان أخذ توفيق أسيرًا بالقوة قبل يوم واحد من ضرب الإسكندرية، لكان تسبب في تعقيد مهمة الإنجليز، وما كانت الأمور لتصل لهذا المستوى».

كنت قد حضرت سابقًا قبل شهر مناقشات بين الضباط في حضور عرابي، تتحدث عن أمر كهذا، مشيرين لوجوب الاستفادة مما جرى مع «باي» تونس.

فقلت بحذر: «وهل هو كذلك؟».

قال: «كيف وهو من أصدر قرارًا بإعدام ستة وثلاثين بدويًّا رميًا بالرصاص بعد ثبوت تهم قتلهم للأوروبيين؟! وكذلك أعدم عددًا من المواطنين شنقًا في كل من طنطا ودمنهور لنفس السبب».

أومأت برأسي دونما قصد، فيما يستطرد: «وقرار اختيار كفر الدوار للتخندق والدفاع، والذي تثبت الأيام مدى فلاحه، هل يصدر من رجل متردد؟!».

لذتُ بالصمت، فقال: «نعم حرق الإسكندرية -بغض النظر عن أنه وقع بالصدفة أو عن تخطيط- هو ما أتاح لعرابي التوقيت الكافي لاتخاذ القرار؛ لكن ذلك لا ينفي أنه من قرر واختار».

ثم بادرني باهتمام: «أتساءل: ما هو موقف الداهية المتغطرس درويش باشا الآن، وهو رهين احتجاز البريطانيين؟».

قلت باقتضاب: «درويش باشا ليس تحت يد الإنجليز». رمقني بنظرة ثاقبة، فأردفت: «فور علمه بقدوم ذوي الياقات الزرق للقصر، فرَّ بيخت بخاري من الإسكندرية أرسلته له إسطنبول، دون أن ينجح الأسطول الإنجليزي في اقتناصه».

هز رأسه ببطء: «ألم أقل إنه داهية؟! لا ريب فطن للعار المحيط به، ففرَّ قبل أن يتلطخ أكثر بعار خيانة توفيق».

وتشعب حديثنا بعدها لحديث شخصي من جانب علي، وشوقه لقضاء رمضان مع أسرته. كان حديثًا من جانب واحد بالأحرى. فليس لوحيد مثلي ذكريات من أي نوع، تتعلق بمشاركة أسرية.

ومع ذلك، حرَّك حديثه في نفسي شجونًا.

***

اليوم التالي كنت أمُر على مستودع التبرعات العينية للمصريين، كان المكان يضج بصياح الديكة ونقنقة الدجاج وخوار البقر، «أريت معدن المصريين؟ هل تعلم أن أكثر التبرعات تأتينا من مواطنين بسطاء أقرب للفقر منهم للغنى؟».

التفتُّ لصاحب العبارة، كان عرابي يتفقد المعسكر، صافحني بدماثة كعادته، كان بصحبته عبد العال باشا حلمي ويعقوب باشا سامي، ووجدت نفسي أمشي برفقتهم في جولتهم التفقدية، وانتهى بنا المقام في خيمة عرابي، حيث جلسنا على مائدة طويلة، حيث كان ثمة ضباط آخرون جالسون، ميزت منهم فقط محمود سامي البارودي. وبادرنا عرابي وهو يفض بعض الأوراق: «القنصل العام لإيطاليا في مصر أرسل لي بأن (مينوني جاريبالدي) يسعى جديًّا في تشكيل قوة إيطالية لمساعدتنا ضد البريطانيين». غمغم أحد الضباط وهو يهز رأسه: «جاريبالدي مرة واحدة!».

تابع عرابي وهو يفض ورقة أخرى: «عباس أجا زمزم، أرسل لي رسالة كلفه بها شريف مكة، وصفني فيها بالمدافع عن عقيدة الإمبراطورية

الإسلامية، وأن الناس في الكعبة وحجر إسماعيل وعند زمزم وفي عرفات وفي منى وسائر مكة والحجاز، يدعون لنا بالنجاح».

قال البارودي: «الدعاء معلق بالسماء حتى تصدقه جهودنا على الأرض».

تصلبت قسمات عرابي لحظة، ثم لانت فيما يقول: «الجميع يفعل ما عليه، وأرحب جدًّا بمن يقترح المزيد».

اندفع البارودي: «الوقت يمر بنا بسرعة، ونحن لم نحسم بعد مسألة إغلاق قناة السويس!».

بدا التبرم على قسمات عرابي: «مناقشات إغلاق القناة مفتوحة منذ أسابيع، الأمر جلل، نحن نتحدث هنا عن الوقوف في وجه المجتمع الدولي كله، بما في ذلك الدول العدوة والصديقة!».

قال عبد العال حلمي بتؤدة: «جميعنا نعلم مدى ثقل مسؤولية القرار؛ لكن الجميع اتفق على حتمية ذلك، إن أردنا منع الإنجليز من استغلالها في تطويقنا أو الوصول لعمق الأراضي المصرية».

قال عرابي: «لقد أرسلنا أكفأ ضباطنا، الروبي، ليرأس حامية دمياط ويصد الإنجليز من هناك».

غمغم البارودي: «الروبي فعلًا أحد أكفأ ضباط الجيش، لذا؛ كم وددت لو كان هنا معنا في كفر الدوار».

عرابي: «ودمياط؟!».

البارودي: «أي من ضباطنا كان يكفي لها، ثم إنني لا أظن إنجلترا ستغزونا من دمياط لمجرد أن لويس التاسع فعل ذلك».

قال عرابي: «لطالما فكرت الحملات الصليبية في غزونا من هناك. وعلى أية حال، اتفاقنا مع البدو والأعراب دخل في حيز التنفيذ، وخلال أيام قليلة سيكونون على طول ضفتي القناة، بانتظار أوامرنا».

«ودليسبس؟»، تساءل يعقوب سامي.

أجاب عرابي: «ثمة مراسلات بيني وبينه باعتباره ممثل إدارتها الفرنسية، وأنتظر رده. لقد علمت أنه عاد لبورسعيد منذ بدء العدوان الإنجليزي على الإسكندرية».

وتطرق الحديث بعدها أغلبه إلى مسائل لوجستية، مع ذلك كان بإمكاني قراءة ملامح عرابي، واستنباطي لشعوره بمدى ثقل المسؤولية على كتفيه، ووجدت ذهني يستدعي آنيًّا الشاب الثلاثيني توفيق، وكيف وضعته الظروف في طريق الخيارات المصيرية. لأجد نفسي أتساءل في نفسي: هل هما متشابهان فعلًا؟... إلا أن كلًّا منهما انحاز لطرف نقيض للآخر.

***

(18)

استيقظت ليلًا على صوت أعنف من هزيم الرعد!

سرعان ما ميزت رشقات الرصاص وقصف المدافع. هل لا يحلو للإنجليز اقتحام كفر الدوار إلا ليلًا؟!

نهضت مُتعجلًا أتبين الأمر. هذه هي محاولة الهجوم الإنجليزية الرابعة. أتعشم أن تخفق كالمحاولات الثلاث السابقة. قلقًا خافضًا رأسي مرقتُ بيت الجموع المهرولة في كل اتجاه. استوقفت أحد الضباط أسأله عن الأمر، فأجاب فيما يتجاوزني: «الجنرال أليسون بصحبة عدة آلاف يحاول الاقتحام».

الأيام السابقة أثبتت فلاح مجلس الدفاع، التنظيم والكر والفر بقيادة راشد حسني حتمًا أربك الإنجليز. لعلي لم أكن وحدي الذي اختبر هذا الشعور الفريد بالفخار. غير فلاح تحدث معي وصارحني بحبور الفلاحين الذين يرون في هذه الحرب خلاصهم من قهر المُرابين اليونانيين وأمثالهم. لعل ذلك سبب ازدياد عدد المتطوعين منهم للجهاد. حينما أخرج من المعسكر أندهش من مظاهر تحرر المصريين من سلطة الخديوي، وانتعاشهم لذلك. حتى خطب الجمعة، خلت من الدعاء له، هذا مدهش ينافي كل ما تربيت عليه. الجميع منتشٍ من انتقالهم لسلطة جديدة يحكمهم فيها بشكل مباشر بنو وطنهم، سلطة ممثلة في عرابي ورفاقه.

نصحني غير ضابط بالتراجع عن خطوط المواجهة. فجأة وجدت نفسي يصفو ذهني وأستفيق من بقايا حالة النعاس. بالفعل، ماذا أفعل في الخطوط الأمامية؟!

وقابلني الشيخ محمد عبده، قبض على ساعدي وهرعنا مع المدنيين الموجودين في المعسكر إلى المخبأ الجنوبي. ومع ليلتنا التي قضيناها حتى تباشير الشروق الأولى، لمست من الموجودين معنويات عالية، واستعدادًا لتحمل أعباء الحرب أيًّا كانت ولو إلى أبد الآبدين.

***

الثامن عشر من رمضان، أشعر بحالة انعدام وزن، الأجواء الحميمة هنا في المعسكر جعلت حياتي قبل ذلك وكأنها حياة شخص آخر. هذا التضارب غير مريح، صرت أتفكر كثيرًا في عديد من قناعاتي السابقة. لكم هذا مرهق؟ أنا لم أعتد أن أكون بهذا العمق!

على مائدة الإفطار أوقعني مقعدي بمواجهة اثنين من ضباط مجلس الدفاع، لا أعرفهما شخصيًّا، كانا يتحدثان بنبرة قانطة وملامح كالحة.

«السويس ثاني مدينة تسقط في يد الإنجليز، وأول مدينة من مدن القناة؛ يتم احتلالها».

«ويا ليتها سقطت بالمواجهة والرصاص، وإنما سقطت بالخسة والانحطاط».

«تخيل؟! الخديوي توفيق أعطى تفويضًا صريحا للأدميرال هوسكنز بحرية العمل الحربي، وعليه طلب من محافظ السويس تسليم المدينة، ورفع العلم البريطاني عليها بدعوى إعلان ولاء السويس للخديوي توفيق!».

«المحافظ غادر السويس إلى القاهرة شاعرًا بالخذلان، تاركًا المدينة للإنجليز».

«لقد تلقينا معلومات أن الأدميرال (هيويت) يشرع في تهيئة المنطقة من السويس للإسماعيلية في تحرك محتمل داخل القناة».

ووجدت لساني ينطلق: «وهل ستسمحون لهم؟!». رمقني أحدهم شذرًا، فيما أجاب الآخر: «عرابي مكتوف الأيدي، لا ينفك يطالب الإدارة الفرنسية للقناة بتحمل مسؤولياتها، ودليسبس يماطله، ويؤكد أن إنجلترا لا تجرؤ على الاستخدام الحربي للقناة؛ لأن ذلك مناقض للاتفاقيات الدولية».

رمقت الاثنين وقد فقدت شهيتي للإفطار، حتى شخص سلبي مثلي كان يمكنه شم رائحة غدر قادم في الطريق.

وقد صدق ظني، في الخيمة الرئيسية بعد يوم واحد، حضرنا اجتماعًا لمجلس ضباط عام، أعلن فيه راشد حسني قرار الأغلبية بتعضيد ثباتهم أمام الهجوم البري للإنجليز على كفر الدوار، ومنعهم من الالتفاف والوصول للقاهرة عبر قناة السويس، عبر قطع القناة في أربعة محاور: رأس العش، والقنطرة، والشلوفة، واسم آخر لم أسمعه جيدًا. كانت الموافقة بالإجماع، إلا من المهندس محمود فهمي وعرابي، الذي أعلن رأيه قائلًا: «أرى عدم القيام بهكذا خطوات عدوانية إلا بعد قيام الإنجليز بعمل عدائي فعلًا في المنطقة».

كان رد راشد حسني: «لا أستحسن الاستمرار في سياسة الانتظار بتلقي الضربة الأولى. التاريخ القريب أوضح أن تلك سياسة انتحارية فادحة النتائج».

وهكذا كان تصويت مجلس الضباط بالأغلبية على قرار قطع قناة السويس. وبحكم موقعي في القصر كنت أعلم أن ذلك كان قرارًا خطيرًا...

إلى أبعد الحدود.

***

المعسكر مشحون جرَّاء ما جرى اليوم، ومع ذلك أصوات الابتهالات الجماعية تدوي من أماكن شتى، عرابي يشجع هذا الأمر ويشارك فيه شخصيًّا، الليلة هي الأولى من العشر الأواخر من رمضان، كم مضى هذا الشهر سريعًا! أتوقع أن تتزايد أعداد المشاركين في الابتهالات التي تعقب صلوات التراويح. انعطفت حيث الميضأة، لعل يجدر بي أن أبدأ المشاركة بها، لن أجد أنسب من العشر الأواخر للبدء.

كانت هذه الأفكار تدور برأسي، عندما تلقت بغتة ضربة هائلة!

***

فتحت عيني دفعة واحدة، جفناي ثقيلان، صداع يعصف بمؤخرة رأسي، بصيص من ضوء يتسرب لمكاني عبر خصاص نافذة مغلقة، جالس فوق كرسي مُثبت في الأرض، ولكن ثمة اهتزاز رتيب كأننا في قطار!

شعرت بيد تقبض على منكبي الأيسر، التفتُّ، أحسست بسيخ من الألم يعصف بعضلات رقبتي مع حركتي المفاجئة.

«هوِّن على نفسك».

سمعت العبارة بإنجليزية سليمة، دار صاحبها ليقف أمامي،

رجل أوروبي الملامح، قدَّرت سنه بأوائل العقد الرابع، قدَّم نفسه باعتداد: «وليام چيل، أمثل أحد الأجهزة الأمنية البريطانية».

حملقت به مرتاعًا، إذن هذا وراء الضربة التي تلقيتها على رأسي، هل أنا مخطوف؟ لماذا؟!.

قال وليام هذا مباشرة: «مستر مظهر، حكومة جلالة الملكة تطلب خدماتك».

حتمًا ما زالت نظراتي مذعورة؛ لكنه تابع في كياسة: «نريدك مؤقتًا، مدة محدودة، وسنعيدك تمامًا لنفس النقطة التي التقطناك منها».

نبرته الهادئة بدأت تهدئ من روعي، لا يمكن أن يكون شريرًا ونبرته خالية من الضغينة بهذا الشكل؟ لاحظت أنني غير مقيد اليدين ولا القدمين، فاعتدلت في جلستي: «ولماذا أنا؟ وعرابي؟ والقصر؟!».

جذب كرسيًّا وجلس أمامي واضعًا ساقًا فوق أخرى، الضوء المتسرب من الخارج تركز على وجهه، منعكسًا على شاربه الأحمر، وبشرته المشوبة بالنمش. قال: «مع احترامي سيد مظهر، عرابي متورط في أحداث جسام ستتسارع كثيرًا خلال الساعات القادمة، لا أظنه سيتذكر حتى زوجته أو عياله. أما القصر، فعملاؤنا هناك سيحولون دون علمهم باختفائك، أو الشك في انقطاعك عن مهمتك».

مهمتي! هذا الأصهب يلمح بمعرفته كل شيء. قلت متوترًا: «وما المطلوب بالضبط؟».

قال: «مهمة بسيطة. في الصحراء، سترافق عميلًا لنا، إيطالي الجنسية، رحالة مفتون بالشرق، خبر الصحاري كثيرًا، ولذلك جندناه».

حملقت بعد بغير استيعاب، تابع: «هو يتكلم العربية؛ لكن بغير إجادة، وبالتأكيد يجهل اللهجات المحلية. دورك أنك سترافقه كمساعده الشخصي، لن تنطق بكلمة مع أي مخلوق سواه».

قلت: «ظننت أنكم تحتاجونني كمترجم، أتحدث مع... مع من؟!».

قال: «البدو، مهمتك مع بدو خط السويس غزة»، ثم أسهب: «كل مهمتك أن تسمع أحاديثهم الجانبية فيما يفاوضهم الإيطالي، كي نعلم إن كانوا سيغدرون به من عدمه، كما نريد أن نعرف مدى اقتناعهم بكلامه».

وصمت لحظة ثم قال: «تذكر، يجدر ألا تلفظ كلمة عربية واحدة طوال الرحلة، حتى مع عميلنا الإيطالي في خلواتكم. فكل حديثك معه طوال المهمة سيكون بالإيطالية».

كنت مشوشًا جدًّا، تساءلت: «ولماذا؟».

قال: «يجب أن يأمن لك البدو تمامًا ليتكلموا على سجيتهم في حضورك».

وقام ليدور حولي، ثم قال: «للعلم، من ضمن مهامك مراقبة عميلنا الإيطالي، والتأكد من استمرار ولائه لنا، وكذلك عدم هروبه بالذهب الذي أعطيناه له لرشوة البدو».

شعرت بالدهشة: «لماذا أنا بالذات لهكذا مهمة؟!».

أجاب: «أنت تجيد الإيطالية، وطبعا العربية. شكلك ليس مصريًّا، شعرك شديد النعومة أقرب لريش الطيور، مزيج بين البني والنحاسي، أبيض البشرة، عيناك فيروزيتان. هذه ملامح أقرب لمواطني شمال غربي آسيا إن أردت رأيي».

أجفلت أمام منطقه، على حين تابع وليام: «حتمًا، تتساءل ما المقابل؟ بالتأكيد ستأخذ مبلغًا نقديًّا مُعتبرًا، ولكن بجانب هذا هناك شيئان أكبر بكثير».

بلعت ريقي بصعوبة، لم أعقب، فيما تابع العميل بكياسة: «الأول؛ سنعمل على زرعك، سنرعاك وظيفيًّا في القصر، ستكون في أعيننا، حتى تصل لأعلى المراتب، لمناصب؛ ما كنت لتجرؤ على مجرد الحلم بها».

وصمت لحظة ثم تابع، وإن بنبرة أبطأ: «أما الأمر الثاني، فسنخبرك بحقيقة أمرك».

قلت مبهوتًا: «أمر! أي أمر؟!».

قال: «أمر عائلتك، القصة الحقيقية لك يا مظهر أو يا (مهمود) ناير شاكر بلقان».

***

توقف بنا القطار في منطقة مقفرة، أين هذه المحطة؟! كان عقلي ما زال يغلي، محمود ناير شاكر بلقان؟! حقيقة أمري! أنا اسمي مظهر شقير، عمَّ يتحدث ذلك الرجل؟!

لكن، سمت رجل الأمن الإنجليزي لا يدل أبدًا على هزل أو خفة. وأقبل علينا رجل أوروبي المحيا، يرتدي ملابس بدوية فضفاضة. قدمه لي السيد وليام باسم إنزو. هو إذن ذلك الإيطالي.

ثم قدمني لإنزو قائلًا: «فانتينو».

حدجني إنزو بنظرة متفحصة. بادلته النظرات. على غير توقعي؛ الرجل عجوز، ربما في الستين؛ لكنه منتصب الظهر، قسمات وجهه تنضح بصحة وافرة.

تحول عني إنزو ليتحدث مع وليام چيل في عدد من الأمور المتعلقة بالسفر. حلَّق ذهني آنيًّا مُسترجعًا كلمات الضابط الإنجليزي، لقد أشار بطريقة ما إلى أصل عائلتي، ترى ماذا يقصد؟ وهل عمَّاي شقير على علم بهذا الإفك؟

هبت نسمة صحراوية باردة ذكرتني برحلتي الموشكة على البدء. شردت بنظراتي في بحور الرمال الممتدة بلا حدود، هل من المفترض أن أعبر كل هذا؟

أتخم ذهني بأسئلة لا سبيل سريعًا لإجابتها، اللهم إلا بمسايرة الإنجليز. مُكره أنا في الواقع، من أكون لأعارضهم؟ في نهاية المطاف سيكون بوسعي نقل كل ما سأتحصل عليه من معلومات إلى عرابي، أنا إذن في حكم المتموضع في مهمة عمل، ستؤول نتيجته في النهاية لصالح مصر.

أما موضوع محمود ناير هذا، فلن أشغل نفسي بعبور الجسر إلى أن أصل إليه. وانتبهت على يد تناولني ملابس بدوية. نظرت لوليام متسائلًا، فأشار باقتضاب تجاه عربة القطار بما معناه؛ توارَ وارتدِ هذه الملابس بسرعة.

ارتديتها وأنا من الاضطراب في غاية، خرجت أرفل فيها، أناخوا لي جملًا اعتليته واجفًا، وحينما تحرك بنا في خطوات متمايلة، كنت لا أكف عن التساؤل: إلى أين ستستقر بك الأيام يا مظهر؟

***

مع تحركنا علمت أننا في الصحراء الشرقية، ميناء السويس إلى غربنا، من موقعي شاهدت سفنًا حربية بريطانية تقل جنودًا عليهم السمت الهندي، هل عرابي على علم بمقدمهم؟

«أنت إذن عين الإنجليز عليَّ؟»، قال إنزو بالإيطالية، نبرته مُفعمة بالتهكم. قلت بمزيج من الاقتضاب والاستياء: «كل منا في مهمة، ومخدومنا واحد؛ الإنجليز. سنيور».

دار بيننا هذا الحوار ونحن نحيق بركوة شاي، وقت الغروب. حملتنا الآن مكونة من أربعة أفراد، دليلنا البدوي، وغلامه، والإيطالي وأنا.

إنزو أفضل مني بمراحل في امتطاء النوق، قبل ساعة دنا من ساحل القناة، ثم أناخ جمله أسفل أحد العواميد. فكرت وقتها أننا سنستريح ونقضي ليلتنا هنا أخيرًا. لكني فوجئت به يفعل آخر ما قد أتوقعه. لقد حل حقيبته الجلدية، ثم في مهارة طالع النخل اعتلى العمود، عمود البرق!

فغر فمي وأنا أراه يقطع أسلاك التلغراف. فعلها بطريقة غير عشوائية، وفي لياقة لا يمكن أن تتوفر لرجل في مثل عمره، كما لو تدرب على ذلك مسبقًا. راقبته مذهولًا، أما البدوي وغلامه فترجلا في الأنحاء بلا اكتراث. حينما نزل سألته عن هذا العمل التخريبي؛ لكنه تجاهل الرد عليَّ، وكرر فعلته مع عمودين آخرين، تخيرهما من بين عدة عواميد. كررت سؤالي، وكرر تجاهله، حتى دنا الليل، وبينما أعوانه في نصب خيمة بدائية قال باقتضاب: «إنما أنفذ أوامر بمهام خلف خطوط العدو».

رددت: «عدو!». كان للكلمة وقع ثقيل.

وضاقت عينا إنزو وهو يردف: «أوامر بمنع عرابي من الاتصال بالدولة العثمانية، أو طلب العون من سائر القوى الدولية».

رددت مبهوتًا: «أوامر!». قال: «أوامر إنجلترا». أشرتُ للصحراء: «ولكن الطريق عامر بعواميد التلغراف، هل تنوي قطعها كلها؟!». رفع حاجبيه باستهانة: «لم تعد لهم فائدة».

رمقته متسائلًا، فقال: «ثلاث نقاط مركزية، أيٌّ منهم يقطع بشكل تام التلغراف بين مصر والعالم»، وعدَّ على أصابعه: «شمالًا، بساحل العريش، وفي وسط القناة، قرب قنطرة الإسماعيلية، وهنا؛ على ساحل السويس. أقطعها هنا؛ أبطل فاعلية المحطتين الباقيتين».

قلت: «ولماذا كل ذلك؟!». صب إنزو في جوفه جرعة من مشروب، أغمض عينيه بقوة، ثم قال: «هكذا الدول الكبرى يا بُني، لا تترك شيئًا للصدف».

قلت وأنا أنظر للخبز اليابس الذي من المفترض أنه عشاؤنا: «ما الخطوة المقبلة؟».

قال إنزو: «كما يقول الأتراك؛ لكل مقام مقال». قلت عابسًا: «هذه مقولة العرب!». لوح بكفه بلا اكتراث: «كل المسلمين عندنا أتراك».

ومال ناحيتي متفرسًا في ملامحي: «لغتك الإيطالية جيدة، أين تعلمتها؟».

قلت بفتور: «سنيور إنزو، كلما قلَّ ما نعرفه عن بعضنا، كان ذلك أسلم لكل منا. هذا ما وعظني به مستر وليام».

عاد ليعتدل في جلسته مومئًا برأسه في بطء. أعلم أنه بذلك لن يستسيغني، ولكني كذلك لا أبلعه! بعد دقائق غمغم: «أتحفظ شيئًا من الشعر العربي؟». وثب في ذهني فورًا عبد الله النديم، كم أفتقده! إن كان موجودًا هنا لأسمع الإيطالي حتى الثمالة. هززت رأسي نفيًا: «لا».

صعر خده مزهوًّا: «لا توجد طريقة أنجع لاستمالة قلوب بدو الصحارى من إسماعهم الشعر، أنا أحفظ منه الكثير».

قلت بفتور: «وهل تستوعب معناه؟». عاد برأسه للوراء وقال: «يكفيني أني ألقيه جيدًا». وضاقت عيناه: «وسترى أثر ذلك بنفسك». وكانت جملته نهاية حديثنا.

وحينما سحبت فوق وجهي الغطاء فيما أرقد فوق الرمال الباردة، ساورني تشاؤم طاغ...

وقلق عميق.

***

الرمال كشظايا دقيقة من الزجاج في احتكاكها ببشرتي فيما نخوض في البيداء. أنام غير آمن من الأفاعي والعقارب، لطالما يراودني سؤال كطنين نحلة تطن في سكون الصحراء السرمدي، ماذا أفعل هنا؟!

هل أنعم عليَّ القدر بقضاء عامين من الرغد في القصور الخديوية السنية، لأهيم في هكذا صحراء آخر المطاف؟!

بدأت أشعر أن منبتَيْ فخذيَّ يحترقان! الجلوس فوق الإبل لمدة طويلة غير مريح بالمرة، الاهتزاز والتأرجح، الرمال الساخنة الهائمة في الهواء، السكون الرهيب الذي يغلف كل شيء. مع ذلك، الصحراء سرعان ما تردك فورًا لتثمين كل شيء اعتدت وجوده سلفًا، لتعلم وأنت في قلب الصحراء، كم ما ألفته سلفًا، ثمين ومُقدر!

إنزو مقتضب الحديث، والبدويان المرافقان لنا أصمت من صخرة، فضلًا عن أوامر وليام بألا أتكلم العربية أبدًا. الماء قليل، والأكل يابس بلا طعم. أفضله القديد، وهو اللحم المملح، هو هنا وجبة أساسية؛ لكنه في المحروسة لا يكون لي أكثر من فاتح شهية!

أحاديثي القليلة مع إنزو كانت كافية لاستنباط أولي لشخصيته. الرجل مفتون بالمال جدًّا، هذا غريب بالنسبة لسنه، لا أحب أن أكون كذلك وأنا في مثل سنه، هذا مفزع! لا أحب أن أسعى وراء المال وأنا فوق الستين! الرجل أخبرني أن لديه أولادًا في سن صغيرة، هل يعني ذلك أن الزواج والإنجاب يثقل المرء في كهولته؟! يبدو أن البيداء بدأت تدير رأسي، إن كان يجب أن أشغل رأسي بشيء، فلا توجد من هي أجدر من آرلين... ترى، ماذا تفعل الآن؟

سمعت البدوي يتمتم لغلامه باقترابنا من الإسماعيلية، الاتجاهات عميت عليَّ منذ مدة، الجبال على يميني والقناة على يساري، ونحن نسير على مبعدة من كل منهما. أوقفنا إنزو وانزوى بي، وبدأ يشدد عليَّ بلا مقدمات: «بدءًا من هذه اللحظة أريد منك التركيز الشديد سنيور فانتينو، أدنى خطأ سوف يكلفنا حياتنا».

نظرت إليه بعبوس، كم أتمنى لو أغمض عيني وافتحهما لأجد هذه المهمة البغيضة قد انتهت! قلت له بنبرة فاترة: «دوري بالذات سهل جدًّا، ليس عليَّ سوى الصمت».

أومأ الرجل برأسه راضيًا، وقال: «نعم، كل ما أرجوه ألا أنشغل بغسل أخطائك. أريد التفرغ لمهمتي»، وشرد لحظة في الفراغ ثم قال: «سيستضيفنا الشيخ سليمان، هذا الرجل كبير هذه المنطقة، صيد ثمين، بلغت قوته أنه هو الذي يمنع الأعراب من مهاجمة قوافل الحج التي تسافر من مصر سنويًّا».

قلت: «وما شأنك معه؟».

قال: «تقديم تعريف لطيف لشيء بغيض». وأخرج شيئًا من جيبه

وجعل يلوكه، هو التبغ على الأرجح. لم يمنعني هذا من سؤاله: «لم أفهم!». قال بلا اكتراث: «عن الخيانة أتحدث». حملقت بوجهه، أردف: «يجب أن أظفر بموافقته على حماية قناة السويس من أي محاولة لعرابي لإغلاقها. هذا بمثابة خط أحمر لدى البريطانيين».

«وكيف ستقنعه بذلك؟».

افترَّ ثغره عن ابتسامة مشفقة: «المال طبعًا»، وحرَّك أصابع يده كأنما يعد مالًا: «البدوي يُشترَى بجنيه واحد أو اثنين، ثلاثة جنيهات إنجليزية على الأكثر».

قلت: «وهل تتوقع منه أن يتصدى لجيش عرابي؟».

قال بلا مبالاة: «عرابي مشغول حتى أذنيه في كفر الدوار، والإنجليز يستعدون لمعركة كبرى في أكثر من نقطة». وقال مبتسمًا: «ليس من بينها قناة السويس؛ لأنهم بالفعل يجرون ترتيبات حاذقة، نحن أحدها».

لم أفهم، فشرح لي متطوعًا: «البدو ليسوا أهل حروب مباشرة؛ لكنهم أهل كر وفر، حرب عصابات، خطف وتخريب، هذا جل ما نريده منهم».

في هذه اللحظة أتي دليلنا البدوي، وقال لإنزو: «شيخ القبيلة أذن لكم بالدخول». تصلبت ملامح إنزو وقال لي: «يتوجب علينا التحرك الآن».

عدنا نمتطي إبلنا، كانت مرتي الأولى التي أدخل فيها لقبيلة بدوية، ومع ذلك، كان حديثي مع إنزو قد أغشى روحي بقطع من الليل مظلمة!

صباح اليوم التالي دخلنا منطقة مؤنسة بالبشر، منطقة عامرة بالأعراب تحت حكم شيخ قبيلتهم، ضاع من ذاكرتي اسمُها؛ لكن إنزو أخبرني أن هذا الشيخ هو الذي تتفق معه الدولة المصرية وتنقده مبلغًا مُعتبرًا سنويًّا

مقابل حماية قوافل الحجاج التي تخرج من مصر. وهمس لي واصفًا الشيخ بنبرة ذات مغزى: «هذا صيد ثمين لعين».

إنزو قدم لهم نفسه باسم سبأ أفندي، واضح أنهم يعرفونه بهذا الاسم، الألطف في الأمر أنهم يظنونه مُسلمًا. ولفت نظري أنه لم يضيع وقتًا، جعلت أرقبه وهو يطيل الثناء ويكثر من عبارات التفخيم على شيخ القبيلة، وحكمته، وبصيرته الثاقبة. حدثهم إنزو بعربية لا بأس بها، الأرجح وجدها أهل القبيلة طريفة، إما بسبب لكنة إنزو، أو بسبب أنهم يسمعونها من فم رجل أوروبي. انطلق إنزو يصدح ويصدح بأبيات شعرية من أشعار أبي العتاهية، والفرزدق، والأعشى، وغير ذلك ممن نسيت أسماءهم، والشيخ وجماعته مُنصتون مبهورون. في جلستنا تلك، وبعد أن تناوبت علينا بكارج القهوة من فوق الحطب المشتعل، قدم لنا شيخ القبيلة ما بدا في نظره وليمة نفيسة؛ إذ رُصت الأواني النحاسية الكبيرة فوق السجاد البدوي، ثم وُزعت علينا قطع صغيرة من خبز منتفخ يفح سخونة، فيما يقول برزانة ونظراته تدور في وجوهنا: «اللبة تمثل عهدًا وميثاقًا، من أكلها لا يخون. ومن أكلها يبقى زين وأمان».

وتطوع رجل على يمين الشيخ فقال: «هذه الأكلة موجودة في سيناء منذ قدوم سيدنا موسى -عليه السلام- إلى سيناء، قد عرفها أهل الطور أولًا؛ ثم انتشرت منهم إلى باقي أرجاء الصحارى»، وأشار للخبز الذي يوزعه الشيخ وقال: «هذا نفسه ما قدمه سيدنا شعيب -عليه السلام- إلى سيدنا موسى. له مذاق لا يبارى، ذوقوا بأنفسكم».

كانت اللصيمة أو «اللبة» عبارة عن خبز، لذيذ المذاق حقًّا، فوقه

«العجر» وهو بطيخ مشوي، مكسو بقطع الطماطم، والفلفل البلدي، وكل ذلك يسبح في بحور من زيت الزيتون الساخن.

ليست وجبة واعدة، ولكنها ملأت بطني، وبشكل ما؛ شعرت بها تبث الصحة في كل جسمي.

وبعد أدوار شاي مميزة المذاق، وقبيل الغروب، ورياح باردة امتزجت مع الرمال التي نضحت سخونتها تحت السجاد اليدوي الذي نجلس فوقه، قال إنزو بعربية شامية لا بأس بها: «هذه المرة أنا رسول لطلب مقتضب جدًّا».

هز شيخ القبيلة رأسه ببطء أن تابع، فقال إنزو: «العاق عرابي يريد قطع أرزاق الجميع وإشاعة الفوضى في أرجاء المعمورة، يخطط لردم قناة السويس».

اعتدل شيخ القبيلة: «العاق؟!».

أكد إنزو: «نعم، ألم تعلم أن الخليفة العثماني، خليفة المسلمين، أصدر فرمانًا بعصيان عرابي؟».

بدا الانتباه على وجه الشيخ، فيما ساورني الذهول، هل إنزو صادق أم كاذب؟ حتى ليلة اختطافي لم أسمع بهكذا قرار».

وشدَّ الشيخ جذعه: «ما دام خليفة المسلمين يرى عرابي عاصيًا، فقط سقطت كل اعتباراته أمامنا».

قال إنزو بقلق: «اعتبارات من؟ السلطان العثماني؟!».

«بل عرابي»، قال الشيخ حازمًا.

عاد الارتياح لقسمات إنزو، وتابع: «أنتم معنا إذن لحماية قناة السويس من عرابي ورجاله؟». استرخى الشيخ في جلسته: «هذا مرهون بشيئين».

إنزو: «لن نختلف بشأن المال. ما الأمر الثاني؟».

اشتدت قسمات الشيخ: «ثلاثة من كبار رجال قبيلتي التياهة والترابين، رهن سجون غزة والقدس، هذا أمر غير محتمل وغير مقبول».

إنزو قال واثقًا: «فلسطين ترزح تحت الإدارة العثمانية بشكل مباشر؛ لكن لسفير إنجلترا في العاصمة العثمانية نفوذ كبير، ثق أن قرار الإفراج عنهم سيكون ممهورًا بتوقيع لن يقل عن الصدر الأعظم».

لمعت عينا الشيخ وارتعشت يداه، خرج صوته متهدجًا: «إن فعلت؛ فإني كفيل بجعل كل البدو ينضمون إليك».

وقبل أن ننام، كان إنزو - أو سبأ أفندي كما يعرفه بدو سيناء- قد سطر رسالة ما، وأصر على أن ينطلق بها أحد البدويين المرافقين اللذين وضعهما النقيب وليام تحت إمرتنا، لينطلق بالرسالة في جوف الليل. الأرجح ستتسلمها جهة ما، ستتولى إيصالها إلى إسطنبول رأسًا.

وغفوت على تضرعي المتواصل أن تصمد إسطنبول، وترفض طلب السفير البريطاني!

***

في صعودنا شمالًا، لاقينا قبيلة أخرى وشيخًا آخر، قال لي إنزو إن هذا هو الذي يزود بعثات الحج المصرية بالإبل. وواصل الداهية الإيطالي فقرات المداهنة نفسها؛ هدايا، كثير من المدح والتفخيم، إنشاد أبيات شعرية لفطاحل العرب القدامى، كثير من الانبهار يرتسم على ملامحهم

عند هذه الفقرة بالذات. ثم تكون المأدبة، ويليها يقوم إنزو بتسويق ما سمَّاه على حد قوله «تقديم تعريف لطيف لشيء بغيض».

كنا في ضيافة الشيخ سعود الطحاوي، بدا لي هذا الرجل أمكر من غيره. وبينما نحتسي الشاي في خيمة لطيفة الهواء قرب المغرب، ألقى إنزو ما في جعبته من طلبات. مسد الشيخ سعود لحيته الشيباء متوسطة الطول، وقال: «أتعلم أن عرابي أبرم اتفاقا مع ألفين من خيالة بدو النيل للحضور للقناة؟ حتمًا هذا لغرض».

بدا التوتر على إنزو: «هذا متوقع. وهو أدعى لتسريع قبولك حماية القناة في كافة مناطق نفوذك».

صمت الشيخ سعود الطحاوي وهو يرمُقنا بنظرات كالصقر، ثم قال: «إن دفعت المال المطلوب، فبوسعي صرفهم جميعًا فور مقدمهم، بما لي من نفوذ».

سأل إنزو: «وإن تلكعوا أو تقاعسوا؟».

قال الشيخ سعود بجدية تامة: «وهل تظنني سأطلب الطلب هكذا شفاهة، أو في رسالة؟! ما كنت لأطلب طلبًا كهذا إلا وفي ردف الرسول ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل من التياهة والترابين. لبعث الرهبة في نفوسهم، أو لقتالهم إن استدعى الأمر ذلك».

بدأت تهدأ ملامح إنزو، وقال: «اتفقنا، ولديك خمسمائة جنيه ذهبي إنجليزي مقابل المهمة».

قال الشيخ سعود: «تلك الخمسمائة ستكون لي وحدي، أما العشرة آلاف رجل الذين سأحشدهم، فسيكون ذلك مقابل عشرين ألفًا من الجنيهات الذهبية الإنجليزية».

تغضنت ملامح إنزو: «كم؟!». قال الشيخ سعود: «ما خطبك؟! جنيهان فقط للرجل، هذا ثمن بخس إن أردت رأيي»، ودمدم مستاءً: «سأحشد لك عشرة آلاف رجل، هل تستهين برقم كهذا؟! إنه ثلث الجيش الإنجليزي المُرسل إلى مصر».

شعرت بالدهشة، هل الرقم الذي ذكره الشيخ صحيحًا؟ وأنى له العلم به من الأصل؟! وقال إنزو بنبرة هادئة: «اتفقنا، لحسن الحظ إن ما طلبت هو كل ما معي الآن، على أن تنفذ وترسل رجالك فورًا».

واتفق الرجلان، لم أستغرب حينما رأيت إنزو يخرج الجنيهات الذهبية من حزام جلدي عريض ملتف حول خصره. وبينما نغادر القبيلة كان الرجل كالمكروب.

في تمايل النوق بنا استغرقني التفكير، حتى الآن لا يبدو لي الرجل كلص يبغي الاختلاس من الإنجليز، بأكثر من رجل يريد إنهاء مهمته بأقصى سرعة ليقبض مكافأته وينتهي من كل ذلك. لكن، لا يزال الجزم بشكل نهائي سابقًا لأوانه.

وتذكرت آرلين، ترى ماذا تفعل الآن؟ هل هي قلقة لغيابي؟ منذ زمن لم أرسل إليها خطابات. وعرابي ورجاله، ومعسكر كفر الدوار، ترى ما الذي آلت إليه الأمور الآن؟ آه يا عرابي، لو تعرف كيف يفكر الإنجليز؟ لو تعرف عدد أذرعهم المتعددة في كل مكان كأم أربعة وأربعين؟!

وقطعنا بضع ساعات في البيداء. عند نقطة بعينها جوار شط القناة، توقفنا لنجد قاربًا إنجليزيًّا في انتظارنا، عبر بنا للشط الآخر، كان إنزو قد ذكر شيئًا عن لقاء مع شيخ قبيلة بوادي طليمات، لمحت المندوب

الإنجليزي يسلم إنزو حزامًا جلديًّا جديدًا، حتمًا يعج بالجنيهات الذهبية هو الآخر. كان إنزو صادقًا إذن حينما قال بنضوب ما معه من مال.

حينما نزلنا من القارب وواصلنا طريقنا كان الحزام الجديد قد أخذ مكانه حول خصر الإيطالي. لا أعلم لماذا تضاعف شعوري بالخطر، اختراقنا للصحراء ومعنا مبلغ كهذا، ولا يحرسنا سوى دليل بدوي هزيل وتابعه. يبدو هذا أشبه بنداء لكارثة.

هل يتبعنا الإنجليز؟ هل يحرسوننا عن بعد؟

أتعشم.

***

أنهينا مهمتنا سريعًا مع شيخ وادي طليمات، ألمح إنزو إلى نيته لقاء وفد من بدو أبناء علي. ما أعلمه أنهم لا يتوغلون أبعد من محافظة البحيرة، مع ذلك عدنا إلى طريقنا بصحبة أربعة من البدو هذه المرة، يحرسوننا إلى أن نعبر للضفة الشرقية للقناة. توقفنا للغداء الذي لم يزد عن بضع تمرات، وقطعة من اللحم المقدد. حدثني إنزو عن سعادته بقرب إتمام المهمة، وتطلعه للعودة لجامعة كامبريدج مدرسًا للغات الشرقية.

كانت هذه المرة الأولى التي أعلم فيها أنه مدرس جامعي. حاولت تلمُّس آخر أخبار معسكر كفر الدوار؛ لكن لا سبيل لذلك، وأوامر النقيب وليام مشددة، لا حديث لي بغير اللغة الإيطالية. كنا قرب مسيل بوادي سدر، وبينما نتهيأ للقيام لاستئناف طريقنا، فوجئنا بغبار كثيف تثيره جياد قادمة. انتقلت لي عدوى التوتر من إنزو، نظرت تجاه رفقائنا الأربعة من البدو فوجدتهم على وقفتهم المرتخية. وصلت إلينا الجياد وركابها المُلثمون. وشت ملابسهم بأنهم من الأعراب. خاطبونا بخشونة فظة:

«اجثوا على ركبكم!». زاغت عيناي وأنا أطيعهم، هل هم قطاع طرق؟! امتثل إنزو، كان بوسعي رؤية كفيه المرتعشتين. عدت أنظر لرفقائنا من البدو، فوجدتهم قد جثوا على الأرض منذ زمن، تعجبت لعدم مقاومتهم. اقترب أحد الملثمين من إنزو وخلع عنه جلبابه في فظاظة، خطف منه حزامه الجلدي الممتلئ بالجنيهات الذهبية الإنجليزية. صرخ إنزو مُلتاعًا. قال من بدا أنه زعيم الملثمين: «ابدؤوا بقتل الإيطالي ورفيقه، ثم البدو الأربعة».

أرتج عليَّ الأمر، لم أصدق أذنيَّ! هل حقًّا هذه ساعة قتلي؟! أين الإنجليز؟ لماذا لا يتدخلون؟

وأبصرت أحد الملثمين يشهر بندقيته الطويلة تجاهنا، يصوب، ثم يجذب الزناد.

ودوت في الأنحاء أصوات الرصاص.

***

انتفضت مذعورًا متواريًا وراء إنزو، سرعان ما تبينت أن الرصاص لم ينطلق من الملثمين، بل من دورية خيل مصرية!

قبل أن أفرح، أو أصيح مستنجدًا، كان الملثمون قد سارعوا بإطلاق النار علينا!

صرخت ملتاعًا، شعرت بالدماء الساخنة تغمرني، وجدت نفسي أهتز بعنف لثوانٍ، ثم خمدت حركتي.

مع ذلك بشكل ما، ما زلت أسمع دوي رصاص، ثم سمعت صوتًا يقول: «أظنهما ماتا، هيا بسرعة قبل مجيء دورية جياد الشرطة المصرية، بوسعنا تجنب الاشتباك إن فررنا الحين».

لا ريب أني أحتضر، مع ذلك لم أجرؤ على رفع جفنيَّ أو التحرك قدر شعرة، لا أدري كم لبثت هكذا؛ لكني تشنجت أكثر مع ربتة من أحدهم، تعمدت عدم الحركة، سمعت صوتًا يقول: «أحدهم مات يا أفندم، والثاني غرقان بالدماء لكنه يتنفس».

أفندم! البدو لا يتحدثون هكذا، ناهيك أن تلك ليست لكنتهم! ثم... الثاني! هل يقصدني أنا؟!

وفتحت عينيَّ رغمًا عني، فإذا ثلة من الرجال يرتدون ملابس الشرطة المصرية ينظرون مترقبين. صاح أحدهم: «لقد أفاق». انتصب ظهري في بطء، هل نجوت؟ ما كل هذه الدماء التي عليَّ إذن؟! نظرت إلى ظهر إنزو، أو جثته بالأحرى، كانت كأنما تحولت لغربال! تلفتُّ حولي، لا توجد جثث البدو الأربعة، هل فرُّوا؟ أم كانوا متواطئين مع البدو الملثمين من الأصل؟ لن أعلم ذلك الآن أبدًا، ولا يهم، ما يشغلني الآن؛ هل سأعيش لأعلم؟

***

(19)

شعرت أنني أستعيد وعيي تدريجيًّا، بقي جفناي مُنسدلين، لم أقوَ على رفعهما، رائحة الكحول أول ما ميزته، إحساسي مؤلم بظهري، ما أرقد عليه غير مريح بالمرة، أصوات متداخلة خفيضة ذات وقع رنان كأننا في قاعة فسيحة.

إنزو! الملثمون! ضرب النار!

هلع قلبي، وثبت لذهني الذكريات المريعة، هل نجوت؟!

وانفتحت عيناي دفعة واحدة!

فوجئت برجل ذي ملامح أوروبية يركز نظراته باتجاهي، إنه وليام! حاولت الاعتدال؛ لكن صرخ جسدي ألمًا.

«لا تبالغ مستر مظهر، أنت لم تُصب بخدش»، قال وليام.

تحسست جسدي كأنما أتأكد، تابع وليام: «اختباؤك وراء إنزو جعل كل الرصاصات من نصيبه، قضى في الحال».

استغربت: «ولكن، آخر ما أتذكره ملابسي الغرقى بالدماء».

«دماء إنزو على الأغلب»، تمتم وليام، ثم أردف: «رصاصات الملثمين طاشت بسبب مجيء الدورية المصرية، توترهم وسرعتهم في الهرب حال دون تأكدهم من قتلكما. لم يتأكدوا سوى من سرقتهم للجنيهات الذهبية الإنجليزية».

قلت: «ومن هم؟ هل تم القبض عليهم؟».

تجاهل وليام الإجابة، وسألني: «قل لي بالضبط ما جرى في اللحظات الأخيرة؟». قصصت عليه، بدا عليه الامتعاض بعدما انتهيت، لم يزد عن قول: «المهمة تمت على كل حال». ونهض قائلًا: «لا يجدر بي البقاء أكثر من ذلك».

سألته: «هل ستظهر لي مرة أخرى؟». سبرني بنظراته: «نحن على وعدنا، منذ لحظة اتفاقنا، وقد صرت محل عناية التاج البريطاني، سنصعد بك في القصر الخديوي، مسيرتك المهنية صارت محل عنايتنا».

حافظت على ثبات ملامحي: «ومكافأتي المالية؟». بدا التردد على ملامح رجل الاستخبارات الإنجليزي، ثم دس يده في جيب بنطاله، وناولني رزمة ثخينة من المال. أولاني ظهره، استوقفته: «ووعدك بالكشف عن حقيقة أصلي؟».

قلت العبارة بجهد جهيد، في الحقيقة لم أكن أريد أن أعلم. لا أريد فتح باب لا أضمن ما وراءه. تمنيت لو يتملص أو ينكر كلامه؛ لكنه أشار لطرف سريري: «هنا تجد كل شيء». وابتعد.

وضعت يدي على يساري، وجدت ملفًّا مغلقًا بإحكام. فضضت الغلاف في تساؤل ووجوم، أشعر بضربات قلبي القوية.

لم أعلم حينها أن بفتحي الملف سأكون كمن فتح صندوق باندورا.

***

لم أشعر كم مضى عليَّ من وقت، الأوراق قليلة؛ لكنها مسحت أركان حياتي في طرفة عين!

عمَّاي ليسا بعمَّيَّ! هما ليسا من أقاربي أصلًا، وأنا لدي كل هذه الأملاك؟ لكن أحقيتي فيها شيء، وعودتها لي شيء آخر!

أنا... ابن أمير مملوكي؟ محمد بك الألفي جدي الأكبر؟! وتذكرت كاظم باشا السلحدار، وما قاله بالحفل عن عداء محمد علي شخصيًّا له، وسعيه الدؤوب لقتله!

كنت ذاهلًا، أشعر بوجهي يفح سخونة، الدنيا تدور بي، أفقت على صوت قادم من بعيد، مألوف النبرة: «ما وردني صحيح إذن؟!».

التفتُّ لمصدر الصوت، عبد الله النديم! نحيت الملف جانبًا كابحًا ذهولي. سيطرتُ على ملامحي والنديم ينكب يعانقني: «لم أصدق التقارير الصحفية التي تأتي عن مصابي المستشفيات، استغربت اسمك قبل نشره في الجريدة، لم أنشره، قلت آتي لأتأكد بنفسي».

وضحك: «اسمك مميز جدًّا، مظهر شقير، لافت للانتباه». رددت وقد عاد لي شرودي: «اسمي...»!

بادرني النديم: «حقًّا! ما الذي جعلك على هذه الحالة؟».

أشحت بنظراتي بعيدًا، وقلت باقتضاب: «لدي الكثير لأقوله؛ لكن ليس الآن، حالما أقابل عرابي».

وبدا كما لو التقط النديم طرف عبارتي، ليسهب في سرد ما فاتني: «إن كنت لا تعلم، سقطت السويس في الثاني من أغسطس في يد إنجلترا، ورُفع عليها العلم البريطاني، والحجة المعلنة: إعلان ولاء المدينة للخديوي توفيق».

تساءلت: «وكيف ذلك؟». قال النديم: «حصل الأدميرال هوسكنز من توفيق على تفويض صريح بالعمل الحربي بالمدينة. وحينما رفض محافظها الانصياع للإنجليز؛ تم الضغط عليه للتسليم، لينصاع في النهاية، ويغادر إلى القاهرة».

تذكرت سفن الإنجليز الحربية ومن عليها من جنود هنود، في توقيت مقارب. أفعمني شعور بالأسى، فيما يتابع النديم: «شركات التلغراف الفرنسية في السويس، تم إعطاب معداتها وبات لا يمكنها إرسال أية تلغرافات». شعرت بغصة مريرة مع قوله، لا يعلم أنني أعلم هذه المعلومة علم اليقين. استرسل النديم: «مؤتمر الآستانة، إنجلترا ضغطت ونجحت في تمرير قرار بإرسال قوات عثمانية إلى مصر، لاستعادة مصر من الفوضى».

قلت: «من الإنجليز؟».

هز رأسه نفيًا: «لا، بل من عرابي»، واستطرد: «بحسب ما ورد في الصحف الأجنبية، كان قرار بريطانيا تخيير الخليفة العثماني، إما إرسال قوات عثمانية إلى مصر تعيد السلطات للخديوي، أو أن تتخذ هي ما يتراءى لها من إجراءات، تحقق ذات الغرض».

غمغمت: «يريدون تهيئة الواقع الدولي لتقبل فكرة وجود قوات عسكرية داخل البلاد، تمهيدًا لتقبل الوجود البريطاني في مصر لاحقًا».

ارتسمت الدهشة على وجه النديم: «مُدهش! هذا نفس رأي الأميرالاي البارودي!». ثم قال مُمتعضًا: «وليس هذا كل شيء، هناك الأسوأ».

رمقته بنظرات واهنة، كنت قانطًا مرهقًا من كل شيء، إلا أني كنت كذلك على قدر من التساؤل، وقال النديم: «خرج عن المؤتمر قرار عن الخليفة العثماني، باعتبار عرابي متمردًا». اعتدلت في جلستي، فيما يستطرد النديم: «هذا أزعج جميع قادة المجلس الحربي، الجنود شأنهم شأن الشعب المصري، رغم كل شيء مرتبطون بحكم العاطفة الدينية بالخليفة، وقرار

مثل هذا يمس عقيدتهم العسكرية، وقد يرون عدم أحقية عرابي في متابعة تنفيذ أوامره، بعد قرار الخليفة الإسلامي».

غمغمت: «إنجلترا لا تلعب»، ثم ومض بذهني معسكر كفر الدوار، فبادرته بالسؤال عنه، لمعت عيناه، أجاب: «الوفود من كل الطبقات لا تنفك عن القدوم على عرابي، الجميع يعامله كأنه المنشود المنتظر، الكل يريد شرف المشاركة. تخيل أن بعضهم حمل التراب رمزًا لمشاركته في الخنادق. كم من الأعيان زاروا كفر الدوار للتأييد والمساندة؛ فخري باشا، أحمد باشا نشأت مدير الدائرة، أعضاء المحكمة الوطنية، القضاة الوطنيون، نائب المدعي العام في المحاكم المختلطة، عثمان باشا فخري، رؤوف باشا، عرفي باشا، مفتي إسطنبول، كثير من وجهاء المغاربة، أساتذة الأزهر، الدرملي باشا، حسن العقاد، حتى أُسرة رياض باشا أتى منها الكثيرون، تخيل؟!».

ومضت بذهني صورة رئيس النظار الأسبق الداهية، فيما النديم يتابع: «زارنا كثير من العُمد وأصحاب الأملاك، على رأسهم الشهير أحمد بك المنشاوي الطنطاوي. عدد منهم تبرع وحده بعشرة آلاف من الجنيهات! كلها ذهبت للحكومة بالقاهرة، ولم يصل لمعسكر كفر الدوار سوى تبرعات عينية، من إمدادات وتموينات من قمح وفاكهة».

كنت أستمع وبداخلي مشاعر متداخلة من البِشر والشجن، واسترسل النديم: «قبَّل الزوار عرابي وعانقوه، وشكروه معبرين عن امتنانهم لأنه أمسك بيديه قضية الإسلام والأمة. أطروه بأنه أول وطني حقيقي في أرض النيل. وكان عرابي يرد: (نحن لا نريد شيئًا سوى العدالة للجميع، وتأمين حياتنا وممتلكاتنا وحقوقنا، وبرلمان مستقل منتخب انتخابًا حرًّا،

ونظارة مسؤولة، وخديوي متقاعد بلا حكم. واقتصاد صارم قوي. الجيش لا يطمع في أي سيطرة سياسية، كما يردد المغرضون، فقط لا نريد أجانب على رأس وزارتنا بأجور ضخمة. مصر للمصريين؛ لكن الحرية والحماية للغرباء طالما خضعوا للضرائب نفسها مثلنا)».

تخيلت عرابي بنبرته العميقة وحضوره القوي وهو يلقي هذه الكلمات، فيما يردف النديم: «أما على صعيد المعارك، فعلى مدار الفترة الماضية، أخفقت إنجلترا بجلالة قدرها في تجاوزنا، حاول ليوتنانت جنرال (كارنت ولسلي) في البداية أن يصل القاهرة مباشرة من الإسكندرية. إلا أن عرابي قام بنشر قواته في كفر الدوار بين القاهرة والإسكندرية وأعد دفاعات قوية، لتواجه القوات الإنجليزية التي تحركت من الإسكندرية في مقاومة عنيفة. معظم جيشنا في كفر الدوار، بقيادة طُلبة عصمت، معه مدفعية الميدان والعربان الوطنيون على خيولهم. سقط الآلاف من أبناء البحيرة شهداء. وبعد قتال عنيف خسرت بريطانيا وأسر المصريون الكثير من قواتها، ما أجبر الجنرال أليسون على الانسحاب للإسكندرية، بعد الإخفاق في دخول مصر من جهة الغرب».

نهضت عن فراشي، شعرت بالخجل أن أظل على سريري وكل ذلك يجري، سألني النديم عن نيتي، أخبرته بذهابي لكفر الدوار، فدعاني للتريث، وجلس إلى حافة الفراش، واضعًا ساقًا فوق أخرى: «كانت خطة عرابي إطالة أمد الحرب إلى أبعد وقت، أملًا في إجبار أوروبا في النهاية على التدخل، ومحاولة التوصل إلى اتفاق معه».

قلت: «أفهم من كلامك أن الخطط تغيرت!».

قال: «تواترت الأنباء للمجلس الحربي بتحريك خمسة عشر ألف جندي من القواعد البريطانية في مالطة وقبرص، بالإضافة إلى خمسة آلاف من الجنود السيخ من الهند، باتجاه مصر، هذا يجعل تعداد الجنود البريطانيين في المواجهات المقبلة نحو ثلاثين ألفًا».

جمجمت متسائلًا: «يعني...».

«يعني أن ثمة مواجهات عسكرية طاحنة على وشك الحدوث»، ثم قال بنبرة مداعبة: «هل تعلم أن بذلك يكون عدد القوات البريطانية، هو ذات عدد القوات الفرنسية في حملتها على مصر قبل خمسة وثمانين عامًا؟».

قلت عابسًا: «هل يعني هذا أن أتفاءل أم أتشاءم؟».

تجاهل النديم تعقيبي وهو يقول: «بعد رصد تحرك السفن الإنجليزية شرقًا تجاه بورسعيد، وجنوبًا إلى قناة السويس، يتوقع جيشنا انتقال القتال ليحاولوا دخول القاهرة من جهة الشرق، بعدما فشلوا من جهة الغرب. لذا؛ إن أردت رؤية عرابي، فعليك الذهاب إلى التل الكبير، حيث يتوقع وصوله إلى هناك في أية لحظة».

أومأت برأسي موافقًا، وقلت: «هذا يعني وجوب ردم قناة السويس حالًا!». عبس النديم: «هذا ما كانت المناقشات محتدمة حوله، حينما غادرت كفر الدوار عائدًا للقاهرة».

قلت قلقًا: «وإلام كانت النتيجة». ساعدني النديم على النهوض قائلًا: «هذا ما سنعلمه، حينما نصل إلى التل الكبير».

***

لم أنشغل كثيرًا بوجوب الذهاب للقصر الخديوي في الإسكندرية، أخشى أن يتراجعوا ويتمسكوا بي هناك. لا أريد القبوع في القصر الآن، على الأقل ليس والإنجليز منتشرون فيه. إن احتاجوني فعلًا فلن يعدموا وسيلة لاستدعائي. لذا؛ قررت البقاء في جوار عرابي، حتى يحصل ذلك.

قبل ذهابنا إلى التل الكبير، اصطحبني النديم إلى جهة قال إنها مفاجأة، حينما دخلنا للعباسية اندهشت، حتى دلفنا لمبنى وزارة الحربية، هناك وجدت الأميرالاي علي فهمي يدور من وراء مكتبه ليعانقني بحفاوة: «أهلًا بالغائب الغامض»، أشار النديم إلى أن فهمي أصر على رؤيتي حالما علم منه بوجودي. كنت قد علمت بتعيين علي فهمي قائدًا للجيش الذي يحمي القاهرة، وبادرت فهمي قبل أن يسألني: «فترة غيابي ثرية وحافلة بالمعلومات، لدرجة أنني لا أريد قص ما لدي سوى مرة واحدة».

قال علي فهمي باسمًا: «أخبرني النديم عن ذلك، على كل حال ثمة اجتماع سيجمعني بعرابي بعد يومين، محتمل نجتمع في القصاصين، حيث أرض المعركة المقبلة، كما يتوقع المجلس الحربي».

قلت مترددًا: «لقد سمعت أشياء عن قناة السويس، وأنها معبر القوات الإنجليزية خلال الأيام القادمة».

زفر فهمي: «هذا موضوع ليس بالبساطة التي قد يبدو عليها». وجلس واضعًا ساقًا فوق أخرى: «على كل حال، لقد ردم جيشنا بالأمس ترعة ماء عذب جوار القناة».

كررت: «ردمنا ترعة ماء عذب!».

قال: «كشافو حرس الجيش المصري المتقدم عند جناح الشلوفة، جوار منطقة القشرة، اكتشف بعض الجنود الإنجليز الذين فتحوا النيران

آنيًّا على الجنود المصريين، فبادلناهم النيران، وقع اشتباك قصير استمر لعشر دقائق فقط؛ لكنه كان كافيًا لينتهي بفرار جند العدو إلى بركة القارب. ولكن جنودنا البواسل أسروهم واقتادوهم إلى جناح الشلوفة. تخيل؟ كان بصحبة جند العدو مائة وثلاثة وثلاثون رأسًا من الدواب».

اختلست نظرة للنديم، فوجدته مشغولًا بتدوين كلمات فهمي، الذي كان يتابع بفخر: «طهرنا المنطقة من أي وجود للعدو، فيما لم تقع في قواتنا أية إصابات أو جروح أو قتلى».

وأشار بسبابته: «أرجو أن يكون ذلك تحذيرًا كافيًا للإنجليز ألا يقتربوا من الأراضي المحيطة بقناتنا، ولعل ذلك رسالة تحذير لديليسبس، كي يصرف نظرًا عن التواطؤ مع الإنجليز».

قلت له: «عذرًا، لم أبارك لك على توليك قيادة الجيش المتولي حماية القاهرة». قال فهمي: «لقد أُنيط بي تشكيل جيش شرقي مقره القاهرة، مهمته الأساسية بالإضافة لحماية العاصمة؛ منع احتلال الإنجليز لقناة السويس». وضاقت عيناه: «بالإضافة للبدء في إنشاء خطوط الدفاع بالتل الكبير».

قلت: «لم أفهم من النديم سبب نقل المعارك من كفر الدوار إلى التل الكبير». أوضح فهمي: «بعد إنزال ولسلي عديدًا من المفارز البريطانية في الإسكندرية، وتحرك السفن إلى بورسعيد، ووصول قوات بريطانية قادمة من الهند في السويس، كل هذا يشي بأنهم لا ينوون الاكتفاء بهجومهم على كفر الدوار، وإنما نقل المعارك إلى الشرق، لذلك، قرر المجلس الحربي القيام بخطوات استباقية بإنشاء خطوط دفاعية جديدة على مداخل مصر

الشرقية، المتوقع الهجوم عليها، والتي ستكون من ناحية قناة السويس، على الأغلب».

نهض النديم متدخلًا في الحوار: «أخشى أن ميعاد القطار قد أزف».

نهضت بدوري، صافحت فهمي: «أتوقع رؤيتك في التل الكبير». شد على يدي، وبنبرة مفعمة بالأمل: «منتصرون، بإذن الله».

وهكذا، وبينما أتابع الأشجار والمساحات الخضراء المزروعة في مرورها السريع عبر نافذة القطار، كان شرودي يأخذني، ترى، هل ستكون فعلًا المعركة الفاصلة؛ حيث سنذهب؟

***

ما رأيته في التل الكبير خالف كل توقعاتي.

ما شاهدته هو مجرد خطوط نُقشت على الأرض الرملية، عدد العمال قليل جدًّا، تم وضع أوتاد وعلامات على التربة كإشارات تمهيدية لخطوط دفاعية مُزمع إنشاؤها على الأغلب. ذهبت وأنا أظن الدفاعات أوشكت على الانتهاء، فوجدتهم يوشكون على البدء. على كل حال لست رجلًا عسكريًّا، هم أدرى.

وشاهدت عرابي يقف في موقع بناء مقترح، يتوسط بضعة مجندين، يشرح لهم أمرًا ما. ما إن رآني حتى بش للقائي. بخلقه الدمث المعتاد، سحبني من يدي برفق إلى خيمة قماشية، لم يكتمل نصبها بشكل نهائي؛ لكن حسبها توفيرها للظل. كنت أعلم ضيق وقت عرابي، فانتهزت فرصة عدم وجود آخرين للمقاطعة، وقصصت عليه كل شيء، بدءًا من خطفي من معسكر كفر الدوار، ولقائي بوليام، وانتهاء بسرقة العربان لنا ومحاولتهم قتلي مع إنزو. كان عرابي يستمع لي بملامح مكفهرة،

لم يقاطعني مُطلقًا. بعدما انتهيت، جمجم: «كم أندهش من أداء الحكومات البريطانية، وجديتهم البالغة، وأخذهم بالأسباب. دراستهم لدقائق الأمور، ودراسة كل الاحتمالات؛ أغبطهم على ذلك بشدة!».

ذكرتني عبارته بفحوى مشابه في أحد أحاديثي مع آرلين، كان هذا رأيها أيضًا؛ لكنها عزت السبب إلى نظامهم الفكري نفسه، أكثر من قرار فردي من أي أحد. لم أخبره بما يجول بذهني، إذ قام ودار يذرع الخيمة: «أخطر ما في كلامك أنهم يرسخون علاقاتهم مع بدو الشرق بالمال وصُنع المعروف؛ لكن لو أفلحوا في إخراج شيوخ قبائلهم من سجون الدولة العلية في فلسطين، لفقدنا ولاءهم بالكامل!».

لم أجد ما أقوله، أطرقت مكتفيًا بالصمت، فيما تابع عرابي فاركًا ذقنه: «ما وردني من تقارير عن كون الاستخبارات البريطانية تستعمل مقر الشركة الشرقية للتلغراف في إرسال برقيات مشفرة إلى أوربا، كان صحيحًا إذن!»، وضرب بقبضة يمناه باطن يده اليسرى: «وأنا الذي رفضت توصية المجلس بإرسال ضباط إلى الشركة لمراقبة الأمر! متصورًا أن رفض التدخل في شؤون الشركة سيرفع من أسهم ثورتنا أمام المجتمع الدولي! تبًّا!». وأطرق برهة ثم قال: «سأخبر المجلس الحربي بما أخبرتني؛ لكن ليس الآن، لدينا جدول أعمال مزدحم سلفًا، أوله القناة وديليسبس المتلكئ. هذا الشخص غير مريح في التعامل بالمرة!».

وبدأت الخيمة تزدحم برجال الجيش، علمت مع مجيء النديم أن ثمة اجتماعًا حربيًّا مصغرًا سيجري هنا، قمت مستأذنًا في الانصراف فأجلسني النديم: «هذا ليس اجتماعًا سريًّا، وكلانا من الجماعة الوطنية».

رنت عبارته «كلانا من الجماعة الوطنية» في صدري، أنا من خاصة الرجال الوطنيين في الثورة المصرية؟

هل أنا كذلك حقًّا؟

***

لم يزد الحضور عن راشد حسني، وعلي فهمي، وأحمد عرابي، ومحمود سامي البارودي، ويعقوب باشا وكيل الحربية، اجتمعوا حول مائدة مفروشة بفرش مخملي أخضر، وبادر عرابي بالقول: «كان من المفترض حضور المهندس محمود فهمي؛ لكنه تأخر قليلًا لشأن طارئ».

وبدأ الاجتماع، والنديم مُنكب على الأوراق يدون ما يناسب النشر في صحيفته، أما أنا فاكتفيت بالسماع. كان راشد حسني يقول: «ليوتنانت جنرال (كارنت ولسلي) بعد فشله في عبور كفر الدوار، قرر التقدم إلى القاهرة من طريق آخر، اختار المهاجمة بالاستفادة من قناة السويس. لذلك كان قرار المجلس الحربي بإعاقة الملاحة بالقناة. فرديناند ديليسبس حتمًا حزر نيتنا من مراسلات عرابي معه، فلا ينفك يؤكد له أن البريطانيين لن يغامروا بإلحاق الضرر بالقناة، وأنهم سوف يتجنبون، بأي ثمن، الانخراط في عمليات متعلقة بالحرب، بل إنه أعطى كلمة شرف بألا يسمح برسو القوات البريطانية في منطقة القناة، وقد وثق به عرابي». وجال بنظراته في وجوهنا، ثم قال بصرامة: «أما أنا، فلا أرى ذلك سوى محض هراء!».

وضرب راشد حسني سطح المائدة بقبضته: «اليوم هو العشرون من أغسطس، المجلس الحربي كله -باستثناء عرابي- قرر غلق وسد القناة في منطقة بعينها بين الإسماعيلية وبورسعيد، بما يكفل إعاقة الملاحة تمامًا.

رجالنا في مواقعهم مع أدواتهم ومعداتهم، على أهبة الاستعداد، لتنفيذ المطلوب، في ليلة واحدة لا غير. فقط ينتظرون الإشارة؛ لكن عرابي يتلكأ في توقيع الأمر النهائي. نحن مستغرقون في هذا النقاش منذ أيام، المستفيد الوحيد بذلك هو ولسلي. القوات الإنجليزية محمولة شمالًا من بورسعيد وجنوبًا من السويس، إن التقت في الإسماعيلية ورست في منتصف القناة، فستكون حربنا بعدها مجرد عبث ليس إلا».

ارتفع صوت عرابي، وقال بنبرته الرخيمة وقد خالجها قدر من العصبية: «حسنًا، ما دام ذلك رأي الأغلبية؛ فهاك توقيعي».

ورأيته يمهر ورقة بتوقيعه، ليسارع أحد أفراد الحرس بحمل الورقة والخروج بها إلى الخارج. على الأرجح للتبليغ بقرار غلق القناة.

استكمل الاجتماع عقب ذلك مناقشة عدد من الأمور اللوجستية، لم أفهمها كثيرًا، ولم تعلق بذاكرتي، لذا استأذنت في الانصراف. ذهبت مباشرة للنوم، لأستريح أخيرًا بعد أيام عاصفة.

لأصحو صباح اليوم التالي، على نبأ فاجع!

***

«ولسلي احتل الإسماعيلية!».

صحوت على عبارة النديم، وهو يهزني بقوة. فركت عيني، كان النديم مُستثارًا مذهولًا: «تأخرنا يا مظهر، تأخرنا!».

قلت له: «اهدأ واشرح لي واحدة واحدة»، قال لاهثًا: «حضرت للتو اجتماعًا عاصفا للمجلس الحربي. تأخر اتخاذ قرار غلق القناة مكَّن ولسلي من الرسو بقواته من الشمال والجنوب في الإسماعيلية».

وتجرع جرعة ماء من جرة بجانبي، وقال: «البارودي يقول إن قوة الجيش الإنجليزي مع وصول تعزيزات ولسلي، بسفن حربية وصل عددها لأربعين، باتت تزيد أفراده عن ثلاثين ألف جندي. راشد حسني يقول إن إجمالي قواتنا المصرية النظامية في كفر الدوار ثمانية آلاف جندي بالكاد، مسلحة بثمانين مدفعا (كروب Krupp)، ينتشر في باقي الأنحاء نحو خمسة آلاف جندي. إجمالي القوات المصرية النظامية في كل أنحاء مصر لا يزيد عن ثلاثة عشر ألف جندي. علي فهمي يقول إن المتطوعين الجدد لم يزد زمن تدريبهم عن شهر، لذلك لا يصلحون لأي عمل من الأعمال العسكرية، سوى العمل اليدوي الخاص بحفر الخنادق».

واحتقن وجهه مردفًا: «كل البيانات تقول إن ولسلي بات طريقه للقاهرة بلا عقبات أو عوائق، باستثناء بعض الخطوط التي لم تكتمل بعد التي نبنيها هنا في التل الكبير».

تبخر عني كل النعاس، قلت منفعلًا: «هل توصلوا إلى حل؟».

نهض النديم، وقال بانفعال مماثل: «العسكريون بالمجلس يعكفون الآن على وضع خطة عاجلة بقيادة راشد حسني، لعرقلة تقدم الإنجليز في منطقة القصاصين».

قلت: «وما السبيل لذلك؟».

هز النديم رأسه: «هنا أخرجنا راشد حسني، قائلًا: (بدءًا من هذه اللحظة، ممنوع وجود غير العسكريين)».

خفق قلبي بقوة، القصاصين قريبة من التل الكبير. لأول مرة، سأشهد حربًا برية، أكون في قلبها.

***

العمل يجري على قدم وساق في التل الكبير، من موقعنا هنا بوسعنا سماع الطلقات وضرب النار في معسكر القصاصين القريب، الواقع في الشمال من موقعنا. كم وددت لو بوسعي الذهاب إلى هناك والمشاركة؛ لكني لم أحمل سلاحًا قط، أجفل من مجرد الفكرة!

الأنباء الواردة مُبشرة، ولكني شخصيًّا لم أعد أثق فيما أسمع إلا بعد السماع من شاهد عيان، وقد حدث!

أتى إلينا ظهر اليوم مجند يحمل التعيينات، انقضضنا عليه، وسمعنا منه الأخبار.

«صباح 23 أغسطس اندلع الاشتباك بين الجيشين المصري والبريطاني، الجيش المصري بادر بالهجوم هذه المرة، وفق الخطة اتخذت تشكيلاتنا شكلًا مقعرًا، أقرب للهلال، بهدف الإحاطة بالإنجليز من كل اتجاه، في المواجهة عبد الرحمن بك حسن، حكمدار الآلاى الثاني، وقائد فرقة السواري. الأميرالاي علي بك يوسف، قائد الآلاى الثالث مشاة، قائد الجناح الأيسر للجيش المصري، وأحمد بك عبد الغفار، قومندان الفرسان. هذا فيما يزحف عربان تحت قيادة محمود سامي البارودي، بما تحت يده من عربان تحت إمرة سعود الطحاوي، ومحمد البقلي، مهمة البارودي إغلاق الهلال على الإنجليز بحيث بعد دخولهم المصيدة، يطبق جيشنا عليهم من كل اتجاه». قال المجند ووجهه مضاء أمام إصغائنا الكامل. وبادرته بالسؤال: «وهل نجحت الخطة؟»، أومأ برأسه، نظرت إليه متشككًا، فقال باسمًا: «ماذا تسمي إذن اندحارهم، وطلبهم مددًا ودعمًا؟».

وحملقت بوجه مبتهجًا، جيشنا يدير المعركة بشكل علمي ومتكافئ،

وسير المعارك في صالحه، ترى، كيف هو وجه الخديوي والمهردار الآن؟ أعلم أنه راهن بكل أوراقه على الإنجليز. وتوقعت أن نسمع عن رسل يرسلهم توفيق للوساطة مع عرابي، حال استمر سير المعارك لصالحنا.

هكذا فكرت، وهكذا نمت، وهكذا سعيدًا قضيت ثلاثة أيام أطير من الابتهاج طيرًا، حتى صباح أتانا فيه ما بدد كل ذلك!

***

خرجت من خيمتي متأخرًا كعادتي، بتُّ لا أصحو سوى قرب الظهيرة. الضجيج والصياح أعلى من المعتاد، دققت النظر، فوجدت أناسًا ممددين على محفات فوق التربة، واللون الأحمر القاني يلطخ ثيابهم!

هرولت إليهم وقد تبخر النعاس عني، حاولت السؤال عما جرى لكن الجميع مشغول، لا أحد يجيبني، لمحت رجلا جاوز الخمسين لكنه متين البنيان، ويلبس زي الجيش المصري، يجلس منزويًا ناظرًا للأرض في حسرة. هرولت إليه، سألته عن هؤلاء، احتواني بنظراته المريرة ثم قال باقتضاب:

– هؤلاء! ما تراهم ليسوا سوى مجرد طلائع الجرحى والمصابين.

– طلائع! هل العدد كبير لهذه الدرجة؟ ما أعلمه أن سير المعارك مع جيشنا يمضي جيدًا.

– كان، حتى اختل كل شيء بغتة بشكل غير مفهوم!

وصمت الرجل لحظة، لاحظت لأول مرة أن يسراه ليس بها سوى أصبعين، أما بقية يده فمغطاة بالشاش، إلا أنه أردف بأسى وكأنه غير مصاب: «بالأمس، بدأنا الصباح بمعنويات مرتفعة، كيف لا ونحن ندحرهم يوميًّا في كل مواجهة، إلا أن في هذا الصباح الغريب،

بدأ القائدان راشد باشا حسني، وعلي باشا فهمي، بالهجوم على ولسلي، عن طريق الاستطلاع في البداية، ثم معاودة الهجوم بعنف. بات النجاح قريبًا جدًّا، فاجأنا العدو بأكثر من طريقة، أنا شخصيا أسرت ضابطًا بريطانيًّا كبيرًا، عرفت لاحقا أنه الدوق كنوت Duke Connaught، كان كل شيء يسير بامتياز، حتى انقلبت الحال تباعًا فجأة».

وصمت، استحثثته بنظراتي على الكلام، فتابع: «أثناء المعركة كانت أعداد قواتنا تربو عن الخمسة عشر ألفًا، أمامنا نحو ألفين وخمسمائة فقط من الإنجليز، لسبب ما علي يوسف الذي كان يقود لم يتقدم لسحق الإنجليز، على العكس، تأخر بقواته، وهو ما أتاح للبريطانيين أن يحيطوا جناحَي قواتنا. في ذات الوقت، الجانب المنوط بغلق فتحة الهلال، لتطويق القوات الإنجليزية، بقيادة محمود سامي البارودي، لم يؤدِّ الدور المنوط بها بـ...».

قاطعته مُجمجمًا: «رويدك عليَّ، لا أفهم!».

أوضح الرجل: «المخطط كان أن يتقدم محمود سامي البارودي من ناحية الصالحية ومعه ألفا رجل، لينضم إلى كل من محمود باشا فهمي ورائد باشا مع تباشير الصباح، ليقوم الجميع حينها بالهجوم على ميمنة العدو. لكن، لسبب ما، لم يظهر البارودي، ولا قواته، ولا مسعود الطحاوي ولا البقلي وعرباتهم! ما أتاح للعدو التكالب علينا!».

وصمت الرجل. حبست أنفاسي، قلت محتارًا: «أفهم من حديثك أن الأميرالاي علي بك يوسف، قائد الآلاى الثالث مشاة، قائد ميسرة جيشنا، لسبب ما ظل في مكانه بجنوده لا يتحرك ولا يتقدم، لتنكشف بذلك ميسرة الجيش، لينتهز الإنجليز الفرصة ويتقدموا من ناحيته، وتنقلب المعركة لصالحهم، بعد أن كنا متفوقين عليهم؟!».

بقي صامتا يرمقني، فقلت: «وماذا تعني بانقلاب المعركة لصالحهم؟ ما مدى الضرر؟».

ألقى عليَّ نظرة ذابلة: «لو سارت الأمور بلا تقلبات غير مفهومة كما جرى، لاختلف كل شيء، ولربما سطرنا واقعًا جديدًا»، وصمت لحظة، ثم تابع: «بعدما جرى ما جرى، ونتيجة الاختلال في تشكيل الجيش المواجه للعدو، أصيب القائد راشد باشا حسني إصابة بليغة، أقعدته عن القتال، وبعدها بوقت وجيز، لحق به علي باشا فهمي، إصابة القائدين الأول والثاني في المعركة تباعًا كانت بمثابة كارثة، انعكست على سير المعركة في الحال».

قلت: «وقوات عرابي الاحتياطية؟ حضرت حديثًا سابقًا للمجلس الحربي، أنها موجودة للمشاركة في الظروف الطارئة. ألم تحدث فرقًا؟».

قال الرجل الخمسيني: «نعم، كان يجدر أن تظهر القوات المتاحة كلها في ميدان القتال. لكن، لسبب ما، لم تظهر قوات عرابي الاحتياطية، ولم تشارك في المعارك».

وأطرق الرجل: «لم ينقضِ النهار إلا وانهزمنا هزيمة نكراء، قضيت الليل وأنا لا أصدق كمَّ الإصابات والأَسر والقتل الذي شمل كثيرًا من قيادات الجيش وجنوده!».

تمتمت وصوتي يخرج بصعوبة: «إذن...».

قال الرجل: «لم تعد ثمة جدوى من البقاء في القصاصين. المفترض ألا ينقضي النهار إلا وعرابي وما تبقى من الجيش سيكونون هنا، في التل الكبير، استعدادًا للمعركة الفاصلة».

وما إن انتهى الرجل من عبارته، حتى علا صوت نفير عسكري قادم من بعيد. نهضت قائمًا أترقب، هرعت إلى الأبواب، لأرى طابورًا عسكريًّا طويلًا، يتقدمه عرابي ممسكًا بعنان جواده.

وعلمت أن وقتًا عصيبًا يوشك أن يندلع، وأنا في أتونه!

❋❋❋

سرعان ما علمت أن الأمر أكبر مما أُعلن عنه، ثمة ارتباك حقيقي في صفوف الجيش، الوجوه كالحة والمعنويات كاسفة، وثمة شعور سائد بانفلات زمام الأمور.

كيف ذلك وقبل أيام قليلة فقط كنا على النقيض؟!

وفور وصوله، عقد عرابي سلسلة من الاجتماعات، كانت مع أعضاء المجلس الحربي. بطبيعة الحال اقتصر حضورها على العسكريين. إلا أن بعد صلاة العشاء، دعا عرابي عددًا من وجهاء المجتمع وأعيانه من الموجودين في التل الكبير للقاء مصغر في خيمته، مشكورًا دعاني كذلك، لم يزد عددنا عن عشرة فيما أتذكر، بدأ عرابي اللقاء بقوله: «حتمًا تعلمون التطورات الأخيرة التي ألمت بجيشنا، والعثرات غير الطبيعية التي تواجهنا، ولكن، هذه معركة. وما دامت بدأت الحرب، فلا نكوص ولا خذلان».

وجال بنظراته في عيون الحاضرين، وقال: «بالأمس، السادس من سبتمبر، وقع إقليم القناة بالكامل للأسف تحت السيطرة البريطانية الكاملة. لا يعني ذلك أننا استسلمنا، سيطرتهم قط لن تدوم».

قال العبارة الأخيرة بنبرة غامضة وامضة بالعزيمة، تأكدت من ذلك مع علامات الاستبشار التي نضحت بها وجوه الحاضرين، أكمل عرابي:

«بعد استبعاد قائدين بحجم راشد حسني وعلي فهمي، نتيجة لإصاباتهما البليغة في المعارك الأخيرة، كان لا بد من إسناد قيادة المعركة لقائد مخضرم لا يقل عنهما، وهو اللواء علي الروبي. مع بداية الحرب قبل شهر ونصف، تم تعيينه قائدًا لمنطقة مريوط العسكرية. صباح اليوم تم توقيع قرار استدعائه إلى هنا لإدارة المعركة، الرجل يحوز أعظم الصفات الممدوحة بما لا يمكن حصره».

وصمت لحظة ثم قال: «القوات النظامية التي معنا، مع بسالتها البالغة، تواجه أزمة غير متوقعة وغير مسبوقة. قرار السلطان عبد الحميد بإعلان تمردي وعصياني، وما يصلني من أنباء عن طبع آلاف مؤلفة من قراره وتوزيعها في كافة ربوع مصر، أثر هذا على معنويات الجنود وزعزع عزيمتهم القتالية».

قام أحد الحضور، إنه أحد الأعيان؛ لكني نسيت اسمه الآن، قال: «عرابي باشا، الجنود معذورون، الخليفة العثماني هو خليفة المسلمين، القوى الوطنية انقسمت على نفسها إزاء بيان السلطان. والجنود من ناحيتهم جل ما يحركهم الحمية للإسلام والخلافة الإسلامية العثمانية ممثلة في السلطان عبد الحميد الثاني، فإذا أصدر قرارًا بعصيان جنابك، فإن جنودنا بطبيعة الحال سيظنون أنهم هكذا سيموتون في المعارك على غير الإسلام، لن تكون الجنة من نصيبهم. وإن خرجوا منها بإصابة ما، لعاشوا مع الخزي والعار، لأنه خالفوا أوامر الخليفة الإسلامي واتبعوك. وعلمي أن عددًا من الجنود بدأ فعلًا في التقاعس، واختفت حميتهم القتالية، عن عمد، أملًا في سجنهم، لئلا يموتوا خارجين عن الإسلام غير شهداء. وهذا لا ينطبق على الجنود فقط، بل على المتطوعين كذلك».

ران الوجوم بعد كلمة الرجل، وقام أحد شيوخ البدو، قال: «القلوب مشتتة يا عرابي باشا، بحكم ما وعيته بنفسي بين شباب القبائل، العربان مضطربون، وأنتم –كحكومة– لم تفعلوا أي شيء لإنهاء هذا الاضطراب. أغلب البدو يرون في قرارة أنفسهم أنهم وحدهم المصريون، ومَن غيرهم هم وافدون أتوا إلى مصر ويتحدثون باسمها!».

أطلت نظرة حزينة من عينَي عرابي، وقال: «وقت الأزمات تظهر كل الندوب»، وصمت لحظة ثم قال: «بغض النظر عن صحة اعتقاد الجنود شرعًا من عدمه، ومع رفضي التام لمبدأ الهروب من المسؤولية، إلا أنني عرضت على المجلس الحربي أن أتنحى عن القيادة وأعود لصفوف المدنيين، ويتخيرون من بينهم قائدًا آخر، يعمل تحت إمرته الجنود؛ لكنهم رفضوا بالإجماع، خاصة مع ضيق الوقت».

قام رجل مهيب، بدا لي مألوفًا، كان أحد كبار الأمراء، قال: «ثمة إشاعات غير مريحة تنتشر في البلاد، حتمًا وصلتك، أن محمد باشا سلطان، رئيس مجلس الأمة، ينفق من ماله على ما يصب في مصلحة الإنجليز، من ذلك إنفاقه على طباعة آلاف المنشورات التي تظهرك كمتمرد».

تأفف عرابي: «لعلها كما قلت، مجرد شائعات».

قال رجل مُعمم: «سيادة القائد، المعركة الكبرى قادمة، وخيرة جنودنا مرابطون في دمياط بقيادة الأميرالاي عبد العال حلمي. وفي رشيد ترابط أورطة كبيرة تعاونها طوابير مدفعية السواحل. ألسنا في حاجة لاستدعاء كل هؤلاء إلى هنا، للمعاونة في المعركة المصيرية المقبلة».

قال عرابي بتؤدة: «مدن القناة سقطت. ودمياط ورشيد ثمة سوابق كثيرة ماضية كوجهات مفضلة للدول الأوروبية لغزو مصر عن طريقها،

ومع كفاءة من ذكرت، إلا أن بقاءهم في أماكنهم هناك واجب».

وصمتت برهة ثم قال: «ثمة أنباء بأن خليفتنا العثماني أعد قوة عسكرية عثمانية للقدوم إلى مصر، المعلن أن ذلك لإقرار الأمن، وإنهاء تمردي المزعوم. على كلٍّ؛ إن انتصرنا قبل قدومهم فلن يكون لوجودهم جدوى، وإن انهزمنا -لا قدر الله- فسيكون وجودهم دعمًا لإخوانهم المصريين المسلمين».

ونهض قائمًا ليقول: «عقب اجتماعنا هذا، ستعقد جلسات ذكر جماعية للدعاء وتلاوة القرآن، لاستحضار البركة وطلب المدد، من يريد منكم المشاركة فسيكون تدعيمًا عظيمًا نحتاجه جميعًا».

وانشغل الحضور ما بين قيام وأحاديث جانبية، أما عني شخصيًّا، فكنت من الاضطراب في غاية.

***

«هل حقًّا قواتنا تحركت لاستعادة القناة؟!». قلت في حماسة للعريف رمضان، جندي خدمة عرابي، والذي لا يفارقه.

قال: «لقد تحركت قواتنا بالفعل صباح اليوم، العاشر من سبتمبر، حيث أول ما قابلت، سلاح الفرسان الهندي. الرماحون البنغال، شكلوا جزءًا من لواءَي الفرسان تحت إمرة الجنرال (ولكنسون) ضمن فرقة الفرسان بقيادة الجنرال (دروري لو). وكانت وحدة من 30 شخصًا من هذا اللواء، في جولة استطلاعية مع العقيد (يننكتون)، حين شوهدت ثلاثة أسراب من المشاة تتقدم باتجاه المعسكر البريطاني. ووقعت بداية الاشتباك بالقرب من القصاصين».

قلت بلهفة: «إذن لديك أنباء المعارك؟!».

قال رمضان: «كانت المبادرة بالهجوم من قبل جنودنا، وقد بوغتت القوات البريطانية، استثمرنا ذلك أفضل استغلال».

«كيف؟».

«نشب قتال ضارٍ، تكبد البريطانيون فيه خسائر موجعة كبيرة».

«إذن هناك أمل في استعادة القناة؟».

«إن نجحت الخطة واستعدنا السيطرة عليها من الإسماعيلية، يكون الطرفان الجنوبي والشمالي بلا جدوى، ونكون بذلك أوقفنا القناة فعليًّا».

شعرت بالنشوة في دمي، وفي المساء، تتابعت الأخبار تباعًا:

«القوات البريطانية تعاني من نقص القوات بعد ظهور قواتنا عليها».

«القوات البريطانية تستعيد تماسكها، وترتفع معنويات أفرادها بشكل مفاجئ. وسرعان ما عُرف السبب؛ جحافل الإمدادات بدأت تصل إليهم، لواء المرتفعات و7th Dragoon Guards[19] أبرزهم».

«ينقلب الوضع وتنخفض معنويات قواتنا، الجنود منهكون، ولا إمدادات مقابلة. تضطر قواتنا إلى التراجع وترك المكاسب التي حققناها».

كنا نسمع هذه الأخبار من جندي الاتصال الذي يتلوها في الباحة أمام خيمة عرابي. تباينت مشاعرنا وانقلبت من النقيض للنقيض في فترة وجيزة جدًّا.

وقبل غروب شمس هذا اليوم ذاع في التل الكبير نبأ جديد فاجع!

---

19) الحرس السابع للدراجين (الأميرة الملكية): فوجًا من سلاح الفرسان في الجيش البريطاني. [المُترجِم].

أميرالاي مهندس محمود فهمي، قائد الخطوط والتحصينات الدفاعية لجيشنا، أسير الآن في مركز رئاسة القوات البريطانية!

تعالت الأصوات، ذلك الأَسر ضربة قاصمة لدفاعات التل الكبير، وتوقيتها مروع!

كان عرابي أكثرنا استيعابًا لهذه الفاجعة؛ إذ سرعان ما أرسل نائبًا شخصيًّا عنه، بصفته ناظر الجهادية، إلى رئاسة القوات البريطانية، يستعلم عن الموضوع. ولم تمضِ ساعات قليلة، إلا وعاد نائبه ومعه النبأ اليقين.

تم أسر محمود فهمي وهو في طريقه إلى التل الكبير. كان حر سبتمبر الشديد، سببًا في خلع محمود زيه العسكري الرسمي، وسار بزيه المدني بالجانب الآخر من وادي الطميلات، تسلق تلة رملية منخفضة بين التلال الرملية العديدة التي تتخلل الرمال المنزرعة. كان محمود بمفرده، بعدما ذهب مساعده في شأن ما له في قرية من القرى القريبة، فانقضت عليه قوة إنجليزية من الجيش الإنجليزي تدعى «حُراس الحياة»، ودونما معرفة شخصية لأسيرهم سلموه لقائدهم «تالبوت»، فادعى محمود أنه مجرد مدني من الأفنديات أصحاب الأملاك في المنطقة، وكاد العقيد تالبوت يصدق، لولا قراره في اللحظة الأخيرة أخذه معه إلى مركز رئاسة القوات البريطانية، وهناك، عرف حقيقة شخصيته، وحقيقة أسيره الثمين. وطبعًا قوبل طلب عرابي باسترداده برفض قاطع. ليتهدم عماد جديد في بناء معركة التل الكبير المرتقبة.

بعد صلاة العشاء، تتكون جماعات للذكر، وأداء التواشيح، والدعاء. كنت أرقب الأصوات المتداخلة لهؤلاء وهؤلاء من بعيد، في تجوالي على قدميَّ اللتين تغوصان في الرمال، أفكر وأعيد التفكير، ترى ما وضع

القصر الآن، ما حال المهردار، والخديوي، ترى هل لديهم أدنى فكرة كم يكافح قاطنو هذا المعسكر للدفاع عن أرض مصر؟

أتاني الجواب آنيًّا، رددت الجواب لنفسي بسخرية مريرة: «لا طبعًا، فكل ما يهمهم، مقاعدهم، ودونها الرقاب».

وانتبهت لوقع خطوات تقترب مني، إنه شاب أزهري أنحف من عود قصب، لا أذكر اسمه، بيد أن غير مرة سمعته يتحدث في جلسات شرب الشاي الليلية، هو شاب مثقف نابه لا غرو. كان النديم ليسعد به إن كان موجودًا. وبادرني الشاب: «ما أشبه أحوالنا الآن بأحوالنا قبيل مرج دابق». التفتُّ إليه، تابع: «في هذه المعركة كان النصر ليكون في متناول المصريين، لولا خيانة خاير بك الغزالي، عندما انسحب بقواته من ميمنة جيش مصر في المعركة، فكان من أبلغ نتائج ذلك انتصار العثمانيين، وبدء الاحتلال العثماني لمصر. أخشى ما أخشاه أن يتكرر ذلك الآن، ولكن مع الإنجليز!».

توعكت معدتي، قلت: «مع ذلك، لا تنكر أن الإنجليز أقوياء، منظمون».

مط الشاب شفته السفلى: «مهما كان العدو قويًّا، لولا وجود الخونة، لما كانت لمساعيهم هذه النتائج».

وفيما أفكر في عبارته، تركني ومضى، ليذهب في صمت كما جاء.

وهكذا، وفي نهاية الليلة، كنت مثل غيري، إحباط كثير، نوم قليل، وتشاؤم مُقيم من الغد!

***

صحوت على ضجيج حفر وتكسير، نظرت حولي، الخيمة الجماعية التي أنام فيها خالية، الجميع بالخارج. قمت شاعرًا بعدم رغبة في النهوض. عند الزير الكبير، وفيما أغسل وجهي سمعت صوتًا متحشرجًا يقول: «اليوم الثاني عشر من سبتمبر، هل يعقل حتى الآن يبقى جيشنا بلا قائد؟».

التفتُّ لصاحب العبارة، رجل تعدى الستين، رياضي القوام، يثبت قاعدة بندقيته الطويلة إلى الأرض، واضعًا كفيه فوق الفوهة. قال مجند بجواري: «الأميرالاي علي الروبي سيصل التل الكبير بعد أقل من ساعة، قد وردتنا إشارة بذلك قبل دقائق».

رفع العجوز أحد حاجبيه كالمتشكك: «الروبي اسم كبير في عالم الحربية، بيد أني لا أكف عن التساؤل؛ أنى له تنظيم قواتنا هنا، والعدو على مرمى البصر؟!».

قلت له محتارًا: «وما المشكلة؟».

رمقني بنظرة طويلة: «الفتى لم يسبق له الالتحاق بالجهادية؟».

قلت متحديًا: «وهل فعلت أنت؟». شد قامته في اعتداد: «الواقف أمامك خدم تحت قيادة خير قادة القرن؛ إبراهيم باشا، نجل محمد علي باشا».

رمقته في توتر، تابع: «إن سبقت لك الخدمة بالجيش لعلمت أن كل شيء يأخذ وقتًا، وأنت هنا لست في مناورة تدريبية، هذه حرب حقيقية. ثمة جنود بالآلاف يتعين تنظيمهم وتدريبهم. هذا أمر يستغرق بأقل الأحوال أسابيع، ولا أقول شهورًا».

قلت: «وهل هناك حل آخر؟».

قال: «أنا قلق أيها الفتى، قلق. لقد شهدت بعيني أيام مجد الحربية المصرية، شهدت أيامًا تكتلت فيها أقوى دول العالم للوقوف ضد جيشنا. لذلك تطوعت الآن، ولذلك أنا مُتخوف جدًّا على هيبتنا التي كانت».

وفيما أسمع له، مر مُجند ينادي بأن ناظر الجهادية رفع درجة التأهب للدرجة القصوى، ويسأل الجميع التعاون والتجاوب.

وبالفعل، بدأت أتوتر وكل من حولي يهرولون، كلٌّ في شأنه. أحسست أنه يتعين عليَّ فعل شيء ما؛ لكنني أجهل ما هو!

وكانت صلاة الجماعة بالعصر قصيرة على غير العادة، بعد انتهائها علمت أن الروبي في التل الكبير، وأن العمل والتدريبات تجري على قدم وساق. استبشرت خيرًا، رغم كلمات الرجل الستيني المتشائمة.

بقي الوضع كذلك حتى وقت العشاء، لاحظت أن صلاة الجماعة عادت طويلة، على النقيض من قراءة صلاة المغرب المقتضبة. بعد ذلك ترامت في أنحاء المعسكر الأصوات الجماعية للذكر والتواشيح من كل مكان.

استغربت التغير، فكرت في الذهاب لخيمة عرابي، علَّني أعرف السبب، كنت أعرف صعوبة الدخول؛ لكن الرفض عند الباب كان سيريحني من عناء الضمير، فقد حاولت وأخفقت. هذا يرضيني بدلًا من الندم على عدم المحاولة.

ذهبت لخيمة عرابي متوقعًا عدم وجوده، حتمًا يمر على الجند والتحصينات. ذهبت لخيمة عرابي مُستبعدًا الدخول؛ لكني وجدتُ عرابي، كان جالسًا في خضم جلسة جماعية للذكر والدعاء. قام يستقبلني في دماثة كعادته مع الجميع، وحينما لمح دهشتي من انكباب معظم

الموجودين على قراءة صحيح البخاري بالذات، قال بنبرة سمحة: «يودون من الله كسب المعركة بتلك القراءة».

لا ريب طفرت نظراتي بالدهشة، لعل ذلك سبب استدراك عرابي: «تلك عادة مملوكية، لا ضير من استمرارها». وبادرته مباشرة بتساؤلاتي عن تباين حال المعسكر في الساعات الأخيرة، قال باقتضاب وإن بنبرة مطمئنة: «الإنجليز لن يهاجموا قبل أسبوع».

كانت قسماته مُفعمة باليقين، ويبدو أن ملامحي حملت تشككًا، فتابع: «وردتني تأكيدات بذلك من مصادر شتى».

حملقت به بعدم استيعاب، استطرد: «الأميرالاي علي بك يوسف، قائد الآلاي الثالث مشاة، جاء لي وأكد أن كشافي قواته دلت مراقبتهم أن الإنجليز يستردون أنفاسهم، ويعيدون تنظيم قواتهم بطريقة تدل على أن أمامهم أيامًا طوالًا حتى ينتهوا».

استمر تحديقي به، تابع: «كذلك البقلي ومسعود الطحاوي، كلاهما جاء إليَّ، وأكدا أن عيونهما من البدو المنتشرين حول معسكر الإنجليز، أفادوا بأن أمامهم ما لا يقل عن أسبوع قبل تحركهم».

كنت أفكر فيما سمعت، وهو يردف: «فأردت عدم الضغط على الجُند، وإراحة المعسكر والقوات، وليس أفضل من قضاء الليل في جلسات الذكر والمدح والدعاء، جلبًا للتوفيق والبركة».

كدت أقول إن الكد والعمل والأخذ بالأسباب لهم الأولوية، ثم يكون ما يكون بعد ذلك، إلا أنه تركني وعاد لقراءة صحيح البخاري.

خرجت من الخيمة، تتضاربني المشاعر، هل أقلق، أم أطمئن؟

***

(20)

«الإنجليز وسطنا، الإنجليز دخلوا التل الكبير!».

راودتني هذه العبارة بتكرار عنيف، وأنا ما بين الاستيقاظ والنعاس، لا أعلم، فأنا لا أحلم عادة، وقبل أن أعزو الأمر لكثرة تفكيري، إذا بانفجار شديد يقع بالقرب مني، لأفزع من فراشي مذعورًا، وسرعان ما عادت لي يقظتي كاملة، لأستوعب ما حولي. أصوات رشقات رصاص، أصوات صراخ، لغة ذات لكنة مميزة أعرفها جيدًا؛ لكنة الإنجليز.

أخرجت الساعة من جيبي، إنها الواحدة والنصف بعد منتصف الليل!!!

ارتديت ملابسي كاملة مُسرعًا، تنطوي داخلي مشاعر كئيبة، شاعرًا بأن خروجي بدونها في هذه الظروف كارثة.

وخرجت إلى الفوضى الكاملة. الأرض الرملية فوقها جثث لا زالت دماؤها مُراقة طازجة، الخيول تمرق هنا وهناك، طلقات الرصاص تتداخل مع طلقات المدافع، الغبار يغشى كل شيء. ألمح السترات المميزة للجيش البريطاني، أغلب جنودهم من الهنود والبنغال بملامحهم المعروفة، يُعملون الخناجر المثبتة في مقدمات بنادقهم في أجساد المصريين والسودانيين المدافعين عن الأرض.

استبد بي الهلع، وقبل أن يأخذ بعقلي، استعدت سيطرتي على نفسي مع صيحة هادرة، التفتُّ لمصدرها، كان محمد عبيد، الأميرالاي، يدخل في

غمار مجموعة من الإنجليز، مُتقدمًا فرقته من الجنود السودانيين العاملين تحت إمرته.

رأيته يقاتل في بسالة وكفاءة مدهشة، يستعمل مسدسًا تلو آخر، كلما فرغت بندقية من الذخيرة التقط أخرى، طلقاته لا تفوت أهدافها، تخترق الرؤوس والقلوب، رأيته يقفز عاليًا وفي يده خنجر ماضٍ، يعمل به في أجساد العدو. حملقت فيما أراه، كنت أتذكر هذا الرجل، كان هو الذي حرر عرابي من محبسه في ثكنات قصر النيل قبل عام ونيف.

تراجعت للوراء مع عنف القتال المتبادل، ودانات المدافع التي تتساقط على كل مكان، جعلت أتساءل؛ ما أعلمه أن الجيش الإنجليزي رابض على بعد خمسة عشر كيلومترًا، فكيف ساروا كل هذه المسافة دون أن يشعر بهم جيشنا؟ جنودنا منتشرون على امتداد ستة كيلومترات، داخل الخنادق والاستحكامات المقامة من الرمل والطين، منهم الآلاف ممن يحملون سلاحًا، ومنهم من لا يحمل شيئًا. كيف دخل الإنجليز بهذا الشكل؟! ألم يقل قادة عرابي قبل ساعات إن الإنجليز لن يأتوا قبل أسبوع؟!

عرابي!

ووجدت نفسي أركض نحو خيمته، بغض النظر عن معقولية الأمر من عدمه؛ لكنني لا أعلم أحدًا هنا، يجب أن أكون معه! لن أكون وحدي وسط كل هذا!

ودخلت خيمته، وجدته انتهي من ارتداء حذائه العسكري طويل العنق للتو، وكان من الارتباك في غاية، وخادمه يعاونه في ضبط زيه.

هتفت بعرابي؛ لكن صوتي ضاع على الأرجح مع ضجيج الرصاصات والمدافع. مرق عرابي خارجًا وأنا في أثره، اعتلى جواده وانطلق إلى قلب المعركة، رأيت جوادًا يتحرك متوترًا، اعتليته وأنا أوكزه متتبعًا عرابي دونما تفكير.

لحقت بعرابي وأنا أسمعه يكرر كما لو يحدث نفسه: «ما كل هذه الفوضى؟!». جاور بجواده جواد الأميرالاي أحمد بك فرج، صاح به: «كيف جرى ما جرى؟ كيف يفاجئنا الإنجليز بهذا الشكل؟!».

صاح أحمد فرج فيما يصوب بمسدسه على أحد الجنود الإنجليز في يده حربة طويلة: «المفترض أن أول من يواجههم طلائع الخطوط المصرية، فرقة السواري بقيادة عبد الرحمن حسن؛ لكن الكشافة أكدوا أن الإنجليز مروا من موقعهم بسلام تام، أما فرقة السواري، فلم يكن لها وجود!».

جذب عرابي عنان جواده ليدور حول نفسه، صاح: «هل ما أراه حقيقي أم أهذي؟! أغلب القادة لا أراهم!».

قفز الأميرالاي أحمد فرج من جواده، تفادى انقضاضة جندي بريطاني، ثم أرداه بطلقة فيما يهتف: «هربوا، أغلب القادة فروا، بجنودهم».

أرتج عليَّ الأمر، وكذلك على عرابي على الأرجح، الذي وكز حصانه لينطلق لوجهة لا أعلمها؛ لكنني تبعته على كل حال. توقف أمام قائد بدا لي مألوفًا، إنه اليوزباشي حسن أفندي رضوان، قائد المدفعية، كان لا يكف عن الصياح في جنوده وتحفيزهم وتوجيه ضرباتهم. ركض إليه عرابي وأنا أعدو وراءه، عندما وصلت إليهما سمعت قائد المدفعية يهتف:

«بعد هجوم لواء المرتفعات الإنجليزي، أصبح الهجوم علينا شاملًا، على الأغلب أجبر جنودنا على إخلاء خنادقهم. وفي تلك الأثناء، التف سلاح الفرسان البريطاني حول ميسرة الجيش المصري».

صاح عرابي بغير تصديق: «حقًّا قد هرب قادتنا؟!».

أجاب اليوزباشي حسن أفندي رضوان في صلابة: «ما زالت منا قلة رابضة لم تهتز، أما البقية، فثمة قوة إنجليزية من الهنود توجهوا إلى الجسر الذي يعبر ترعة الإسماعيلية، عند المؤخرة، ليتعقبوا المصريين الهاربين ويقطعون الطريق عليهم».

عاد عرابي كالمذهول إلى جواده، وأنا في أثره. طفق يحاول عبثًا تهدئة الفارين من جنوده؛ لكن التيار كان جارفًا، ضاع صوته في انفجارات دانات المدافع وطلقات الرصاص، وكادت القنابل تصيبنا غير مرة؛ لكن لسبب ما تخطئنا النيران. ووسط كل ذلك سمعته كما لو يحدث نفسه: «أنام في خيمتي بعد سهر في قراءة الأوراد والأدعية، فيحدث كل ذلك!».

وأوقف عرابي جواده عند الأميرالاي عبد القادر بك عبد الصمد، سأله لاهثًا عما جرى، فأجابه بصوت يقطر حنقًا: «أكد كشافتنا أن الجيش الإنجليزي ترك أنوار معسكره مضاءة ليوهمنا أنه في مكانه لم يبرحه، فيما تحرك بقواته باتجاهنا ليزحف في الظلام الحالك دونما شعلة واحدة، في رقم لا يقل عن أحد عشر ألفًا من المشاة وألفين من الفرسان مسلحين بالحراب، مع ستين مدفعًا. الأنكى، أن جنودي أكدوا مشاهدة البدويين (النقلي) و(سعيد الطحاوي) في المقدمة، يرشدونهم إلى الطريق، ولم يكونوا وحدهم، بل كان يعاونهما لفيف من ضباط أركان حرب، منهم عدد من الچراكسة، ميزنا بينهم الأخوين شقير».

شحب وجهي، ليس لأنهما عمَّاي المزعومان، فالخيانة وقرت فيهما من قبل، وعرابي سبق وأخبرته بقصتهما معي كلها، ولكن ما دام البدو خانوا الجيش، فهذا يدل على أن السفير الإنجليزي لدى الباب العالي قد أدى مهمته بكفاءة، وأخرج لهم سجناءهم، وها هم الآن يردون الجميل! وبئس ما هو!

والتقطت طرفًا من عبارة الأميرالاي عبد القادر: «الملاعين، تعمدوا مهاجمتنا في الهزيع الأخير من الليل، حتمًا يعلمون بتفشي العشى الليلي بشكل وبائي بين جنودنا، المصريين بالأخص!». وانصرف عنا عبد القادر، ليهدر بصوته الجهوري في جنوده يحثهم على القتال، ثم يلقي بنفسه في جموع الجند الإنجليز.

ولمحت خادم عرابي -محمد سيد أحمد- يقبل علينا هابطًا عن فرسه، ويهرول إلى عرابي، ليصيح به بنبرة لاهثة: «عرابي باشا، يجدر بك ترك التل الكبير حالًا».

اتسعت عينا عرابي استنكارًا، انتبهت إلى أن خادم عرابي أتى بصحبة ضابط آخر، لا أعرفه، قال الضابط: «ليس في الأمر ما يشين، لطالما تحدث المجلس الحربي عن تفعيل المقاومة الشعبية، والمصريون يحتاجونك لقيادة المقاومة ضد الإنجليز، والدفاع عن القاهرة».

بسر عرابي كما لو كان يقلب الأمر في ذهنه، وقال: «كيف أذهب وأترك هؤلاء الرجال يقاتلون وحدهم؟».

قال خادمه سيد أحمد بإلحاح: «يا باشا قواتك الباقية هنا تدافع ببسالة،

لن تسقط التل الكبير بسهولة؛ لكن بقية مصر مسؤوليتك، وتحتاجك خارج سيطرة منطقة الإنجليز لتتولى الدفاع عن كامل الأرض».

عبس عرابي: «وإلى أين نذهب؟». أجاب الضابط بسرعة: «إلى بلبيس».

ووكز عرابي فرسه لينطلق، والضابط جواره، وأنا في أثرهما.

غادرنا التل الكبير المشتعلة، التفتُّ للوراء ألقي نظرة أسى أخيرة، كانت الدماء تخضب رمال الصحراء، رمقت في أسى الذئاب وقد أقبلت تنهش الجثث التي ملأت الخنادق التي أقامها الفلاحون المصريون من الرمل والطين والدماء!

***

لم تمض فترة قصيرة على انطلاقنا حتى توقف عرابي ليناوله خادمه زيًّا مدنيًّا عوضًا عن زيه العسكري، كذلك فعل الضابط المصاحب، ثم عاودنا انطلاقنا السريع حتى بلغنا محطة قطار التل الكبير. لم يكن الإنجليز قد احتلوها بعد، مع ذلك لم يشأ عرابي استقلال القطار، تجاوزه إلى جسر القناة الصغيرة، انتهز فرصة أن الإنجليز لم يسيطروا عليه بالكامل وسارع بعبوره. وصلنا بذلك إلى الضفة الأخرى من وادي الطميلات، حتى وصلت بنا الجياد إلى بلبيس. من هناك استقللنا القطار إلى القاهرة.

قبع علينا جميعًا الصمت، إلا من تمتمة أسمعها من عرابي كل حين وآخر: «لقد ضاع كل شيء». كان يولي وجهه شطر النافذة، لم يحركه حتى وصلنا القاهرة، في توقيت ما بين الظهر والعصر.

وقتها فقط تحرك لسانه: «أرجو أن نكون قد وصلنا للمحروسة قبل

أن يصلها أنباء سقوط التل الكبير»، وخصني بالحديث: «يجب أن نقوم فورًا بتجهيز المدينة للحرب والدفاع».

طلب عرابي ذهابي معه إلى ثكنات قصر النيل، توجهت معه وأنا واجف القلب واهن القوى. كنت ألوم نفسي، رغم كل ما شهدته من قتل وجثث، بطني تؤلمني تطلب طعامًا. تركني عرابي بإحدى القاعات وذهب إلى جلسة تعقدها لجنة الحرب. لم يطل غيابه أكثر من ساعة، خرج بعدها كالح الوجه مظلم النظرات، في خروجنا علمت منه أن اللجنة لم تطرح سوى خيار الاستسلام للخديوي. قال إنه غادرهم مُعلقًا رأيه. أسرَّ لي أن المجلس الحربي غير ملتفٍّ حوله كما ظن.

في مغادرتنا الثكنات توقف عرابي غير مرة متحدثًا مع ضباط وجنود، عاد بعدها أكثر كآبة. لا أعلم كيف التقينا عبد الله النديم فجأة أمامنا، عانقنا بحرارة، وإن كان بلا بهجة. وحينما قال له عرابي عما رآه من اللجنة والجنود، قال: «الكميات الهائلة المطبوعة من المنشورات في أنحاء القاهرة قد أتت ثمارها، عبر ما لمسه من فتور حماسة الجميع، بعد إعلان السلطان العثماني تمردك وعصيانك».

امتقع وجه عرابي، فيما النديم يتابع: «خبر سقوط التل الكبير منتشر في القاهرة منذ زمن، لا أستبعد أن رجال الخديوي وراء ذلك». وأوقف أحد السوارس، ركبنا، فيما يتابع: «خطط المقاومة الشعبية وبناء الخنادق صارت شيئًا من الماضي، لم يعد من يتحمس للمقاومة سوى أهل البلد البسطاء والفتوات. هم قوة؛ لكنها لن تحدث أثرًا مع الأسلحة المتقدمة للإنجليز. ستكون مذابح لا تنتهي».

غمغم عرابي بنبرته الرخيمة: «من الناحية الاسمية، فإن بالقاهرة أكبر حامية عسكرية؛ لكن الحقيقة أن أفرادها من المجندين الجدد. مع ذلك كان بالإمكان التشبث بالقلعة والاحتفاظ بها وبالتالي التحكم في المدينة. لكن مقابل ذلك تعريض ما أسفلها من القاهرة للدمار والخراب الكبير من قبل الإنجليز. مسؤولية اتخاذ ذلك القرار ثقيلة الوطأة». ثم حدَّث النديم: «إلى أين تأخذنا؟».

قال: «أتيت إليك حاملًا رسالة من علي فهمي. لقد توقع ذهابك للثكنات، وطلب مني انتظارك والعودة بك إلى بيته».

وساد الصمت بيننا، شخصيًّا نضب ريقي، ولم أعد أحس للكلام جدوى.

رغم إصابته استقبلنا علي فهمي بحميمية بالغة، فوجئت أن لديه أحد أحدث الأنباء عن التل الكبير، ولحظة بلحظة. كنا نعلم بسقوطها؛ لكنه أخبرنا بارتقاء كل من بقي فيها، ما يربو عن ثلاثة آلاف جندي. وومض بذهني وجوه الجنود الكادحين الصامدين، تذكرت صرامة ومسؤولية القادة الأربعة الذين التقيتهم صباح اليوم في قلب المعركة، الأميرالاي أحمد بك فرج، والأميرالاي عبد القادر بك عبد الصمد، واليوزباشي حسن أفندي رضوان، والأميرال محمد عبيد. قال علي فهمي بصوت يقطر أسى: «ظفر جميعهم بالشهادة، شهادة أنهم كانوا رجالًا». وبادر عرابي: «يجب تفعيل خطط الدفاع عن القاهرة فورًا».

مد عرابي ساقيه أمامه، وطفق يخبره بما رآه من تخاذل الجميع وتجنبهم له. امتقع وجه علي فهمي حينما عرف بقرار لجنة الحرب: «نعتذر ونطلب

العفو من الخديوي؟! هكذا سوف تتم صياغة دفاعنا عن أرضنا على أنها تمرد على سلطة الخديوي، ونحاكم بالخيانة العظمى!».

قال عرابي: «أحد أعضاء اللجنة انتحى بي، وأخبرني أن الخيانة الحقيقية في صفوف الجيش يشيب لها الولدان، وأن الأمر أكبر منا جميعًا. وأنه علم من أحدهم أن المخطط كان أن ولسلي أمر بإعدامي رميًا بالرصاص في التل الكبير متى التقوني».

«وتريد أن تسلم نفسك لهم؟!»، قال علي فهمي.

تنهد عرابي: «لم أحسم شيئًا بعد. لكن إن سلمت سيفي إلى الجنرال الإنجليزي المسؤول، فسأورطه بذلك في الالتزام بالتقاليد العسكرية، في وجوب معاملتي كأسير، وكذلك تأمين محاكمة عادلة». وصمت برهة، ثم قال: «استسلامي كأسير حرب، هو موقف مرحلي، إلى حين مجيء قوات السلطان العثماني، وقتها سيكون هناك شأن آخر. لا يمكن أن يسمح خليفة المسلمين باحتلال الإنجليز لمصر».

واحتدم بينهما حوار طويل، ثقل رأسي عن متابعته، كنت أفكر في النهوض والعودة لبيتي، حينما قال لي علي فهمي: «فلتقضِ ليلتك معنا يا مظهر». قلت: «لا داعي، كنت على وشك المغادرة على كل حال». ألح فهمي: «اقض الليل معنا، علَّها تكون آخر مرة نجتمع فيها معًا».

مست عبارته قلبي، نبرته المفعمة بالتأثر جرحتني، أحسست بكتفيَّ يتهدلان. سكنت في جلستي، ولم أنبس ببنت شفة إلى اليوم الذي يليه.

***

الصباح التالي، أيقظنا علي فهمي على خبر وصول ولسلي وكبار ضباطه مع طلائع القوات الإنجليزية للقاهرة، بعدما استقلوا قطارًا للقاهرة من الزقازيق. كان الأنكى ما سمعناه من علي فهمي، حين صاح بصوت يضطرم انفعالًا: «تخيلوا؟! الأميرالاي علي بك يوسف هو من قام بتسليم مفاتيح القلعة لـدروري لاو، القائد الإنجليزي، فور قدومه بقواته من خيالة الهنود إلى القلعة».

ردد عرابي: «دروري لاو!».

تابع فهمي: «دروري لاو فور مجيئه توجه أولًا لنظارة الجهادية في العباسية، ليسيطر عليها، ثم طلب مفاتيح قلعة صلاح الدين الأيوبي».

ولوَّح بيده في إنهاك: «أبلغني أصدقائي في الشرطة، أن الإنجليز يقومون فور وصولهم بحملة اعتقالات للوطنيين، بلغت في تقديرهم ثلاثين ألفًا حتى اللحظة!».

اتسعت عينا عرابي، بدا كما لو استفحل الرقم، ثم قال بنبرة ثقيلة: «قُضي الأمر. إذن، يتعين عليَّ المبادرة بالذهاب وتسليم نفسي. لئلا يكون الوضع أسوأ لو قبضوا عليَّ قبل ذلك».

«سأرافقك إلى هناك»، خرج صوتي حازمًا على غير العادة. قال عرابي: «قد يعتقلونك». قلت: «حتى اللحظة أنا رجل القصر. ثم إن الإنجليز لي معهم ما سبق وحدثتكم بشأنه».

كان المتفق عليه ذهاب عرابي والأميرالاي علي باشا الروبي معًا، فصممت على مرافقتهما، وهكذا غادرنا إلى هناك. وفي الطريق وجدت نفسي أتذكر أول مرة رأيت فيها عرابي، كان وقتها محبوسًا في ثكنات قصر

النيل. تعجبت من دوران الأيام، مر الزمن، وها أنا في طريقي، ربما لآخر لقاء مع عرابي، في الحبس أيضًا.

ودلفنا لمبنى النظارة في العباسية، الجند الإنجليز في كل مكان، قبل دخوله إلى مكتب دروري لاو توقف عرابي، صافحني ليشد على يدي، وقال بنبرته الرخيمة: «أعتز بمعرفتك يا مظهر». ودونما كلمة أخرى، دار على عقبيه، ودلف للداخل.

قبعت في مكاني أرقب الباب الذي أُغلق للتو. شاعرًا كأنني أهوي من علٍ، هاويًا إلى أعماق سحيقة.

***

ووصل الخديوي أخيرًا لقصر عابدين في الخامس والعشرين من سبتمبر، بعد اثني عشر يومًا من استسلام عرابي. دخل الخديوي القاهرة في موكب مهيب، في حراسة الإنجليز، لم يمنع أولئك الصبية والفتية المصريين من عمل زفة مميزة للخديوي، يمعنون فيها بإهانته، عبر أغانٍ وأهازيج ساخرة.

سريعًا، تم تكليف محمد شريف باشا باستئناف النظارة الرابعة، والتي كلف بها في الواحد والعشرين من أغسطس الماضي. ما أستغربه، أنني -بحكم عملي في القصر- لطالما حضرت مقابلات هذا الرجل المهيب. لم أفهم، كيف استطاع التصالح مع نفسه بهذا الشكل، ليقبل العمل مع محتل؟! أنا أفهم كم الضغوط على هذا الخديوي الشاب، ولكن، ترى ما دوافع محمد شريف باشا؟ الأنكى، تماشيًا مع التنكيل بكل من شارك أو تعاطف مع الصحوة الوطنية، مصطفى رياض الذي كان المطلب الأول

للثورة العرابية الأولى إسقاطه؛ عاد مرة أخرى ناظرًا للداخلية، وكأن ثورة لم تتم، وصحوة لم تقم.

كم أتعجب من تحول كل شيء للنقيض بهذه البساطة، الصحف تبدلت عناوينها الرئيسية من الحماسة للحركة الوطنية، إلى وسمها بالتمرد والهوجة! عرابي تحول وصفه من كبير الأمة إلى المتمرد والعاصي! أشراف وأعلام الأزهر والحركة الوطنية تحول إجلالهم إلى الاستهجان بهم والحط منهم!

عوضًا عن الحزن الصاعق لثاني احتلال أوروبي لمصر -بعد الاحتلال الفرنسي- باتت الصحف تهلل وتبشر بالنعيم القادم، تمجد في الإنجليز والنقلة التي سيحققونها لمصر. تصف الخديوي -الشاب الثلاثيني- بذي الرؤية البصيرة، والحكمة المقطرة. كنت أضرب كفًّا بكف، وأنا أرى الرجاء في دولة قومية مستقلة يمسي حلمًا تذروه الرياح، ليبتهج الجميع لكون مصر الآن تحت رسن البريطانيين!

محاكمة عرابي ورفاقه تجري على قدم وساق، كافة الدوائر الرسمية تبشر بالنعيم القادم على المصريين بفضل وجود البريطانيين. وأنا تتردد في ذهني عبارة: ما من خطر خارجي بوسعه تركيع البلاد، لولا اتصاله بخيانة داخلية فاعلة.

إنجلترا تقول إن وجودها في مصر مؤقت، مرهون فقط باستتباب الأمر للخديوي وتثبيت سلطاته.

هل يصدقون؟

هل حقًّا غير طامعين في خيراتنا؟

هل صدقًا يرحلون سريعًا ويتركون أرضنا العربية وشأنها؟

هل فعلًا بوسعنا استكمال أحلامنا وتحويلها إلى حقيقة؟

نحن الآن في الحادي والعشرين من ذي القعدة لعام 1299، الموافق الثالث من أكتوبر عام 1882، ربما لا زالت باكرة هذه الأسئلة، وربما إجابتها أقرب ما تكون.

لنعش، ولنرَ[20].

20) إلى هنا انتهت المخطوطةُ الأولى، معَ الرجاءِ بتوفرِ الجهدِ والوقتِ لترجمةِ المخطوطةِ الباقية. [المُترجِم].